جولـــــة

في ادب الجاحـــــظ

بقلـم

عادل الزواتي

وهي الرسالة التي قدمت للدائرة العربية في الجامعة الاميركية ببيروت في ٢٥/ ٥/ ٤٥ لنيل درجة استاذ في العلوم

الاهـــداء

" الى الذين لا يعملون ،
" ويؤذيهم ان يعمل الناس ،
" أهدى رســالتي هذه ،
"لعلها تثير هممهم إن كانت فيهم هم ،
"أو لعلها تُخجل ذممهم إن كانت لهم ذمم ،
" فيساعدونا او يتركونا نعمل في هـــدوء ".

الزواتي

الفهرس المجمل

الفهرس المفصل

الفصل الاول في حياة الجاحظ ١١-٤٩

(في اسمه) ما هي كنية الجاحظ . ترى ابو عثمان ام ابو عمران . ثم ما هو اسمه . ترى عمرو ام عمر . ثم ما اسم ابيه . ترى اهو بحر ام محبوب ام يحيي ام الجاحظ . ثم ما اسم جده . اهو محبوب ام فزاره ام غير ذلك. وبعد هذا ما هي ألقاب الجاحظ . ولماذا لُقب بالجاحظ . ولماذا بالحدقي . واخيرا ما هي انسابه . لماذا هو الكناني . ولماذا الليثي . ولماذا الفقيمي . ولماذا البصرى وبالتالي ما هو اسم الجاحظ الكامل المحقق . هذا ما سنعالجه في هذا القسم.

(في نسبه) ترى هل كان عربيا . ولماذا . ام كان فارسيا . ولماذا. ام كان حبشيا . ولماذا. ام كان زنجيا. ولماذا. ام كان غير كل هاته . فان كان فماذا كان . ولماذا كان...

(في تاريخَيه) متى ولد الجاحظ . واين . وكَيف . ولماذا. متى مات الجاحظ . واين . ولماذا . ما هي التواريخ المعطاة لكلٍ . وما هي قيمتها من حيث الصحة .

(في بدء حياته) كيف كان . في اى الظروف تقلب . واى الصعوبات قاسى .

(في ثقافته) ما هي مدارسه " الكتاب . المسجد . المربد . دكاكين الوراقين . مجالس الادب . الرحلة في طلب العلم. مدرسة الحياة ". ومَن هُم اساتذته " الانصارى . ابو عبيدة . الاخفش . النظام . غيرهم" . ثم ما هو

نوع الثقافة التي ثقفها " العربية . الفارسية . اليونانية . الهندية . غيرها " .
واخيرا ما هو وزن هذه الثقافة من حيث قيمتها العلمية .

(مع كبار الدولة) مع المأمون . مع ابن الزيات . مع ابن ابي دؤاد . مع ابنه . مع الفتح ابن خاقان . مع غيرهم . ثم اثر هذا عليه .

(نصيبه من الحياة) المال . ماذا اصاب منه . والجاه . لاي حد اظله . والمركز الادبي . لاية درجة صعد فيه . وأخيرا ماذا أفاده كل ذلك .

(اخلاقه وشمائله) قبل هذا . ما هو وصفه الشخصي . وما الروايات الواردة فيه . ولماذا اضاف اليه السندوبي لِحْيَة . ثم لماذا هو عادل . ولماذا كريم . لماذا احب الحياة . وماذا قال الغير فيه . ثم واقعيته . ما القول فيها . والى اى حد اثرت في ادبه وعلمه ونظراته في الدين . واخيرا ما القول في جِدّه . وما الرأى في هزله . والى ايهما هو في طبعه أميل . وهل كان له غير هذه من اخلاق يمكن الاشارة اليها .

الفصل الثاني في كتب الجاحظ ٥٠-١١٨

وفي هذا التعداد راعينا إثبات وجود الاسم للكتاب . سواء بذكره . او بوجود مخطوطة له . او بكونه مطبوعا . او باجتماع اكثر من عامل من هذه الثلاثة . فكان لنا ٢٨٥ كتابا .

(هو باسم غيره) ترى هل كتب هو باسم غيره . ولماذا . ثم من هُم الذين كتب باسمهم . وما هي الكتب التي كُتبت بهذه الصبغة .

(كتب مفرده باسماء متعددة) ماهي هذه الكتب . وما هي اسباب ذلك الالتباس

" التصحيف . التحريف . تبديل ماهية الكلمات . تبديل اماكن الكلمات . نقل المعنى دون التقيد بنص المبنى . اشياء اخرى " . وبعد هذا ما الرأى في كل التباس من هذه . وما تعليله الخاص بعد العام .

(غيره باسمه) ترى هل كتب غيره باسمه . ولماذا . وما هي الكتب المنسوبة اليه ولماذا نرى نحن ذلك في كل منها .

(التي ضاعت) لماذا ضاعت وهل نعرف عنها شيئا .

(والخلاصة) كم كتابا نستطيع ان ننسب للجاحظ . (١٥٢-١٦٤) .

(الرئيسية) الحيوان . ثم البيان . ثم البخلاء . ذِكْر كل منها . مخطوطاتُه . طبعاتُه . ما قيل فيه وما كُتِبَ عنه . وصفُ مادته حسب أجزائه ببعض التفصيل . نظرات وخطرات على هامشه .

(الثانوية) رسائله المختلفة مرتبةً حسب الترتيب الأبجدى . وقد كان لنا منها اربعون رسالة تختلف كل منها عن الاخرى من حيث اهمية النّظرة اليها .

(المنسوبة) خصوصا التاج والمحاسن .

(سعة انتشارها) مع أدلتها واهميتها .
(غمزات اعداءها) مع امثلتها وقيمتها .
(خطرات انصارها) مع امثلتها واقيمتها .
(والنتيجة) "كُتب الجاحظ تُعلم العقل اولا والادب ثانيا" .

الفصل الثالث في اسلوب الجاحظ ١١٨-١٨٢

(النظرى) اعرف كفاءتك . وضح فكرتك . اختر ساعتك . ابدا بالكتابة

مبسملا ومحمدلا . لكن حذارِ من الغرور. والضَّجَر . والانانية . ونقدات قارئك . ونَقْدَها اعرِضْ منتوجك على من عركوا الحياة . وشاوِرْهم في الامر .

(العملي) كان يختصر لئلا يُمِل . ويلخص ليجمع المتباعد . ويكرر لكي يُرَسِّخ الفكرة . ويشرح لكي يجلو الغامض . ويستطرد لينوع . ويمزح ليرطب الجد . ويعد ليشوق . ويسائل قارئه ليُبقيه منتبها . ويخاطبه ليَبْقى منه على صلة . واخيرا كان يُحْجِم عن ابداء رايه الخاص خوفا من نفور القارئ .

كل هذا بالاضافة الى مسائل ميكانيكية لم يستغن عنها مثل " البسملة والحمدلة . والدعاء للقارئ . وذِكر غرض الكتاب . وسَرْدْ قسم من مادته . والتنويه بكتبه السابقة واللاحقة في جزئيات الكتاب " . بالاضافة الى ثنائية لم يتخلص منها برزت واضحة في كل ما كتب .

(أثَرُه) مَن هُم الذين تأثروا به . واين + وكيف . ولماذا .

(اسلوبه الخاص) ونعني التوازن . ما هي مقوّماته " الفاظ رشيقة . جُمل قصيرة . نَفَس طويل . جُمل مترادفة . كلمات مكرره . اطناب . ايجاز . ثم توازن يختلف باختلاف المقام " . ما هي مرافقاته " قلة المحسنات . مطابقة القول المقول . الوحي والاشارة . بروز الشخصية ". ما هي مواطنه " الرسائل . المقدمات . المواقف العاطفية . المواقف الوصفية " . روادّ التوازن " من هم . وفي اى المراجع ". فضل الجاحظ فيه " انه بلوره وسواه اسلوبا " . أتباعَ التوازن " من هم . وفي اى المراجع" . واخيرا نقد التوازن " من حيث هو اسلوب قائم بذاته" .

(الجاحظ والأُساليب الاخرى) الجاحظ و السّجع " لماذا احبته العرب . لماذا كرهته . ما هو موقفه الخاص منه ". الجاحظ والترسل " لماذا لم يحجم عنه . واين كان يترسل " . الجاحظ والرمزية " هل عرفها . وما هي رمزيته . وما قيمتها " .

(فلسفته في الاسلوب) الاسلوب هو الرجل . الاسلوب هو الموضوع . لا بل هو مزيج من عنصرين قويين هما الذاتية والموضوعية .

المقالة الثالثة في اسلوبه العلمي ـ ....١٧٠ ـ ١٨١

(كان يحقق) ما هي الادلة . وما هي البراهين . النظرية العامة. والعملية الخاصة.
(لم يكن) كذلك . لماذا .
(كان يحرج) لماذا كان هذا صحيحا .

الفصل الرابع في مادة الجاحظ ١٨٢ ـ ٢٢٦

المقالة الاولى في فن الجاحظ ـ ....١٨٢ ـ ٢٠٢

(النقد عنده) نقد اللفظة بحد ذاتها . نقد علاقتها بالمعنى . نقد علاقتها بالبيئة . نقد علاقتها باخواتها في الجملة . ثم ما هي المقاييس او الخطرات النقدية التي يمكن استنتاجها من اشاراته الكثيرة . وهل هناك غير " الوضوح والايجاز وعدم التكلف" .

(الجاحظ واللغة) مظاهر اهتمامه باللغة . سعة اطلاعه عليها . مع بحث في معرفة الجاحظ للفارسية او عدمها .

(الجاحظ وفقه اللغة) هل عرفه . ما قوله في أصل اللغة . ثم في بدئها . ثم في جذورها وتطور تلك الجذور . وعلم الاصوات ماذا قال فيه . واللهجات ما رايه في تلاقحها . ودراسة القوم بدراسة لغتهم الى اى حد برز فيه .

(الجاحظ والشعر) هل قال الشعر . وما القول في شعره . ثم ما رايه هو في تعريف الشعر . وفي قدميته . وفي ترجمته . وفي سرقته . وفي التوليد فيه . بالاضافة الى وحدة القصيدة وضرورة انتظام عقد ابياتها .

(باقي الفنون) الخطابة . ما شروطه في الخطيب . وما نقداته للخطبة. ثم القصة . ما ميزات قصته . وهل نستطيع ان نسميه قصاصا . ثم حكاية هزله وادبه المكشوف . ما القول فيهما . لماذا اغرم بهما . واولع بدروسهما . هل من سبب . وما قيمة ذلك السبب في ميزان النقد الصحيح .

المقالة الثانية في علم الجاحظ ـ ....٢٠٤ ـ ٢١٧

(علم الحياة) ما رايه في النشوء والارتقاء (Evolution) . وما قوله في مجانسة البيئة (adapt. to environment) .

والتعاون بين الحيوانات . هل لاحظه . والتهجين في الوراثة . هل ادركه . والتوالد العذرى . هل تكلم عنه . وسنة تنازع البقاء . ما قوله فيها . وعلم الحياة الترتيبي ترى هل عرفه الجاحظ . وبعد هذا ما فضل الجاحظ في كل من هذه . وباى معيار يمكننا ان نزنها .

(علم النفس) وحب شيء الى الانسان ما منع . وشبه الشيء منجذب اليه . والمرء يجهل عيب نفسه . الى جانب مَيْل الانسان للتألُّه . وضعفه النفسي . وغيرها كثير كلها قواعد نفسية عرفها الجاحظ . وتكلم عنها . لكن تُرى ماذا قال فيها .

(علم الاجتماع) الجاحظ والمرأة . الجاحظ والأمامة . الجاحظ ونظام الطبقات ترى ماذا قال فيها . وباية عين نظر الى كل منها .

(علم الاخلاق) ترى ايريدها دنيا تَبَذُّل . ام دنيا تَزَمُّت . ولماذا .

(علم التاريخ) الجاحظ لا يريد التاريخ وصفا لاعمال الرجال بقدر ما يريده تحليلا لنفسياتهم وتبيينا لعلاقاتهم ببيئاتهم . يريده تاريخا اجتماعيا انسانيا . فلماذا .

(تقديره كعالم) ...

المقالة الثالثة في دين الجاحظ .... ٢١٨ - ٢٢٦

(موقفه من القران) ماذا قال في خلقه . وكيف نظر الي تفسيره . وكيف عالج مسألة اعجازه ...

(- من الحديث) لماذا اتُّهم بالوضع وعدم التحقيق . بماذا دافع عنه انصاره . واخيرا ما حقيقة الامر في موقفه من الحديث .

(- من الفقه) ما راى الجاحظ بالمرأة . وبحجابها . وبزواجها . وباختلاطها . ما قوله في الغناء . ثم بمسألة المشروبات الروحية . ثم بمسألة اكل اللحوم . واخيرا ما قوله في الرقيق تلك المشكلة التي لعبت دورا هاما في العصور الوسطى . ثم ما رايه بالفلسفة الدينية . " حرية الطباع القضاء والقدر . ثبات الجوهر . المعارف ". واخيرا عن اى الطرق وباى الوسائل وكيف كان يحاول الجاحظ التوفيق بين الدنيا والدين . العقل ________________

المقالة الاولى = تحقيقات

ان عظيما مثل الجاحظ تعاورت اسمه كثير من الاقلام وتداولت ذكره اكثر الالسن ، وتقلب هو نفسه في ظروف جداً متغايرة ، لا يُستغرب عليه ان تكثر التحريفات في اسمه او الاراء في نسبه ومثلها الاقوال في تاريخي ميلاده ووفاته . ولهذا خَصَّصنا هذا المقال لاظهار كل من هاته على حقيقتها جهدَ المستطاع .

اولا تحقيق في اسمه

تكاد تُجمع جميعُ المصادر التي رجعنا اليها في هذه الدراسة على انه (ابو عثمان عمرو ابن بحر بن محبوب ـ الجاحظ الحدقي ـ الكناني الليثي الفقيمي البصرى). لكن سوء النسخ تارة وحُب السرعة اخرى عَملتا كثيرا في هذه التسمية فحرفتاها بعض التحريف مما لا نستطيع معه الا ان نشير اليه .

<u>١ ـ كنيته =</u> روى ابن عساكر في تاريخه ان الجاحظ قال (نسيت كنيتي ثلاثة ايام . وعندما سألت عنها . قالوا لي انك تكنى ابا عثمان[1]) . وقال الجاحظ نفسه في مواطن متعددة من كتبه عندما كان يحب ان يشير الى نفسه اما براى خاص او بمناسبة خاصة (قال ابو عثمان[2]) . وعلى هذه التكنيه اكثر التابعين من امثال المسعودى في مروجه[3] وياقوت في معجمه[4] وابن خلكان في وفياته[5] وغيرهم كثير .

الا ان الوحيد الذى كان قد شذ عن هذا الاجماع هو ابو الفداء في تاريخه[6] ومن ثم ابن الوردى في مختصره[7] . اذ كنياه بابي عمران بدل ابي عثمان .

اما نحن فلا نرى في هذه التكنيه اكثر من تحريف نسخي مفضوح للتكنية الاولى . وذلك لاسباب . منها إجماع كل المصادر التي طالعناها على التكنيه الاولى وانفراد ابي الفداء وحده بهذه الثانية . ومنها شدة الشبه الشكلي بين التكنيتين (ابو عثمان وابو عمران) مما يُعيننا على الاخذ بمنظورية التحريف النسخي . ومنها ايضا تأخر ابي الفداء في الترتيب الزمني وانفراده بهذا الخلق الجديد مما يضعف روايته .

٢ - اسمه = هذا من حيث كنيته . اما من حيث اسمه فقد قال هو بنفسه وأجمعت اغلبية المصادر على ان اسمه كان "عمرو" . وقد قيل ان الجاحظ كان يحبه ويتشيع له ويعتز به . حتى انه كتب رسالة كاملة "في من يسمى من الشعراء عمروا"[١] . ليثبت وجاهة الاسم ويرغب الناس بتسميته به فيصرفهم عن " الجاحظ " الذي قيل انه كان يكرهه ويمقته ويأنف من سماع الناس ينادونه به[٢].

نقول على هذا اكثرية المصادر . الا اننا وجدنا اثناء البحث ان ابا الفداء[٣] يسميه "عمر" بحذف الواو ومثله ابن الوردي[٤] . كدنا نرمي بهاتين الروايتين عرض الحائط ونتهم صاحبيهما بسوء النسخ ثانية لولا اننا وجدنا ان فون فلوتن طابع " المحاسن والاضداد" يشير في هامش الصفحة الاولى منه الى ان مخطوطة " م.ب." من مخطوطات الكتاب سمت المؤلف "عمر" ايضا بحذف الواو . فعدلنا عن السرعة وعدنا نحقق وندقق ونقارن ونقابل بين كل ما وصل الينا عن اسمه .

لكن الوقت لم يطل حتى عدنا والايمان يعمر قلوبنا بالنتيجة الاخيرة وهي ان طرح الواو كان خطأ نسخيا لاسيما وان ابا الفداء ومثله ابن الوردي كانا متأخرين وان مخطوطة م.ب. هذه متاخرة في نسخها كما يدل تاريخها . هذا اذا ثبت وصح ان الكتاب نفسه للجاحظ . وعلى هذا فاسم الجاحظ هو "عمرو" ولا شيء سواه .

٣ - اسم ابيه = هذا عن كنيته وعن اسمه . اما اسم والده فقد عرف بانه "بحر" . وعلى هذا هو نفسه في المواطن التي تعرض فيها لذكر اسم والده في كتبه[٥]. وعليه ايضا اكثر المصادر التي تجد سردها في مكان اخر .

الا ان هناك تغييرات حدثت بخصوصه لا بد من اشارتها لانارتها . فالبغدادي في فرقه سماه "يحيي[٦]" . والسيوطي في بغيته سماه "محبوب[٧]" . في حين اتفق كل من ابن حزم في ملله[٨] وحاجي خليفه في كشف ظنونه[٩] انه " الجاحظ " . وهكذا تتفرق المصادر وتتغاير التسميات .

اما نحن فلا يسعنا امام الاجماع الاول الا ان ننكر "يحيي" الذي اتانا به البغدادي ونقول عنه انه ليس اكثر من تحريف غير مقصود "لبحر" لا سيما وان وجه الشبه

الشكلي بينهما قريب جـدا . وننكر الى جانب ذلك ان " محبوب " ايضا ومثله " الجاحظ" على انهما امكانيتان لاسم والد صاحبنا . ذلك لانه يكاد يكون واضحا لكل ذى عينين ان الاول اسم جده . أو على الاقل ليس اسم ابيه ، في حين ان الثاني هو لقبه الذى عُرف به وغَلب عليه . إنما كانت السرعة وحب الاختصار في سلسلة النسب هما السبب في مثل هذا التشـويه . ومثل هذه السرعة وذاك الاخـتصار معروف ولا يزال متداولا حتى اليوم مما لا يحتاج لطول شرح .

٤ ـ والان ننتقـل " لمحبوب " هذا الذى قيل عنه انه كان اسما لجد الجاحظ عسانا نبين ما فعلت به يد الايام .

يقول الجاحـظ في اكثر من مكان من كتبه ، وتتفق اغـلبية الذين كتبوا عنه فيما بعد ، على ان " محبوب " بهذا الشكل وهذا الرسم ، كان جده .

لكن هيهات لعقد ان يتم انتظامه . ففي حين تجمع هذه الاكثرية الساحقة على هذه التسـمية ، يقول يموت بن المزرع ـ ويموت اقرب المقربين الى الجاحـظ واعلم الناس بذخائله (ان جد الجاحـظ كان اسمه فزاره وكان جمالا لعمرو ابن قلع الكناني [1]) . في حين يحذف هذا الاسم ولا يأتي له على اى ذكر كل من ابن حزم وابي الفداء والسيوطي وحاجي خليفة . وهكذا نقع في مشكلة تحقيق اسم جده بعد ان كدنا نمر عليها بسلام .

لدينا الان ثلاثة احتمالات = اولاها ان اسم جد الجاحظ هو " محبوب " . وثانيها انه كان " فزاره " . وثالثها انه لم يكن له جد . إذ لم يذكر له اسم . لكن مما لا شك فيه انه كان له جد . وان لذلك الجد كان اسم . فما هو اسمه .

لحـل المشكلة لدينا ثلاثة اقتراحات = أما الاول فهو ان محبوبا وفزاره ، كانا اسمين صحيحين لجدى الجاحظ من ابيه وامه . على ان يكون الاول هو اسم جده لابيه . اما لماذا ذكر جده لامه . فنقول ان يموتا هو ابن اخـت الجاحظ . ولهذا لا يُستغرب منه ان لا ينسى ذلك الجد . هذا هو الاقتراح الاول اما الثاني فهو انهما اسم ولقب لاحد جديه . أما لايهما . فلا نعرف . لكننا نرجـح ناحـية الاب لاخـذ اكثر العرب بها . اما الثالث فهو انهما اسمان لجدين متواليين من اجداد الجاحـظ من جهة ابيه ايضا . اما ترتيبهما التسلسلي

نشي " لا نعرفه ولا نستطيع ان نتاكد منه . إنما نرجح ان يكون " محبوب " جده الاول لتواتر الروايات . في حين يبقى ترتيب " فزاره " مجهولا .

واخيرا نخلص من كل هذة المحاولات في توضيح اسم جده ونحن على شبه يقين من ان اسمه كان " محبوب " لا غير .

<u>٥ ـ لقباه =</u> بعد كل "دوشة" الراس هذه ننتقل لخطوة اخرى وهي التحقيق في ألقابه . للجاحظ لقبان هما " الجاحظ والحدقي " . غلب عليه اولهما وعُرف به وله فيه حكايات وعليه اجمعت جميع المصادر التي رجعنا اليها دون شذوذ .

سمي صاحبنا بالجاحظ لجحوظ عينيه اى بروزهما اكثر من المعتاد . وقد قيل ان حدقيتيهما كانتا كبيرتين ايضا ، ولذا لقب بالحدقي . قال الجاحظ (اتيت منزل صديق . فطرقت الباب ، فخرجت الي جاريه سندية . فقلت قولي لسيدك الجاحظ بالباب . فقالت اقول الجاحد بالباب . على لغتها . فقلت لا قولي الحدقي بالباب . فقالت اقول الحلقي بالباب . فقلت لا تقولي شيئا . ورجعت[1]) . وهكذا حرّفت هذه الجارية لقبي صاحبنا بعد ان سلما من تحريف الكتاب والنساخ . وكانه عز عليها ان يبقى له اسم واحد بدون تحريف .

الا انه قيل ان الجاحظ لم يكن على رضا من هذا اللقب . اذ كثيرا ما انتفض عليه وتذمر منه وسماه " الاسم المظلم[2] " . وراح يكتب رسالة كاملة " في من يسمى من الشعراء عمروا " . وكانه يريد ان يقول للناس ادعوني بهذا لا بذاك . وما درى ابو عثمان ان لقبه هذا الذى تبرم به سيكون في يوم من الايام لقب " سيد كتاب العربية بلا مدافع ورئيس اوبائها بلا منازع[3] " . وان ابن العميد مع قدره وجلاله سيفتخر اذ ينادبه المقربون منه " بالجاحظ الثاني[4] " . وان ابا زيد البلخي سيكون اعز ما يحرص عليه لقب " جاحظ خراسان[5] " . في حين ان ابا حيان التوحيدى سيتمنى لو كان له من ابي عثمان ولو هذا الاسم الذى شرّق وغرّب في العالمين[6] .

<u>٦ ـ انسابه =</u> واخيرا ننتقل لثالثة الاثافي (نعني انسابه) اذا كانت اسماؤه والقابه الاولتين . أولُ نسب نُسِبَ اليه الجاحظ هو " الكناني " . وقد اشار هو بنفسه الى ذلك في التربيع والتدوير عندما قال مخاطبا ابن عبد الوهاب (فوالله لئن رميتني ببجيله لارمينك

بكنانه [١] . وذكره بذلك ايضا ياقوت وغيره كثيرون . اما هل كان هذا النسب لكنانه نسب دم ام نسب ولاء — فهو ما سنحاول ان نوضح غامضه فيما بعد .

هذا اول نسب . اما الثاني فهو " الليثي " . الذى انفرد بذكره المبرد في الكامل [٢] دون ان ياتي له باى تعليل او شرح او تفسير . وقد بحثنا كثيرا لنجد له اصلا فلم نوفق الا لما قاله الاستاذ كرد علي في امرائه من حيث انه "كان نسبة لليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة [٣]" . اما من اين اتى بهذا الاستاذ كرد . او ما نصيبه من الصحة . فمسائل لا نستطيع الخوض فيها الآن نظرا لانعدام المصادر الاولية من بين ايدينا . لكننا اثبتناه تتمة للبحث .

وقبل الاخير يأتي نسب ثالث هو " الفقيمي " الذى لحقه نتيجة لولائه في ال فقيم بطن من كنانه كما قال ياقوت في معجمه [٤] .

اما الاخير فهو " البصرى " . لقد لصق به هذا النسب لانه ولد في البصرة وامره من الوضوح بحيث لا يحتاج لقصير شرح حتى . لكن الغريب بخصوصه ان يورده ابن حزم بشكل " القصرى [٥]" ويورده صاحب فهرس كوبرلي زاده بشكل " المصرى [٦]" . ووجه الخطأ في هذا بيّن لا يحتاج لكلام . انما الذى يحتاج لكلام وتنبيه مستمر . هو الحذر كل الحذر من الاغلاط النسخية التي وقع تحت رحمتها كل ما يتعلق بالجاحظ تقريبا .

<u>٧ — الخلاصة</u> = بعد هذا وليس قبله ، تستقيم لنا كنية الجاحظ واسماؤه والقابه وانسابه على الشكل التالي = (ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب — الجاحظ الحدقي — الكناني الليثي الفقيمي البصرى) . وبعد هذا وليس قبله ايضا ، يستطيع الجاحظ وانصار الجاحظ ان يحمدوا الله على ان لم يوقعهم بين يدى الدكتور طه حسين فينكر وجوده كما انكر وجود امرئ القيس من قبله ، حينما ضاق ذرعه بتعدد اسمائه وكناه [٧] .

ثانيا تدقيق في نسبه

بخصوص نسب الجاحظ – اعربيا ام غير ذلك – تنقسم جمهرة المهتمين بالامر الى ثلاثة مخيمات = افراد الاول يقولون (كان عربيا وعربيا قحا) . وافراد الثاني يقولون (بل كان كل شيء الا عربيا) . في حين يقف افراد الثالث على شبه حياد يقولون (لقد كان مولى ولا علم لنا باكثر من ذلك) . واليك تفصيل هذا الاجمال .

اما الجماعة الذين يقولون بانه كان مولى ولا علم لنا بحقيقة ذاك الولاء = اكان عن طريق الخدمة او عن طريق الدم ، فهم الاكثرية الساحقة من المؤرخين والادباء الذين كتبوا عنه مثل ياقوت في معجمه والمسعودي في مروجه وابن خلكان في وفياته وغيرهم وغيرهم كثير . وحجتهم في موقفهم انه هكذا ورد عنه ولا علم لنا باكثر منه . حسبنا اننا لحظنا هذه الحقيقة وكانا انا دوناها كما حصلنا عليها . لعل الخلف يستفيد منها .

اما الفريق الثاني الذى دافع عن عروبته فابرز افراده من المحدثين الاستاذ كرد علي الذى قال في امرائه (هو كناني صليبة خالص النسب[1]) ثم اضاف في مكان غيره (وان كثرة اطلاعه على اداب الاجانب لم تفسد عروبته[2]) . ثم الاستاذ حسن السندوبي في ادبه اذ خصص فصلا كاملا للدفاع عن وجهة نظره هذه[3]) . اما النقاط التي يعتمد عليها هؤلاء في اتجاههم والبراهين التي يقدمونها لدعم مدعاهم فاشهرها واهمها ما يلي =

1 – إنه دافع عن العرب – في وقت اشتداد الازمة بينهم وبين غيرهم . وكان باستطاعته (لو لم يكن عربيا) ان ينضم للفئة الاخرى المناوئة ، مُكَرَّماً مُبَجَّلاً من جهتها ، ومدعوما مسنودا من قبل الكثيرين من رجال الادب والسياسة الذين كانوا يعطفون على تلك الفئة . لكنه لم يفعل – وليس هذا فحسب بل راح يؤلف الرسائل الطوال في الدفاع عن العرب والطعن في اعدائهم مثل " فضل العرب على العجم " . ولم يكتف بهذا بل راح يغتنم كل فرصة للرفع من شأن العرب والحط من اعدائهم وقد اتخذ هذا دَيْدَنه طيلة حياته . حتى انه إراد (لو طاوعه القلم الجموح[4]) أن يخصص جميع الجزء الثاني من البيان والتبيين الذى الفه في أُخريات أيامه لنصرة هذا المبدأ) .

٢ ـ ان ولاءه لبني كنانه كان ولاء صليبيا دمويا ـ وليس ولاء خدمة وأسار[٥].

والادلة على هذا ليست معوزة . فالنُّساب من جهة لم يذكروا واحدا من عائلته وقع في رق او اسر او عبودية . واللغويون من ثانية يقولون إن العرب كثيرا ما استعملت الولاء بمعنى الخلة والصحبة والمحبة وعلى هذا فلا يُستبعد ان يكون ولاءه للكناني ولاء صحبة ومحبة لا ولاء خدمة وعبودية[١].

٣ ـ كل هذا بالاضافة الى ان الجَمّاز عندما غضب منه وحاول أن يهجوه . لم يجد على لسانه اشفى لغليل قلبه من مهاجمته بما كان يدين به نفسه فقال =

قال عمرو مفاخرا نحن قوم من العرب[٢]

وعمرو هذا ، لو لم يكن من العرب لما جَشَّم نفسه مؤونة هذا الفخر .

٤ ـ قد تكون رواية الجماز ضعيفة فيتحمل لها المتحملون الاعذار ويخلفون المطاعن لأضعانها ، لكنهم لن يستطيعوا ذلك اذا قرأوا في الحيوان الذى خَطَّه الجاحظ بقلمه قوله بصراحة ودون اية مواربة (... ولكني اخذت بوجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي ـ وهم العرب[٣] . مما لا يستطيع الطعنَ في عروبته بعد قراءته الا كلُّ مكابر ، مِنْ ضياع الوقت إطالةُ الحجاج معه .

هذا ملخص راى الفريقين الاولين ومُجملٌ لأهم حججهما . اما الفريق الاخير فيرى أن الحقيقة فاتت كلا القومين وأن الجاحظ في الحق كان كل شيء الا عربيا . وحججه في هذا اولا سلبية للرد على اقوال السابقين وثانيا إيجابية لزيادة توضيح ودعم ما يقولون به . واليك أهمها =

(١) ـ إن دفاع الجاحظ عن العرب لا يُعد حجة لعروبته. ذلك لانه في الوقت الذى دافع فيه عن العرب وطعن في اعدائهم كما ذكروا ، كان قد دافع عن الموالي وطعن في العرب ايضا كما يظهر من رسالتيه (فضل الموالي على العرب وفضل الفرس على العرب) . هذا من جهة ، اما من اخرى فان الجاحظ رجل عرف بمهارته في سوق الاضداد واغتنام حوادث البيئة ومجريات الافكار ، وقد كتب في مدح النبيذ كما كتب في ذمه وكتب في الهزل كما كتب في الجد ، وكتب في غيرها كثير . ومن الغريب ان كلا الفريقين يتخذ اقواله حجة على الفريق الاخر . وعلى هذا فلا يُستبعد ان تكون كتاباتُه في هذا الموضوع من هذا النوع " الضدى " . ولهذا لا نثق بها

كما انه يجب ان لا يُعتمد عليها ـ وما لنا نبعد كثيرا وهو نفسه يقول في مقدمة الحيوان ما معناه " لا تحكموا علي بما اكتب والا كنت نصرانيا عندما قلت في حجج النصارى . وكنت شيعيا عندما نصلت مذاهب الشيعه . وكنت مغنيا عندما أنضت في المغنين وَفَضَّلتُ صَنْعتَهم ، في حين اني ابعد الناس عنهم اجمعين[١] " ٦/١

وعلى هذا فدفاع الجاحظ عن العرب لا يجوز اتخاذه حجة لعروبته .

٢ ـ أما مسالة ولائه لكنانة . أدمويا كان ذلك أم للخدمة . فامر لم يستطيعوا إثباته علميا . ولذا راحوا تارة يتشبثون باقوال سلبية من النُساب واخرى يستنجدون بتفسيرات ملتوية من اللغويين . مما لا يُثبت حقا ولا يُقيم حجة في باب البحث العلمي الصحيح . ـ والا فلنفرض ان النساب لم يذكروا واحدا من اهله قد أسر . لكن هل يضمن لنا القوم = أولا ان هؤلاء النساب قد قالوا كلّ ما يتعلق بالجاحظ . وثانيا انهم هم أنفسُهم قد اطلعوا على كل ما قال اولئك النساب أنا كفيل بأنّ شيئا من ذلك لا يُمكن الاجابة عليه ايجابيا . هذا من جهة ، أما من أُخرى فان اللغة وخصوصا المطاطة منها لا وزن لها في ميادين مثل هذه ما لم تدعمها ادلةٌ قوية اخرى يُعْتَدُّ بها مثل المنطق على الاقل .

لهذا نقول إن مسالة الولاء التي حاولوا ان يستعينوا بها خانتهم اذ نبهت الفريق المناوئ اليها فاستفاد منها اكثر منهم . فجميع المصادر التي اسْتَعَنّا بها على ان الجاحظ كان مولى ، وان والده كان مولى ، وان جده كان مولى . واذا اضفنا الى هذا ان مصدر هذه الروايات جميعا هو ابن اخت الجاحظ وتلميذه المقرب اليه واعرف الناس به (نعني يموت بن المزرع) . سَهُلَ علينا ان نتصور الى اي حد كان نسب صاحبنا في الخدمة عريقاً والى ايةِ درجة كان تسلسله في الولاء قديماً . وسَهُلَ علينا ايضا ان نتصور انه ما من عربي قُح يستطيع ان يبقى في ذُل الولاء ثلاثةَ اجيال متوالية ليخرج بعدها ويقول بكل قحة " انا عربي صليبة " .

لقد حاول العروبيون كما مر معنا ان يفسروا الولاء بالحب والصداقة ... الخ لكنهم نسوا او تناسوا ، ان ما كان صحيحا وقويا من جهة اللغة ليس من الضروري ان يكون كذلك من ناحية الواقع . ولو كان كذلك لكان مهزلة يحرص الجاحظ على البعد منها كل الحرص . اذ من غير الواقع ، بل من غير المتعارف عليه ان يُحِب الكناني جد الجاحظ ويُخْلِص له الخلة وتتوثق بينهما

عرى المودة والاخاء ، لا ليرفع من مقامه ويُعلي درجته عنده ـ إنما ليرعيه جِماله . ويزيد فيتمسك بوَلده وولد ولده ثلاثة اجيال متتابعة .. نقول إن مثل هذا غير متعارف عليه والا لعن الله ذلك الحب . وتبا لتلك الصداقة التي تؤدى بصاحبها الى مثل هذا .

٣ ـ إن الجاحظ كان أسود اللون . وكذلك كان جده كما تقول الروايات كلها . ومما لا شك فيه ان والده كان كذلك . اذن ثلاثة اجيال متوالية من العائلة الجاحظية كانت قد اصطبغت باللون الاسود . وعلى هذا فالسواد أصيل في نسب الجاحظ ولا يمكن ان نعده دخيلا ابدا حسب أبسط قوانين الوراثة المندلية . ـ لكن العرب قوم ليسوا سودا . اذن فالجاحظ ليس عربيا حسب ابسط قوانين المنطق الارسطوطاليسي . اما الى اية درجة هو ليس عربيا فمسألة فيها خلاف كبير . فقد يكون مغموز النسب من جهة أمه . وقد يكون من جهة ابيه . وقد يكون من كليهما . كما قد يكون من جد واحد . او من عدة اجداد . مما يصعب التحقيق فيه . ولذا نتركه لنقول إن الجاحظ لم يكن عربيا صليبة .

لقد حاول العروبيون ان يحتجوا لسواده بقولهم إن السواد لون شائع في العرب وانهم مدحوه وفخروا به ، وان اغربتهم كلهم سود وهم عدد كثر ... ـ لكن هؤلاء لثاني مرة نسوا او تناسوا ان اكثر هؤلاء الأغربة مغموزوا النسب من جهة الامهات كما اقروا هم بانفسهم [1]. ونسوا ايضا ان هؤلاء الاغربة قد يكونون عربا ويفخرون بعروبتهم ـ لكن لا على انهم عرب اقحاح ، وانما على انهم عرب تبع . وقد كان من هؤلاء جم غفير ـ ونسوا ايضا او تناسوا ان بحثنا هنا بحث علمي بيولوجي بحت . وليس بحث ولاء وتبعية . اذ ان ميدان الاول ضيق جدا ولا يقبل الا القليل النادر من اناس مروا بامتحان دقيق ، في حين ان الثاني (التبعية) اوسع ، وصدره ارحب ، بالرغم من اننا لا نعنيه ، وأنه قد حان لنا ان نستعمل العلم الصحيح في تحقيقاتنا ونرمي جانبا اساليب العهد القديم من رواية وسماع تعتمد على الاهواء اكثر من اعتمادها على اساليب العلم الصحيح .

٤ ـ إن الجاحظ سكت عن نسبه . في وقت كان كل مخلوق فيه يفتش عن نسب ياوى اليه . والجاحظ حكى بنفسه أنه صَنَعَ أنساباً كثيرة لأناس كثيرين سالوه ذلك منها ما جاء في البيان والتبيين حيث قال (كان يحضر لي رجل فصيح من العجم . فقلت له هذه الفصاحة وهذا البيان ـ لو ادعيت لقبيلة من العرب . لكنت لا تنازع فيها . فاجابني الى ذلك . فجعلت

احفظه نسبا حتى حفظه وهذه هذا . فقلت له = الان لا تته علينا . فقال سبحان الله ان فعلت ذلك اني اذن دعي[١]). فاذا كان هذا صحيحا وهو الصحيح - لانه رواه بذاته ، فلماذا يصنع للغير ويترك نسبه تتناوله الالسن . ترى ايقال = لانه كان "علم في راسه نار". وهو في الحقيقة لم يكن . ام لانه كان اضعف من ان يصرح به . وهو الظاهر .

في الحيوان قال الجاحظ = (ان العرب تُفضل البرابرة والزنوج السود لرعاية ابلهم[٢]) . وسكت عن كل لا او نعم بخصوص جده . وهو يعلم كل العلم بل كان ادرى الناس ، بان هذه الجملة ستثير حول نسبه شبهات كثيرة . لا سيما وان جده كان اسود اللون وكان جمالا لعمرو بن قلع الكناني . لكنه مع ذلك سكت . في حين انه عندما ذكر هجاء لشخص اسمه الفقيمي في البيان لم يتمالك الا ان يقول (ولا عبرة بهذا الهجاء لان بني فقيم كانوا قد قتلوا اباه غالبا[٣]) .

بالطبع نحن لا نقول ان مثل هذه الاشارات تثبت عدم عروبته بمفردها . انما نقول اولا انها اشارات قوية . وثانيا انها بالتعاون مع اخواتها تُكوّن برهانا قويا على ان الرجل كان مغموز العروبة من ناحية التبعية وكان جدا ضعيفا من ناحية الدم .

ه - هذا ونحرص ان لا يفوتنا قبل الفراغ من هذا القسم ان نُفهم اولئك القوم ان ما ذكروه من قول الجماز على لسان الجاحظ ، وما اوردوه من كلام الجاحظ نفسه في الحيوان ، وما أستطيع ان أورد لهم الكثير من امثاله مما غفلوا عنه وقد خلّفه الجاحظ - نقول نُحب ان نُفهمهم ان هذا لا يُعتد به البتة . لانه ما دام من كلام الجاحظ ، في هذا الموضوع ، فهو اما ان يحمل على محمل الجد ، اى ان الجاحظ قاله وانه كان جادا فيما قال . سواء صحت روايته او اخطأت واما على محمل الهزل ، إن صحت أو أخطأت كذلك . اما الاول فمن نوع دفاعه عن العرب الذى اوردوه سابقا وبيّنّا بطلانه . واما الثاني فلا قيمة له بالمرة ، لاننا "بالكاد" نقبل الجد فيما القول في الهزل خصوصا في مسالة خطيرة مثل هذه . اى اثبات نسب الجاحظ .

من هذا نرى ان الجاحظ لم يكن عربيا ، كما انه لم يكن فارسيا لان الفرس كالعرب ليسوا من الجنس الاسود انما كل ما نعرفه عنه انه كان اولا اسود وثانيا مولى . لكن من اي سود الموالي كان ، او بالاحرى اين وطنه الاصلي الذى جاء منه . فامر سنحاول ان نبين غامضه فيما يلي =

نحن نعتقد ان الجاحظ لم يكن عربيا للاسباب التي مر ذكرها . كما اننا نعتقد ايضا انه لم يكن فارسيا لذات الاسباب تقريبا . بالاضافة الى اعتقادنا انه لم يكن حبشيا لانه ذم الاحباش مَلِكاً وجنسا في البيان والتبيين حيث قال (قال حكيم بن عياش الكلبي

الم يك ملك ارض الله طرا لاربعة له متميزينا
لحمير والنجاشي وابن كسرى وقيصر غير قول الممترينا

فما ادرى باى سبب وضع الحبشة بهذا الموضع . اما ذكره لحمير فان كان انما ذهب الى تُبَّع نفسه في الملوك فهذا له وجه . ــ وأما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان . ولو كان النجاشي في نفسه فوق تبع وكسرى وقيصر لما كان اهل مملكته من الحبش في هذا الموضع . وهو لم يفضل النجاشي لمكان اسلامه ، يدل على ذلك تفضيله لكسرى وقيصر ، وكان وضع كلامه على ذكر الممالك ثم ترك الممالك واخذ في ذكر الملوك [١].) . كما نعتقد ايضا انه لم يكن زنجيا لانه سخر بالزنوج في الحيوان اذ ضمهم الى الكلاب في قوله (اطيب الافواه نكهة واشدها عذوبة واكثرها ريقا افواه الزنوج . والكلاب من بين السباع اطيب افواها منها [٢].) فانظر كيف قرن الزنوج بالكلاب . وفي مكان اخر ذم بلاغتهم وفي ثالث هاجم تركيب اجسامهم [٣]. ومن كل هذا نستنتج انه لم يكن عربيا ولا فارسيا ولا حبشيا ولا زنجيا . اذن من اى سود الموالي هو .

لدينا اقتراح نحب ان نُلقي به في معترك الاخذ والرد لتظهر قوتُه على البقاء وقدرته على الحياة . وهو ان الجاحظ بربري من برابرة افريقيا الذين نزحوا الى الجزيرة واقاموا مدة في اليمن او في الجنوب على العموم . ثم نزحوا الى الشمال بعد ان عمرت الاقاليم . ودليلنا على انه بربرى من افريقيا اولا سواده . وثانيا باقي وصفه الشخصي الذى وصلنا من حيث احمرار عينيه وغلظ شفتيه وتجعد وجهه وقصر عنقه وغيرها وغيرها . وثالثا أن افريقيا هي اقرب الامكانيات وذلك لقربها من الجزيرة جغرافيا ولتاكدنا من انه كان بينهما تجارةٍ من قديم الزمان . ولهذا فلا يُستغرب ان يكون أُحد اجداده قد جاء واقام في اليمن مدة . اما لماذا اليمن . فلانه مع حرمته للرسول ومع استغراقه مرته في مدحه ومع وضعه اياه فوق الجميع ، لم يستطع عندما احتدمت العصبية في راسه الا ان يكتب رسالة كاملة يفضل فيها القحطانية على الكنانية وسائر العدنانية . وهذا لا يكون من ابي عثمان الا بوازع قوى .

على كل — هذا ما توصلنا اليه بخصوص نسب الرجل . فتاكدنا أولا من انه كان اسود وثانيا من انه كان مولى . وثالثا من انه لم يكن عربيا . واخيرا ملنا الى القول بانه كان من سود افريقيا النازحين . والله اعلم بالصواب .

ثالثا نظرة في تاريخيه

روى ياقوت وقالت جميع المصادر التي اطلعنا عليها ان وفاة الجاحظ كانت في يوم لم يعرف تاريخه . من شهر المحرم ، سنة ٢٥٥ في البصرة لا في غيرها كما قال البعض[١] كان هذا الاجماع جميلا من ناحية لانه يدل على أهمية الرجل عند موته وتقدير القوم له بحفظ تاريخه بدون تغيير او تبديل . ومفيد من أخرى لاننا بحك باقي الروايات عليه ، سنستطيع في الفقرات التالية من تعيين تاريخ ميلاده الذى تضاربت فيه الروايات وكثر فيه الحدس والتخمين ، حتى اضحى ضربا من الحدس والتخمين .

روى ياقوت في معجمه ان الجاحظ قال (انا أسن من ابي نواس بسنة . ولدت في أول سنة ١٥٠ وولد في اخرها[٢]) . وعندما قرأ الاستاذ السندوبي هذه الرواية بهذه الصراحة والوضوح ، وضع القلم وقال (اذن هذا هو الصحيح وليس بعده نص[٣]) .

لقد خدع الاستاذ السندوبي بظاهر القول . ولو كلف نفسه قليلا من مشقة البحث لما اطمأن إلى مثل هذا التاريخ المغلوط ولما قبله بهذه السرعة — قال الجاحظ (على فرض صحة الرواية) إنه اشترك مع ابي نواس في تاريخ الولادة . وقال ايضا إن ذلك التاريخ المشترك كان سنة ١٥٠ . والآن نضع الشق الثاني (اى سنة ١٥٠) . على الرف ، لناخذ في تحقيق الاول (اى اشتراكه مع ابي نُواس في تاريخ الولادة) لنرى الى اي حد هو صحيح .

قال الانبارى[٤] ولد ابو نواس سنة ١٣٦ . وقال طابع[٥] ديوانه بل ولد سنة ١٤١ . وقال ابن خلكان[٦] لا بل سنة ١٤٥ . وحاول الاستاذ السندوبي[٧] ان يتغاضى عن كل هذه الفروقات الواسعة فقرر انه ولد سنه ١٥٠ . لكن المفروغ منه ان الجاحظ ولد . وانه

انه ولد مرة واحدة . وطبعا في سنة معينة . فاية سنة هي لاسيما والروايات متضاربة ! — اما نحن فلا يسعنا إزاء هذا التضارب إلا أن نضرب بجمهرتها عرض الحائط بعد أن نُظهر خَطَلَها ، ثم نسعى من جديد في تعيين تاريخ ميلاد الرجل .

لو سَلّمنا بصحة الروايات الواردة اعلاه جميعا ، لكان عُمْر الجاحظ كما يظهر من رواية الانبارى ١١٩ سنة . وكما تقتضي رواية طابع الديوان نحو ١١٤ سنة . وكما يستنتج من رواية ابن خلكان ١١٠ . وكما يجب أن يكون حسب قول السندوبي ١٠٥ . أي ان الجاحظ حسب اقلها قد جاوز القرن . وهذا من الضعف بحيث لا يصح الاخذ به ولا الاطمئنان اليه . اولا لان هذا العمر شاذ ومع ذلك لم يُشِرْ اليه احد . مما يُثير الشبهات حول صحته . وثانيا لان هناك رواية اخرى تناقض الرواية التي كانت سبب هذا التشويش . اوردها ياقوت[1] نفسه وايده فيها ابن خلكان[2] . هي التي تقول ان مولد ابي نواس كان غير معين لكن بتحديدات عامة وقع بين ١٣٠–١٤٠ وعلى هذا اولا لا يمكن ان يكون قد اشترك ابو نواس والجاحظ في ميلاد واحد ، وان كانا قد اشتركا فان ذلك التاريخ قد يكون كل شيء الا سنة ١٥٠ . اذن متى ولد الجاحظ .

اذا نظرنا في الروايات الواردة الينا بخصوص مرضه ومن ثم وفاته ، وجدنا ثلاثا متسلسلة . اولاها تقول انه قال عندما زاره الخولي المتطبب "ان اكثر ما يشكوه الثلاثين[3]" . وثانيتها انه قال عندما زاره رسول المتوكل "ان اكثر ما يشكوه التسعين[4]" . وثالثتها "انه توفي عن ست وتسعين سنة[5]" . — الا اننا لسوء الحظ لا نعرف متى زاره الخولي تلك الزيارة . ولهذا خسرنا مفعول الرواية الاولى . اما الثانية فقد عرفنا ان رسول المتوكل زاره قبيل وفاة الاخير يدعوه اليه في الوقت الذى اشتد فيه المرض عليه (اى على الجاحظ) . واخر تاريخ يمكن تعيينه لهذه الزيارة هو سنة ٢٤٧ اى السنة التي مات فيها المتوكل . وعلى هذا يكون ميلاده نتيجة مسالة حسابية بسيطة . (٢٤٧–٩٠=١٥٧) . لكن الرواية الاخيرة مع مساعدة حواشي الثانية اى انه نيف على التسعين تقرب التاريخ من الصحيح اى من سنة ١٥٩ .

والخلاصة هي ان الجاحظ ولد في سنة ١٥٩ . ومات في سنة ٢٥٥ وانه على هذا قد سلخ في الحياة الدنيا ستا وتسعين سنة كاملة .

المقالة الثانيـة حياته العامة

انه لمن الغريب حقا ان يصل الجاحظ الى كل ما وصل اليه من المراكز الممتازة في عوالم الادب والعلم والدين ، ثم يُتوفى ويوارى التراب ولا يقوم واحد من انصاره او اعدائه وهم كُثر ، او على الاقل واحد من طلابه وهم ائمة القلم حيث حلوا - ليكتب لنا شيئا ينير امامنا جوانب هذه الحياة العامرة لهذا الرجل العظيم . نقول بكل اسف لم يقم احد حتى جاء المسعودى نَخَطّ في مروجه بضعة اسطر لا تُسمن ولا تغني من جوع . وبقي الامر طلسما يعتمد على الحدس والتخمين اكثر من اعتماده على العلم واليقين ، حتى بدأ ياقوت معجمه في سِيَر الادباء نخصص عددا لابأس به من الصفحات لحياة الجاحظ تُعد بالنسبة لغيرها احسن واصدق المراجع . وبَعْد ياقوت جاء كثيرون بين مقرظ ومقرض كل منهم كتب عن الرجل اسطراً حسب ميله وهواه . فان كان من مشايعيه رفعه للسماء كما نرى في تقريظ ابي حيان[1]، ومقابسات التوحيدي . وان كان من مناوئيه انزله الحضيض وحرمه من كل مكرمة كما راينا في فرق البغدادى[3] وزوابع بن شهيد[4] . وهذه المصادر - التي بشِقّ النفس نُسميها مصادر - قليلة في عددها هزيلة غامضة في مادتها . فرواياتها في كثير من الاحيان ضعيفة ان لم تكن غير معقولة . وفي كثير غيرها تكاد تكون شبه متناقضة . واستخلاص اقل شيء ثابت منها يحتاج "لجهود العفاريت".

اولا - في بدء حياته

بكل جهد جهيد في التحقيق والتدقيق ؟

نقول بكل جهد جهيد وتحقيق شديد وتدقيق عنيد استطعنا ان نستخرج من هذه المصادر القليلة في كمها الهزيلة في نوعها ، انه ولد في البصرة سنة ١٥٩ كما مر تحقيقه . وانه كان دميم الخلقة كما سنرى في وصفه . وان ابويه كانا فقيرين في حَسَبهما ونَسَبهما كما يُستنتج من رواية ابن المزرع[5] . وان والده مات في صغره فحرمه عطفه وحنانه كما قال كرد علي[6] . ولهذا ربته امه ووقع في كنف بخيل تكفل برعايته كما حكى هو بنفسه في البخلاء[7] . واخيرا اضطر لكسب قوته مُبكرا فباع الخبز والسمك بسيحان كما روى المرزباني[8] . الا ان الله هداه فاتجه للعلم بكليته خَلاصا من هذا المحيط الجائر كما تتفق كل الروايات .

هذا كل ما ابقت لنا عليه يدُ الايام . اما مَن ابوه . او مَن كانت امه . او في اية

سنة ولد . او على الاقل كيف قضى ايامه الاولى في البصرة . او شيئا عن ميوله في صغيره. والى اى حد اتفقت او اختلفت عما عُرف عنه في كبره الخ .. الخ ... فامور على الرغم من اهميتها صمتت عنها جميع المصادر صمتا رهيبا يكاد يذكرنا بسكون الاموات . وصَمْتُ المصادر هذا لم يقف عند حد طفولته بل تعداها فنشر ظله البهيم وجهامه المخيف على معظم حياة الرجل حتى جاوز به الاربعين . ولم يفلت من تلك المفازة المقفرة سوى ثلاث قصص هزيلة غامضة نلخصها فيما يلي لعلها تلقي بعض ضوء نحن في مسيس الحاجة اليه .

اما الاولى فقصة الكلب[١] وملخصها ان العوام تقول ان من عضه الكَلْبُ الكَلِبُ أثَّر عليه فيأخذ بالنباح . قال الجاحظ وقد رايت كلبا عض ولدا من الكُتّاب الذى كنت فيه فلم اشاهد الأعراض التي قالوا بها . وعلى حد تعبيره " رأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكُتّاب وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذى خيط به . فلم ينبح الى ان برئ ولا دعا بماء حتى اذا راه صاح ردوه . ولا بال جروا ولا علقا ولا اصابه مما تقول العوام قليل ولا كثير[١]" .

اما الثانية فقصة الكراريس[٢] وملخصها انه جاء لامه ذات يوم وسالها طعاما فقدمت له طبقا عليه كراريس وقالت له كل . فقال ما هذا . فقالت هذا الذى تضيع به وقتك . فعاد للكتاب ثانية فاعطاه بعضهم شيئا . وعندما عاد لامه قدمه اليها وقال كلي من هذا الذى اضيع به وقتي[٢] .

اما الثالثة فقصة الخفاش[٣] وملخصها انه راى الخفاش يطير في الليل ويعتدى على بعض الحيوانات ويعامل اولاده معاملة خاصة انكرها العوام فجاء الجاحظ يكذبه[٣] .

ومن هذه الثلاثة نستنتج انه كان دقيق الملاحظة في الاولى ولنه استقبل حياة تعيسة في الثانية وانه كان مولعا في تحقيق اقوال العامة في الثالثة . وهي في مجموعها كما ترى ضئيلة قليلة عديمة الجدوى . اوردناها لانها ابرز القليل الباقي من حياته الاولى .

٢٦

ثانيا – في ثقافتـــــه

الا ان لسـان هذه المصادر يتحرك وبيانها ينطلق وسكونها ينقطع عندما نسألها لتخبرنا عن حياته العلمية فتروح تحدثنا بكل ما دق وأفاد . لكنه يُستحسن ان نُنَبِّهَ قبل الخوض في الموضوع الى ان اكثر هذه الاحاديث روايات مفككة غير متصـلة . اكثرها غامض ومتناقـض وافيها يدور على محور واحد ووتر لا يتغير هو وتر "حبه للعلم" . اما بعض الشـيء عن حياته المدرسـية او عن احتكاكه باسـاتذته او عن اتجاهاته المبكرة فلم تتعرض له البتة ولذا كان علينا ان نسـتنتجه من بين السطور او من وراء الكلمات . وانها لعمري مهمة تجشـمناها على صعوبتها وقلة الاطمئنان الى نتائجـها حبا واملا في ايجاد شبه صورة واضحة للرجل .

ولذا سنتكلم عن المدارس التي التحـق بها ثم عن الاساتذة الذين اخذ عنهم واخيرا نلقي نظـرة عامة في نوع هذه الثقافة التي تثقفها صاحبنا .

١ – مدارســـــه = لقد درس الجاحظ ونال علومه واخذ ثقافته من مدارس كثيرة ليست واحدة منها تشـبه مدارس اليوم . ولكي تتكون عندنا صورة متكاملة عن تلك المدارس نسـردها فيما يلي – متكلمين عن حياته في كل منها وعن اثرها فيه وعن المادة التي تلقاها فيها .

الكُتّـــاب كعادة القوم في تلك الايام ابتدا الجاحظ حياته العلمية بالتردد على شيخ الكُتاب . وفي هذه المدرسة تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جانبا من القران والشعر واطلع على بعض الشـيء على الحساب وجود الخـط . وقصـة الكلب التي مر ذكرها تكاد تكون الوحيدة التي بقيت لنا من ذلك العهـد . وهي ترينا بوضوح مقدار تَوَقُّد ذهن الجاحظ وتطلعه الى كشف نقاب الحقيقة عارية كما هي . ونحن لا نشك في ان هذه الميزة (اى حب الوقوف على الحقيقة) قد رافقته طيلة حياته تنمو مع السنين وتشتـد بالتجارب حتى كان ما كان منه في كتاب الحيوان من تحقيق وتدقيق لم يُعرفا قبله . وملاحظة اخرى نحب ان نقولها عن هذه الفقرة وهي ان حياة الكتاب كانت مرهقة وان معاملة شيخـه كانت خشـنة زرعت كُرْه الكتاتيب ومعلميها في قلبه . ولم تضـعف تلك الفكرة في صـدره بل على العكـس ازدادت قوة ونشاطا مع السنين ولذا كان يهاجمهما في كل مناسبة . ومن جملة تلك المهاجمات اولا ما جاء في البيان والتبيين حيث قال لا تسـتشر معلم اولاد ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء ١ . وثانيا رساله كامله ألّفها في السـخرية بالمعلمين سماها نوادر

المعلمين موجودة الان في المتحف البريطاني ومطبوع قسم منها في هامش الكامل الاول .

<u>المسجد</u> اما المدرسة الثانية او الابتدائية (اذا كان الكتاب هو بستان الاطفال) فهي المسجد . والمسجد في تلك الايام كان المنتدى الواسع او الجامعة الرحبة التي يتقاطر اليها ائمة العلم كل ياخذ قُرنة او سارية من قُرنه وسواريه . يلتف حوله الراغبون في علمه ثم ياخذ يُلقي عليهم ما تَجمّع في صدره من دقائق ذلك العلم . وكان لايٍّ كان الحق في حضور اية حلقة والاستماع الى اى شيخ . حتى اذا ما تكونت عند احدهم فكرة واضحة عن علم ما ومال اليه بقلبه لازم شيخه حتى ينال منه ما يريد . وعندها يقال " تخرج فلان على فلان او اجاز فلان فلانا " . نقول جاء الجاحظ الى المسجد بعد ان استعد في الكتاب . وجلس الى اكثر حلقاته واستمع الى اكثر مشايخه ولهذا كان له في علوم الادب باع وفي علوم الدين ذراع وفي علوم الكون صاع اكتال به اكثر من غيره . وعند الكلام على نوع ثقافته والكلام على اساتذته سنعرف الشيء الكثير عن هذه الاذرع والابواع والصاعات . لقد اغرم الجاحظ بالمسجد كثيرا وهام بمجالسه حتى انه نسي اكله وشربه ونسي كل شيء عداه ــ بالرغم من فقره وبالرغم من انه كان مُطالَبا بمساعدة اُمه على مهام الحياة . وقصة الكراريس التي اوردها السندوبي في مقدمة البيان والتبيين شاهد صادق على ما نقول .

اما اثر المسجد فيه فقد كان عظيما لانه في الحق كان المدرسة الاولى التي كوّن فيها عقله "وَنَوّتَق" فيها ميوله وحدد فيها اهدافه وراى فيها نور الحق من بعيد . وقد تكلم عن ذلك في البيان والتبيين فقال (ادركتُ المسجديين والمربديين واخذت عن اكثرهم[1]) الا انه لم يكن اعمى بل كان واسع العينين يرى المليح والقبيح وكان فيما بعد حر القلم يدون كل شيء . فكما انه مدح جماعة من المسجديين في البيان لم يفته ان يسخر من بعضهم في البخلاء فعقد فصلا كاملا بعنوان قصص المسجديين[2] . سماهم فيه اصحاب الجمع والمنع[3] وحكى عن بخلهم ونظرياتهم في الدفاع عنه ما يثير الضحك "في نفس من فقد اباه" .

<u>المربد</u> المربد مكان بظاهر البصرة كانت تفد اليه جمهرة العلماء وكثير من الاعراب الذين لم تفسدهم الحضارة . فيتبادلون الاشعار ويتدارسون اللغة ويتسامعون اللهجات وتدور بينهم المناقشات في موضوعات اكثر من ان تُحصر خصوصا في الادب وفي الدين . واذا كان الكتاب هو بستان الاطفال والمسجد هو المدرسة الابتدائية ، فاننا نعتبر المربد مدرسة الجاحظ الثانوية التي التحق بها لينال فيها العلم من مصادره اى من الاعراب الخلص . نقول اكثر الجاحظ من

من التردد على المربد مدة من الزمن استفاد فيها الكثير مما كان الحصول عليه صعبا في المسجد . خصوصا رواية الاشعار الجاهلية ونوادر الاعراب الطريفة وحكايات اخرى لا تدخل تحت حصر مما استعان به فيما بعد - في استطرادته الكثيرة في البيان والحيوان التي قال ان غرضه من ايرادها ترويح نفس القارئ وازالة السأم والملل اللذين قد يعتريانها من طول الالتصاق بالجد. اما اثر المربد في كتاباته فاكثر من ان يؤتى على جزئياته.الا اننا نعتقد ان فيما ذكرنا الكفاية .لكي يسمح لنا الوقت بالانتقال الى مدرسة اخرى من مدارسه .

دكاكين الوراقين هذه هي المدرسة الرابعة او بالاحرى هي الجامعة التي اطمأن اليها الجاحظ . وليتَ جامعات ايم مثلها او على الاقل تنسج على منوالها في حرية الدرس وعمق البحث وتوفر المصادر وخلق الرغبة الحقة في نفوس التلاميذ . على كلٍ ما لنا وهذا . أُحَبَّ الجاحظ هذه الدكاكين واولع بد روسها حتى رُوِيَتْ عن غرامه بها الروايات . قال ابو هفان كان الجاحظ مولعا بدكاكين الوراقين يبيت ينام فيها طول الليل[1] . هكذا كان " يكتري دكاكين الوراقين وهو المفلس وينام فيها يطالع وينقب وهو بحاجة للراحة من تعب النهار " . بهذه الدكاكين اطلع الجاحظ على ما لم يكن في الكتاب لانه صعب وما لم يتوفر في المسجد لانه كفر وما لم يسمع به في المربد لانه ليس من بضاعة الاعراب . هذا الشيء هو "فلسفة اليونان" . فلسفة اليونان العميقة في الالهيات وطرقهم القويمة في الكلام ونظرياتهم "المخيفة" فيما وراء الطبيعة . في الكتاب كان مثل هذا صعبا لا طاقة للصغار به . وفي المسجد كان حراما الخير كل الخير في تحاشيه . وفي المربد ليس للاعراب به دخل . الا ان الوحيد الذى كان يُلَوِّح به ويَحُث الناس عليه في المسجد هو النَّظَّام . وقد جلس الجاحظ اليه وسمع منه واحبه وتتلمذ عليه خصيصا . ولهذا نقول إن النظام زرع بذرة حب الفلسفة والكلام في الجاحظ ايام المسجد وبعد ذلك سهر الجاحظ عليها يرعاها ويغذيها في دكاكين الوراقين . ولم تكن فلسفة اليونان هي الوحيدة التي طالع في تلك الدكاكين ، بل تزود من ادب الفرس وحكمة الهند بقراءة كل ما وقعت عليه يده . اما اثر هذه الثقافات في نفسه فقد كان واضحا في كل ما كتب تقريبا = فاكبر مصدر من مصادره في الحيوان كان ارسطو وكتابه فيه ، بالاضافة الى افلاطون وجالينوس وبقراط و... . وحيث قرأت في البيان وجدت امثال " قال حكيم الهند ". اما المفردات الفارسية فحدث عن انتشارها في تآليفه ولا حرج . ولم يشأ الجاحظ الا ان يسطر ولو ورقات يذكر الناس بها بعد موته اختباراته الجمة في تلك الدكاكين ولهذا كتب رسالة في "مدح الوراقة" واخرى في ذمها ، لسوء الحظ ضاعتا معا .

مجالس الادب = هذه المجالس كانت خاصة فردية . اشبه بما يعقده بعض ادباء اليوم في دورهم من حفلات واجتماعات لا للرقص وشرب الكاس وانما للبحث والمذاكرة والدرس . من امثال ما كانت تعقده الانسة مي في بيتها او كان يدعو اليه احمد زكي باشا في مكتبته الزكية . نقول الى هذه المجالس تحول الجاحظ لا لياخذ منها بقدر ما يعطي اليها . وفي الاجتماعات كان يلتقي بالحسن بن وهب وبسهل بن هرون وبالحسن بن سهل وابي العيناء وغيرهم كثير . يتذاكرون العلم ويتداولون الاراء ويتناقشون في شتى الوان المعرفة . وقد احب الجاحظ هذه الحلقات واجتهد في حضور اكثرها ولهذا كثر تردده على بغداد مبكرا . وعندما سأله احدهم عن اثرها فيه قال (لقد استفدت منها اكثر مما استفدت في المسجد !)

الرحلة في طلب العلم = الرحلة مدرسة عملية لا غنى لمحب علم عنها . وقد تنبه العرب الى هذا في قديمهم فكانت "الرحلة في طلب العلم" تكاد تكون المدرسة الاخيرة لكل من احب التبحر . وعرفها الاجانب ايضا ورحلات شيلي وبايرون وغيرهما معروفة للجميع . نقول جريا على العادة وحبا في اخذ العلم من مصادره ، رحل الجاحظ الى اماكن كثيرة نوه اليها في الحيوان[٢] . منها بغداد[٣] والموصل[٤] وواسط[٥] وانطاكية[٦] والشام[٧] واخيرا قيل انه رحل الى مصر[٨] . وهذا الاخير ضعيف لا ناخذ به اولا لحكاية السروكتي وثانيا لان مثله مستبعد على الجاحظ . اما ما استفاده من هذه الرحلات فصعب الكلام عليه لانه اختبارات شخصية عديدة ومتنوعة واطلاعات ذاتية كثيرة ومتفرقة . جمعها من السنة الناس ومن مشاهدات العين ومن دفاتر الوراقين . الا ان الكلام على اثرها في كتاباته يكون اسهل . وابرز تلك الاثار اولا كتابه "البلدان" الذى تكلم فيه عن كثير من البلدان التي زارها . الا انه لسؤ الحظ قد ضاع ولم يبق منه الا ما يتعلق بمكة والمدينة والكوفه والطائف . ثانيا هذه المعرفة الدقيقة في طباع البشر مما لا يمكن ان يعرفه دون اطلاع سابق او احتكاك مباشر مثل قوله (قال الغنى اسكن مصر فقال الذل وانا معاك[٩] ...)

مدرسة الحياة = هذه المدرسة لا يَعُدُّها الكثيرون مدرسة عندما يعددون المعاهد التي تلقى فيها رجل من الرجال ثقافته . لانهم يظنون انها طبيعية ولازمة . ونسوا انها هي اهم واحدة يجب عليهم ان يذكروها وان يطيلوا الشرح في آثارها التي تركتها فيه لانها في الحق اقوى المدارس واكثرها مفعولا . بقي الجاحظ في مدرسة الحياة ستا وتسعين سنة كما بيّنا . تَعلَّمَ فيها علوما مختلفة ولقن اقوالا متعددة واختبر اختبارات متنوعة . وبالاختصار قَرُبَ فيها

كثيرا من حقيقة الاشياء وعرف اكثر طرق الحق للوصول اليها . اما الدروس التي استعان بها للوصول الى هذه الغاية فثلاثة . الاول الاحتكاك بالناس على اختلاف طبقاتهم ومشاهدتهم في اعمالهم وسؤالهم عن خفايا تلك الاعمال . والثاني التجربة النفسية والعملية والتطبيق الذاتي المحض لكثير مما كان يرى ويسمع . واخيرا التفلسف العقلي واستخراج قوانين عامة وحكم جامعة لكل مظاهر الحياة هذه . اما اثر هذه المدرسة وهاته الدروس فابعد من ان يوصل الى قراره . فالاحتكاك ... وسع معلوماته فكان دائرة المعارف. والتجربة قربته من الحقيقة في كثير من الامور فكان العالم الحق. والتفلسف قاده للحكمة فكان صاحب القدح المعلى في النظر العقلي . واثره في الجاحظية واضح .

هذه مدارس الجاحظ وهذه معلوماته فيها وهذه اثارها عليه . فالى نظرة في اساتذته تتحول .

٢ ـ اساتذته = ان تعداد اساتذة الجاحظ يطول لانه في الحق لم يترك مخلوقا يمكن الاستفادة منه ولم ياخذ عنه او يجلس اليه سواء بسؤال خطي او استفهام شفوى او رواية اقوال . الا اننا في هذه العجالة سنقتصر على اشهرهم بل على اهم ما يمكن ان يقال عن ذلك الاشهر .

الاصمعي = كان صاحب لغة ونحو واخبار ونوادر وغرائب وملح .قال اسحق الموصلي (لم ار الاصمعي يدعي شيئا من العلم فيكون احد اعلم به منه[1]) . وقال الشافعي رضي الله عنه (ما عبر احد عن العرب باحسن من عبارة الاصمعي[2]) . جمع شتيت اللغة في الشجر والنبات والشاء والوحوش وغير ذلك قالوا انه كان يحفظ ثلث اللغة . ولد سنة ١٢٢ وتوفي سنة ٢١٦ . على اختلاف في الروايات . سمع عنه الجاحظ في المسجد ولازمه مدة طويلة . اما اثره فيه فقد كان ابين من نور الشمس في رابعة النهار . وابرز مظاهره حب الجاحظ للغة وولعه بما يتعلق بها . فاورد كثيرا من الغريب ومن التفاسير وغير ذلك في اماكن سنطلع عليها عند البحث في لغته . ومن مظاهره ايضا كثرة محفوظه من الاخبار والنوادر خصوصا عن الاعراب مما نراه موزعا هنا وهناك وخصوصا في البيان والتبيين .

ابو عبيدة = قال ابو نواس (ذاك اديم طوى على علم[3]) . وقال الربيع (هذا علامة اهل البصرة[4]) . وقال الجاحظ (انه جماع العلم[5]) . وقد بلغ من العلم درجة كان الاصمعي فيها يخانه . ولد سنة ١١٠ ومات سنة ٢٠٩ على اختلاف في الروايات . صنف في البازى والحمام والعقارب

والحيات والزرع . وكان الغريب اغلب عليه واخبار العرب وايامهم على لسانه . كان يرى راى الخوارج . ويتشيع للشعوبيه . وقد كتب كثيرا في الدفاع عن وجهة نظر اصحابها . اما الجاحظ فقد جلس اليه واستمع له وروى عنه كثيرا في مختلف فنون المعرفة من علم " وخصوصا علم الحيوان " لادب " وخصوصا اخبار الاعراب ونوادرهم " لغير ذلك مما تعودنا ان نراه يملأ صفحات وصفحات من البيان والحيوان على وجه التخصيص . الا ان الجاحظ لم يتأثر بناحيتين من نواحي استاذه هما التعصب للشعوبية ومظاهرة الخوارج . ولعل لذلك اسبابا لما نقف عليها لحد الان .

ابو زيد الانصاري = كان صاحب لغة ونوادر وغريب . حدّث ابو عثمان المازني قال (رايت الاصمعي وقد جاء الى حلقة ابي زيد المذكور فقبل راسه وقال انت رئيسنا وسيدنا من خمسين سينة[1]) . ولد سنة ١٢٢ وتوفي سنة ٢١٥ على اختلاف في الروايات . الف في القوس والترس والقضيب والابل والوحوش وخلق الانسان والمطر والنبات . اما اثره في الجاحظ فواضح اولا بكثرة الاشعار التي نقلها عنه وثانيا بكثرة النوادر التي نسبها اليه والتي كان يجعلها مطيه يستطرد بها ليروح عن قارئه ملله

الاخفش = كان من اكابر ائمة النحو في البصرة . حدث عن نفسه فقال (ما كتب سيبويه شيئا الا عرضه علي[2]) . ويروى انه قال حينما دخل الفراء عليه (جاء سيد اهل اللغة وسيد اهل العربية . فما كان من الفراء الا ان قال اما مادام الاخفش يعيش فلا[3]) . ولعمرى لقد نطق الفراء بالصواب لان الاخفش في الحق كان امة في النحو . ولد في سنة لم نعرف تاريخها ومات في سنة ٢١٥ كما تقول الروايات . ولقد اخذ عنه الجاحظ كثيرا وتاثر بروحه لدرجة انه كان في كثير من الاحيان يترك الكلام على الديك والكلب الذى هو بصدده ليحدثنا عن النحو وضرورة اقامته وتهجين اللحن والهجوم عليه مما سياتي الكلام عنه في باب اللغة . وقد كان هذا منه في اكثر من موضع خصوصا في الحيوان والبيان ورسالة ذم اعمال السلطان .

النظام = كان النظام رئيسا من روساء المعتزلة ومدرسا بارزا في المسجد . صحبه الجاحظ مدة وتاثر به كثيرا خصوصا في علم الكلام وارائه في المعتزلة حتى تغلغلت هذه في صميم فواد الجاحظ فاحبها حبا جما وصار من غلاة المعتزلة فيما بعد . روى المرتضي ان الجاحظ قال (ان الله يبعث في الناس كل الف سنة رجلا يهديهم سواء السبيل . وراس هذه الالف هو النظام[4]) . وفي موطن اخر قال عنه (هو اعلم الناس قاطبة بالفقه والكلام . هو مصدرهما واليه يرجع في حل مشاكلهما[5]) . وفي مقام ثالث قال (كان مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في بابي الصدق والكذب[6]) . وفي رابع قال (لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع او عيان[7]) . هذا هو النظام وهذا هو موقف الجاحظ منه .

اما اثر الاول في الثاني فواضح لا يحتاج لطويل شرح . فما الجاحظية الا فرع من المعتزلة ولعت بالمنطق واعتنت بالكلام واعتمدت على العقل ومقدرته اعتمادا اظهر تطرفها في اعين الكثيرين .

هؤلاء هم اشهر اساتذة الجاحظ ونعم النخبة هي الا ان الجاحظ اخذ عن كثيرين غيرهم ممن لا فائدة من تعدادهم مثل صالح بن جناح اللخمي وعمرو بن كركره وعمرو بن العلاء وغيرهم كثيرين .

٣ – نوع ثقافته = من هذا نرى ان الجاحظ اخذ عن اكثر واشهر اساتذة عصره شفاها ومدارسة بالاضافة الى ما استفاده من كتب دكاكين الوراقين ولقاء الاعراب الخلص . وعلى هذا تكون قد اجتمعت له عناصر الثقافة العربية كاملة من لقاء الاعراب في المربد والاستماع للاساتذة في المسجد وصحبة ائمة الدين في الحلقات المختلفة . وتكون قد اجتمعت له عناصر الثقافة الفارسية ايضا من مطالعة ما كان قد تُرجم الى وقته ومقابلة الجماعة المهتمين بذلك النوع من الثقافة خصوصا المترجمين او الذين هم من اصل فارسي مثل ابن المقفع وماسرجويه . ويكون قد توفر لديه قسط لا باس به من الثقافة اليونانية وخصوصا الجانب الفلسفي والفلسفة الطبيعية على وجه التخصيص . اما مصادره او بالاحرى طريقه لهذه الثقافة فكان ما وقع عليه مُتَرْجَماً في دكاكين الوراقين وما سمعه شفاها من المطلعين على تلك الثقافة مثل حنين بن اسحق وغيره . أما اشهر الفلاسفة الاغريق الذين طالع لهم الجاحظ فارسطو وافلاطون وجالينوس هذا بالاضافة الى ديمقراط ودسموس وتومقراط وفليمون ومويسطوس وماسرجوس وارشخانس وغيرهم مما تجد اسماؤهم منتثرة في كتبه ومنقولاته عنهم . حتى لقد قال البغدادى ان الحيوان الذى قال الجاحظ انه من تاليفه لم يَعْدُ في الحقيقة اكثر من نَسْخٍ لعدة مواضع من كتاب ارسطو فيه ضَمَّ اليها نُخَباً من مختارات ما عرف واتسع له عقله من خرافات واحاديث قال بها المدائني . الى كل هذا، اطلع على جانب كبير من الحكمة الهندية . تفهمها اولا وتذوقها ثانيا وسطر منها الكثير في كتبه اخيرا .

وانه ليحسن بنا قبل الفراغ من هذه الناحية ان نذكر بعض كتبه التي ركز درسه عليها في الادب والعلم والدين . اشهر هذه الكتب كتاب اريسطو في الحيوان وكتاب الفراسه لاقليمون وكتاب طباع الالبان لما سرجويه وكتاب الهندسة لاقليدوس وكتاب المنطق لاريسطو . هذا بالاضافة الى منقولات كثيرة دون تسمية كتب من بختيشوع وحنين بن اسحق وجالينوس وغيرهم كثير ممن ستورد اسماؤهم في فهرس المصادر .

ثالثا – في وفاتــــه

لقد مات الجاحظ، لكن كيف مات . لقد وزر ابن ابي دواد للمامون سنة واحدة بعدها
مرض بالفالج فاضطر لاعتزال الوظيفة . لكنه قبل ان ينتحي بالكلية اوصى ابنه من بعده بالجاحظ
خيرا . وهكذا كان . لكن الابن لم يكن كالاب ولهذا لم يطل عهد الجاحظ مع الابن طويلا اولا لتنكر
المتوكل للمعتزلة وثانيا لتغير الابن عن الاب وثالثا لاستيلاء المرض والهرم على الجاحظ نفسه . فاضطر
تحت هذه العوامل المتعددة أن يعود الى مسقط راسه في البصرة .

في هذه الفترة الاخيرة – بين اهله واخوانه القدماء – عاش الجاحظ مدة من الزمن
هي التي نسميها في تاريخ حياة المرء بفترة الشيخوخة – شغله فيها ثلاثة اشياء اولا الكتابة
وثانيا التعليم واخيرا مداراة المرض الذى كاد يطبق عليه من جميع الجهات .

اما في سبب ذلك المرض فقد رُويت روايات . اشهرها تلك التي تقول إنه اجتمع وبعض
اصحابه على مائدة بلبل الوزير حيث قدم لهما سمك ومضيرة . قال صاحبه الطبيب (انصحك يا ابا
عثمان ان لا تاكل منهما معا . لان الجمع بينهما مضر . فضحك ابو عثمان وسأل لماذا . الا ان
الطبيب اكتفى بهز راسه وتاكيد ضررهما . اما ابو عثمان فابتسم وقال اسمع يا هذا لا بد ان يكون
السمك واللبن اما ذَوَى اثر واحد او ذوى اثرين مختلفين . فان كانا ذوى واحد ناكل من كليهما
ونفترض اننا اكلنا من واحد وشبعنا . وان كان ذوى اثنين فكذلك ناكل من كليهما فيبطل مفعول
احدهما مفعول الاخر . فسكت الطبيب ثم قال لقد قلتُ ما قلتُ عن علم اما المنطق فمالي في دروبه
قدم[1]) . وكان ان اكل الجاحظ وبات ليلته وفي الصباح اعتراه الفالج[1].

لقد رويت في اخبار مرضه روايات كثيرة كلها تدل على ان المرض كان قد اعياه حوالى سنة
٢٤٧ الا انه كان موجودا بالفعل قبل سنة ٢٤٧ لذكره ذلك في الحيوان . والحيوان قُدم لمحمد ابن الزيات الذى توفي حوالى سنة ٢٤١ .

هذا عن سبب العلة وعن تاريخها اوردناه كما جاء في الروايات . اما عن انواعها فقد
قيل أن الفالج والنقرس وحصر البول كانت بعض نواحيها . والروايات على هذا متوافرة ولمطالعتها
بالتفصيل راجع قصصها في مواطنها الاصلية مثل ياقوت وابن خلكان وابن ابي اصيبعة وغيرهم .

بعد اجتماع هذه العلل لا قبله "نام" الجاحظ . وبعد تكاثفها جميعها عليه انزوى في البيت لا ليصيح او ينوح او يندب حظه المشؤم وياخذ في فلسفة سلبية كما كان من امر ابي العلاء المعرى - بل ليتابع رسالته الادبية والعلمية والدينية التي وقف نفسه من اجلها . فكان في هذه الفترة وتحت هذا الضغط اولا يعلم تلاميذه وثانيا يستقبل زواره وثالثا يتابع كتاباته في شتى ميادين المعرفة . اما ما يثبت التعليم فقصة الاندلسي الذى سمع به وجاء يطلبه من الاندلس[1] . واما ما يثبت كثرة زواره واستقباله اياهم بالترحاب وافادته اياهم بكل ما لديه فقصص المبرد[2] والخولي[3] ورسول المتوكل[4] والبرمكي[5] وغيرهم مما لا يمكن التغاضي عنهم . في حين ان كتاب البخلاء الذى كتبه في شيخوخته وكتاب الحيوان كذلك تشير الى انه لم يتخل عن الكتابة حتى النفس الاخير .

بقي يعاني مفعول هذه الامراض ثماني سنوات على الاقل . حتى انهالت عليه رفوف الكتب التي كان يرصفها امامه وعلى جوانبه . فمات في البصرة لا في غيرها كما قيل[1] سنة ٢٥٥ . ومما يؤيد هذا قول المهلبي (قال لي ابن المعتز ورد الخبر بوفاة الجاحظ يا يزيد . فقلت لامير المؤمنين طول البقاء[6]) .

المقالة الثالثة ــ الجاحظ في معترك الحياة

بعد ان اجتمعت كل هذه العوامل الثقافية والتيارات العقلية لديه تشربتها روحه وتفاعلت في نفسه ــ اخذ يصهرها في اتونه ويقولبها في دماغه واخيرا بدأ يخرجها للناس كائنا جديدا ومخلوقا فريدا هو ما عرف بعد باد ب الجاحظ . لقد بدأ الجاحظ الكتابة بالبصره وفعلا طرح هناك للسوق بعض الشيء الا ان القوم لم يكونوا قد تعودوا على مثل هذا الأدب الصريح في لهجته المتخلي عن كل تصنع في لغته . وعبارة مختصرة وقفوا وقفة المرتاب من هذا الاديب الواقعي لآخر حد . ولهذا لم ترج كتبه الرواج الذى انتظره . ولم تأته الاموال دفاقا كما تأمل . ولا عجب ، فالبصرة ليست بالسوق الذى يتسع لمثل عرض الجاحظ . فليفتش عن سواها .

في هذه الفترة كانت معركة الامين والمامون قد انتهت . ووورى الامين التراب وقدم المامون بغداد ليتبوأ العرش ويتولى ادارة دفة السفينة . نقول في هذه الفترة على العموم وفي سنة ٢٠٤ على الخصوص قدم المامون بغداد . فتقاطرت اليها الوفود لتهنيء . وتوافدت اليها الشعراء لتقول ما يقال في مثل هذه المناسبات . وبالطبع قدم الجاحظ ليقول كلمة الادباء . واية كلمة هي ... كانت كتابا كاملا هو كتاب العباسية او امامة ولد العباس على اختلاف في الرواية . سلمها للمامون وغاب ينتظر . وما هي الا ايام حتى جاءه الامر بالحضور والمثول بين يدى الخليفة الذى قال له لقد اربى العيان على السماع[1]. ومن هنا بدا نجم صاحبنا بالارتفاع .

ولم تطل المدة بعد ذلك حتى اخذ يتردد على ديوان الصولي بين الفينة والفينة يساعدهم في هذا ويرشدهم في ذاك حتى كان أن شغرت رئاسة ديوان الرسائل . طلبه المأمون ليملأها فاعتذر لكنه اضطر للقبول نزولا عند ارادة امير المؤمنين[2]. وتقول الرواية انه بقي في الديوان ثلاثة ايام فقط بعدها استقال او اقيل. أما لماذا ؟ فالجواب لا يزال سرا من الاسرار . الا ان الظواهر تدل على ان عاملين قويين عملا في المسألة اولهما حسد اعداء الجاحظ وثانيهما كبر نفسه وحبه للحرية .

اما الاول فيشتم من قول سهل بن هارون عندما سمع بامر التعيين (اذا بقي الجاحظ في الديوان فقد افل نجم الكتاب[3]) . واما الثاني فيستنتج من كتابه الذى كتبه بعد ذلك في ذم اخلاق الكتاب حيث وصفهم تارة بالذل والخضوع والملق واخرى بالرياء والغباوة والغفلة[4]

الا ان الجاحظ لم يعتزل ديوان الرسائل المأموني الا ليتعرف الى كاتب من اعظم كتاب عصره ومنشيء من اقوى منشيء ايامه نعني ابن الزيات الذى صار موءخرا وزيرا للمأمون . لقد ازداد التعارف بين الرجلين فتطور الى صُحبة واشتدت الصحبة نادت الى رفع التكليف حتى قيل انهما كانا ياكلان على مائدة واحدة[1] وحكاية السمك والمضيرة التي فلج الجاحظ على اثرها قيل انها كانت على مائدة ابن الزيات . نقول باختصار ان كلا من الرجلين احب صاحبه واغرم به وتحين الفرص لارضائه واعلاء كلمته وتوفير سبل الهناء والعز له. فابن الزيات من ناحيته كان يجزل العطايا للجاحظ ويقدمه في المجالس ويسمع كلمته في كثير من الامور حتى قيل انه اقطعه اربعمائة جريب تدر عليه مالا وفيرا[2]. ويَسَّر له سبيل الرحلة للشام[3] لياخذ ما هو بحاجة اليه من مكاتبها وغير مكاتبها ويتفرج على مجملها .في حين كان الجاحظ يقابله من ناحيته بما يملك الاديب فكتب له كتاب الجد والهزل[4] وعنون باسمه رسالة الحاسد والمحسود[5] واهدى اليه كتاب الحيوان[6] غرة كتبه ورمز ادبه . هكذا عاش الرجلان كل منهما يحب صاحبه ويقربه منه حتى ارتفعت الكلفة كما قلنا وحتى استطاع الجاحظ ان يذكره في الحيوان مثلا وفي البيان كذلك بدون اى لقب او كلمة تبجيل. وان يروى عنه الروايات التي اقل ما يقال فيها انها (بلدية) مثل حكاية الكلب[7] الذى كان يانس بابن الزيات ويبش له ـ وكان من نتيجة هذه الصحبة ايضا ان تحسنت حالة الجاحظ المالية وارتفع مركزه الاجتماعي واضحى كاتبا تكاد تكون له الصبغة الرسمية كما سنرى .

لقد عرف الجاحظ ابنَ ابي دوءاد في صغره كما قال في مقدمة المعاد والمعاش [8]. الا انه تجافى عنه في شبابه للعداوة او بالاحرى للمنافسة التي كانت بين احمد ومحمد . لكنه اضطُر للعودة اليه عندما دارت الايام على محمد وارتفع نجم احمد . وتفصيل هذا انه بموت الواثق واستلام المتوكل زمام الحكم نُمي اليه ان محمدا كان من القائلين بعدم فسح المجال للمتوكل لكي يكون وصي العهد[9]. هذا بالاضافة الى ان ابن الزيات كان شديد الوطاءة على المتوكل بذاته[10]. عندما كان الاول وزيرا نافذ الكلمة وكان الثاني شبه ولي للعهد تتناوشه الاراء وتتلاقفه الارياح . نقول باستلام المتوكل الحكم عزل ابن الزيات وارسل الى ابن ابي دوءاد يضعه في مكانه . اغتنم هذا الفرصة وافهم المتوكل ان لا سلامة للدولة مع بقاء ابن الزيات حيا . وهكذا طاردته الجواسيس وحاصرته العيون فاضطر للهرب . لكنه اخيرا وقع في الفخ وقُبض عليه وزُج في التنور الذى كان قد اعده لتعذيب من تقع عليه الشبهة من ذوى المظالم. تحت هذه الظروف لم يجد الجاحظ سوى

التستر والانزواء والعزلة مهربا . لكنه لم ينجح بل قبض عليه اعوان ابن ابي دواد * ورموه في السجن اياما حتى تذكره القاضي وارسل في طلبه للمحاكمة فاقبل يرسف في اغلال الحديد. ساله ابن ابي دواد لماذا هربت ؟. فقال لئلا اكون ثاني اثنين اذ هما في التنور[1] . فضحك ابن ابي دواد وطلب من حداد ان يفك قيوده فنظر الجاحظ الى الحداد وقال اعمل عمل سنة في ساعة وعمل ساعة في دقيقة فان اطرافي تكاد تذوب[2]. فضحك ابن ابي دواد وامر له بكسوة واعطيه واقبل عليه يبتسم وقال له (هات حدثنا يا ابا عثمان) وبعدها ضمه الى بطانته . بعد هذا لازم الجاحظ القاضي احمد طيلة السنة التي شغل فيها هذا الوزارة. الجاحظ يكتب له امثال المعاد والمعاش ورسائل اخرى خاصة ويهدى له البيان - الموسوعة الادبية المعروفة. وذاك يغدق عليه المنح والعطايا ويجزل له الهبات حتى مرض احمد واعتزل الحكم .

بالرغم من ان الجاحظ انضم لحاشية الوليد بن القاضي مدة من الزمن اكرمه فيها واحسن مقامه الا ان الايام كانت قد تغيرت والأصحاب تبدلت ولم تعد بغداد بدار مقام . ولهذا عاد الجاحظ للبصرة للاسباب التي مر ذكرها . لكنه قبل ان يعود كان قد تعرّف الى شخص له مكانته وصار فيما بعد والي الشام على عهد المتوكل نعني الفتح بن خاقان. احب الفتحُ الجاحظَ وقربه - وأنس الجاحظ بالفتح وأخلص له . الا ان الايام ابت الا ان تفرق بينهما فعندما ذهب الفتح للشام اضطر الجاحظ " بالرغم من دعوة الفتح اياه لمرافقته " نقول اضطر للعودة الى البصرة. لكنه مع ذلك بقي على اتصال به ومن اثار هذا الاتصال وذاك الولاء بقي لنا اولا اهداؤه له كتاب مناقب الترك وثانيا إرسال الفتح للجاحظ تلك العبارة التي تعبر بوضوح عن مقدار ما يكنه الصاحب المخلص لصاحبه[3].

هؤلاء هم اشهر من اتصل بهم الجاحظ من عظماء الدولة. لكنه يحسن بنا ان لا نترك الكلام قبل ان نشير الى ان هناك كثيرين اخرين اتصل بهم الرجل في مناسبات ولاغراض مختلفة . نذكر منهم سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة والحسن بن سهل الكاتب المعروف والحسن بن وهب الذى استمع له في المسجد وابن رباح الذى كان على بيت المال وابراهيم الصولي الذى تولى الديوان مدة من الزمن وابنه محمد الذى ذكره ابن خلكان وآخر اسمه ابو الوليد الذى كتب له رسالة استنجاز الوعد ونجاح بن سلمه الذى قال فيه قصيدة نذكرها في الفهرس وارسل له كتابا خاصا نذكره في سرد كتبه . هذا بالاضافة الى كثيرين غيرهم ممن لم يكن لهم بهم اتصال مباشر .

اما نتيجة هذا الاتصال فهو كما قلنا تحسين مركزه المالي وارتفاع مستواه الاجتماعي واخيرا اعطاءه الصبغة الرسمية في الكتابة لانضمامه تحت لواء هؤلاء الكبار . فاستطاع ان يغول في خلق القران وفي حرية الطباع وفي الرد على كل الفرق الاخرى تغريبا بجلاء ووضوح وعناد وقوة نفس ايام المامون .

ثانيا - نصيبه من الحيـــاة

كلما ذكرنا الحياة ونصيب الجاحظ منها ترتسم امامنا صورة الجاحظ الطفل الاسود المشوه الخلقة . الذى مات ابوه فاضحى يتيما والذى قل ماله فعاش فقيرا والذى جفاه اصحابه فانزوى وحيدا والذى كم عاد من المسجد وليس في بطنه شيء الى بيت ليس فيه شيء لا يحمل الا كتابا في يده ولا يملك الا ثوبا خلقا على جسمه والله يعلم ما اذا كان قد احتذى شيئا في رجله - نقول ترتسم امامنا صورة على هذا الشكل وقد دخل على امه يطلب منها ما ياكل فتقدم له طبق الكراريس وتقول له كل ما بدا لك .

هذا الطفل المسكين البائس ، الاسود ، المشوه ، الفقير ماليا ، الحقير اجتماعيا ، الضعيف نسبيا ، الماشي في مهب الريح - هو الذى ستدور به الايام ويعلو به النجم ويتغير به زحل الى سعد فيصيح بجرأة وابتسامة أمل (لا ينقصني الا ان تكون الخلافة بيدى وان يعمل ابن الزيات بامرى[1]) . لهذا الحد وصل الجاحظ والى بعض الشرح في كيفية ذلك التغير نتحول

١ - ماليته = لقد ظل رزق الجاحظ قليلا ومورده ضئيلا . تارة يعتمد على بخيل واخرى يبيع السمك وثالثة يلوذ بأمه ، حتى بلغ سن الرشد على ما نظن ، وحتى أنس من نفسه الكفاءة للكتابة . فاخذ يستعمل قلمه ويخط اولى رسائله ويبعث بها للسوق عساها تعود اليه بما يتبلغ به ويساعده على مهام الحياة . الا ان القوم كما قلنا قد تنكروا له وجمهرتهم اعرضت عنه واكثرهم راح يطعن قلمه ويغمز كتبه . ولعل للحسد الذى فُطر عليه اكثر الناس نصيبا في ذلك وقد اشار الى كل هذه المضايقات في اول كتاب الحيوان حيث سرد جانبا لا بأس به والقى نورا مفيدا على عُيّابِ كتُبه ومتنقصي ادبه . وصرح بان سياسته ازاءهم لم تزد على سياسة " انهم

قوم جهال علينا يقع عبء تعليمهم ولذا يجب علينا ان لا نغضب " .

الا ان سعة الصبر وطول البال وكثرة الحلم اضرت بالرجل . فأمه لم تعد تجده والبخيل قد ازداد شدّه والآمال التي كان يبنيها على كتبه لم تتحقق . والبصرة كما يبدو ليست بالبلد الكبير . لهذا رحل لبغداد حوالى سنة ٢٠٤ لغرض لا نعرفه الا اننا نرجح انه لم يخرج عن نطاق ثلاثة : إما لطلب العلم الذى اتى على كل مصادره في بلده . وإما لطلب الجاه والمال اللذين يسعى لهما كل مخلوق اجتماعي . وإما لاعطاء العلم والتدريس في بغداد بعد ان شعر بان في وطابه شيئا . ونحن نرجح ان الثلاثة قد عملت متآزرة في نقله من البصرة لبغداد . على كل جاء بغداد واحتك بالمامون فاعطاه واكرمه . واحتك بابن الزيات فاخذ منه خمسة الاف على كتاب الحيوان واربعمائة جريب هبة لسوابق وغيرها وغيرها كثير . ثم التحق بابي دؤاد فاعطاه خمسة الاف على كتاب البيان وامده بمالا نعرف على وجه التاكيد الا اننا نستنتجه من تلميحاته اليه في المعاد والمعاش . ولا ننسى ابراهيم الصولي الذى وهبه ضيعة كاملة.[1] اما الفتح بن خاقان فقد كاد يقطع لسان الجاحظ عن كل سؤال . بالاضافة الى التعيينات التي كان يقبض من بيت المال والهدايا التي كان يستلم من اماكن مختلفة والهبات التي كان يستقبل من المعجبين بأدبه . وان نسينا فلن ننسى موردا من اهم موارده خصوصا في هذه الفترة خصوصا بعد ان ذاع صيته وتناقلت الناس اقواله نعني مبيعات كتبه .

هذه هي الموارد التي حسنت حالته المالية . اما مظاهر ذلك التحسن فاليك اخباره بكل اختصار منقولة لا عن غيره ومأخوذة لا عن سواه بل منسوخة بالحرف من كتبه المختلفة قال الجاحظ كان لي غلام[٢] وغلام اخر[٢]. وقلت لنفيس غلامي[٣] . وكان لي خادم خدم اهل الثروة واليسار واشباه الملوك[٤]. وكان ابراهيم ان زعم لي غلماني[٥]. كل هذا عن الغلمان . اما عن الجوارى فقال انما انا وجارية وجارية تخدمها[٦] فاسمع بالله . اما عن المظاهر الاخرى فقال كان لي نجار[٧] وكان لي ملاح[٨] وكان لي بستان زرعت فيه الاراك[٩]. هذا بعض ما استطعنا ان نهتدى اليه ونتسقطه في كتبه وهو مما لا نشك فيه جانب بسيط مما كان عليه الجاحظ. ولو لم يكن له الا خادم خدم الملوك ، او لو لم يكن له جارية عادية وانما جارية لتخدم الجارية او بالاحرى "سرية" لكفى اشارة الى المركز المالي العظيم الذى وصل اليه ذلك الطفل الاسود المشوه الذى اشرنا اليه . ولكي يؤكد لنا بجلاء لا يشوبه شك بجلاء صحة ما استنتجنا

قال بلهجته التي طالما عرفنا الوضوح ، وصدق الدلالة ، والقصد الى المعنى الواقعي فيها ، جوابا على سائل ساله كيف حالك يا ابا عثمان (انظ انا وجارية وجارية تخدمها . اهديت الحيوان لابن الزيات فاخذت عليه خمسة الاف دينار واهديت البيان لابن ابي دؤاد واخذت عليه خمسة الاف اخرى . فعدت الى البصرة ولي ضيعة لا تحتاج لتسميد وانا الان بانتظار الفرج . قال وما الفرج يا ابا عثمان قال ان تاتيني الخلافة وان يتكلم باسمي ابن الزيات[1]) . الى هذه الدرجة وصل ابو عثمان والى هذه الغاية امتدت به الاحلام . ونحن نحمد الله على ان لم ياته الفرج والا ضاع علينا الكثير من درره . الا انه يحسن بنا ان نذكر الى جانب هذا ان الجاحظ مات فقيرا وهذا مستنتج من جوابه لمن ساله في مرضه كيف حالك يا ابا عثمان فقال

مريض من مكانين من الافلاس والدين[2]

وقبيل ذلك اضطر لتعليم الاولاد في كتاب . بعضهم قال انه كان يُعَلّم ليفيد وبعضهم قال بل ليكسب قوت يومه . ونحن الى الثاني اميل . والسبب في ضياع كل هذه الثروة على ما يظهر لنا من مجمل اطلاعنا على سيرته اولا حبه للتمتع بالحياة . والتمتع لا يكون " لا يكون ببلاش" فالذي يقتني جارية وجارية تخدمها لا يمكن ان يقال عنه انه احجم عن الحياة. ثانيا كرمه وسخاؤه واحتقاره للمال فهو في حين يقول قاتل الله الطمع واخذ الحرص يروح يكتب رسالة كاملة في ذم البخل وكتابا طويلا يعد من درره في الهزء بالبخلاء .

٢ – مركزه الاجتماعي = هذا عن الناحية المالية . اما الاجتماعية فحدث عن البحر ولا حرج. فالجاحظ وان لم يتبوأ مراكز رسمية بل على العكس استقال منها بعد ان نالها – نقول بالرغم من ذلك كان صاحب كلمة في اكبر المحافل وذا رأى لدى اكبر الناس. ولالقاء ضوء على هذه الناحية نورد لك اولا رسالة الفتح اليه ثم نذكر ان كثيرين من الناس كانوا يتشفعون به لدى الولاة[2] واخيرا نرجع القارئ الكريم ثانية ليقرا ويعيد النظر فيما قال هو بنفسه[8] على جؤال السائل الذى مر ذكره بخصوص حكاية الخلافة وابن الزيات .

اما رسالة الفتح اليه فيستنتج منها اولا انه يحبه كثيرا. ثانيا ان الخليفة يبش اليه ثالثا ان كتبه كانت تقدم للعظماء اولا ورابعا ان له اعطيات معينة لدى الخليفة . للتحقيق للتحقيق في هذا راجع رسالة الفتح المنشورة في معجم ياقوت .

اما حكاية الشفاعة فهي وان كان لا يعنينا نصها في هذا المقام الا انها تشير بوضوح الى انه وصل المركز الذى اضطر الناس في ايامه الى ان يرجعوا اليه ليشفع لهم او يوصي بهم عند الولاة. والجاحظ وان لم يكن قد قَبِلَ ان يتشفع، الا ان الرجل لم ياته عفوا بل عن سابق ارشاد وتدبير . ولعل السبب في رفضه هو انه كان يفضل ان يعيش حرا من قيود الشفاعة والوساطة وعلاقات الناس المتشابكة التي تُبعده عن درسه من ناحية وتُقلق راحته من اخرى . وانا اعرف كثيرين من هذا النوع همهم الدرس والكتاب وكل ما عداهما فعلى الهامش . ــ

اما جوابه على السؤال الذى وُجِّه اليه فمما لا يحتاج لشرح . لقد قال السندوبي ان تصريحه بخصوص الخلافة لم يكن معنيا بالحرف ان كان حقا قد صرح به وانما على سبيل المبالغة والدلالة على مقدار توفر اسباب الدنيا لديه. ولعمرى لقد اصاب السندوبي كبد الحقيقة. فاجتماع الجاحظ لا يدل على امال من هذا النوع قط . نعم لقد كتب في الامامة وتحدث عن اداب السلطان وعاشر الخلفاء وله في كل هذه اراء جليلة الا انه لم يعرف عنه مثل هذا القصد في يوم من الايام انما نعتقد مع الاستاذ السندوبي انها لم تكن مقصودة بالحرف وانما كان لعامل النكته وخفه الروح التي عرف بها الجاحظ نصيب كبير في الموضوع .

ولنذكر قبل ان نختم هذه اللمحة ان الجاحظ اضطُر اُخيرا للانزواء في بيت حقير في البصرة بعيدا عن كل الناس . الا انه لحسن الحظ لم يفكر في العزلة والانزواء والحبس ولم يكره البشر ويسيء الظن في كل شيء كما كان من امر ابي العلاء المعرى. بل على العكس فتح بابه ووسع بيته وعلم تلاميذه[1] واستقبل زواره الذين توافدوا اليه من كل الاقطار حتى من الاندلس . رووا ان احدهم طرق الباب عليه ودخل . فوجده في زمرة حوالى عشرين طفلا . فالقى السلام وقال ايكم الجاحظ . وقيل بل دخل عليه في بيته مع امراته فالقى السلام وسال ايكم الجاحظ . فتطلع فيه الجاحظ وقال ممن الرجل . فقال من الاندلس فقال طينة حمقاء وما تقصد قال علم ابي عثمان . فقال الجاحظ انصحك ان تعود مسرعا لانه لا خير فيك .

٣ ــ مركزه الادبــي = هذا عن المالية وعن اجتماع الجاحظ . اما عن الناحية الادبية فحدث عن المحيط ان كنت فيما قبل حدثت عن البحر ولا حرج . لقد خُلق الجاحظ لكي يكون اديبا ولهذا فعقله بالفطرة متقد . وحسه بالطبع مرهف . وقلمه بحكم الظروف كان سيالا . كتب

في كل شيء تقريبا واصفا تارة وناقدا اخرى وموصيا باراء من اجمل ما يكون في عدة اماكن . للعلم في ادبه جانب وللدين اخر وللحياة العامة والخاصة زوايا وقرن . ليست مادته هي التي جذبت اليه الناس فقط بل للطريقة الواقعية البسيطة التي اتخذها واسطة لعرض تلك المادة اثر في نفوس الناس ووقع في قلوبهم محببتهم به وقربتهم اليه . لقد انقسم الجمهور الى عدو وصاحب. لكن هذه سمة من سمات العظمة وواسطة لا بد منها لنشر اسم الرجل ومعه فضله . ولكي نشير الى (ولا نقول نشرح) مركزه الادبي الذى وصل اليه نورد القصص التاليه مكتفين بها دون تعليق (رووا ان كتبه وصلت الاندلس وان احدهم قد اتى الى بغداد خصوصا ليستفيد من الجاحظ شخصيا وياخذ عنه شفاها)[١] . ورووا ايضا (ان ابن الاخشاد مع فضله وعلو كعبه في الادب ارسل من يبحث عن كتاب الفرق بين النبي والمتنبي في عرفات)[٢]. وقال احدهم (الجاحظ ذاك رئيس ادباء العربية بلا مدافع)[٣] . وقال هو نفسه في التربيع والتدوير مخاطبا ابن عبد الوهاب (اعرف يا هذا مَن تُطاول)[٤] وقال ابو هفان عندما قيل له لما لا تهجو الجاحظ (امثلي يُخدع عن عقله فوالله لو كتب فيَّ رسالة لما اضحت الا وذكرها في الصين . ولو قلت فيه الف بيت لما طن منها بيت واحد في الف سنة)[٥] كل هذه قصص وروايات واقوال ان كانت لتدل على شيء فانما على الدرجة التي وصل اليها الرجل من العزة والمنعة وسعة الانتشار .

ثالثا – اخلاقه وشمائله

كان الجاحظ مربوعا[٦] . فيه ميل للقصر كما دافع عن نفسه في التربيع والتدوير ضد هجوم ابن عبد الوهاب على القصيرين[٦] . وكان اسود البشرة . كما قال عنه اكثر مؤرخي حياته مثل ياقوت[٧] وكما اكده ابن المزرع في رواياته عن سواد جده فكأنه اراد ان يقول " والسواد لون متأصل في اسرة الجاحظ وليس طارئا عليها " . وكان جاحظ العينين كبير حدقتيهما[٨] . كما حدّث هو نفسه مما مر ذكره ومما الصق به هذا اللقب الذى كان يمقته ويكره سماعه . والى جانب هذا كان صاحبنا دقيق العنق صغير الراس والاذنين[٩] . كما صرح بلسانه في التربيع والتدوير ايضا اما السندوبي من المحدثين فقد زاد على هذا فتصوره بلحية عريضة كبيرة كثة[١٠] هي رمز القبح في اى مخلوق التصقت به . وكانه عز على السندوبي ان يفوت هذا النوع من القبح الجاحظ او صَعُبَ عليه ان يفوت مؤرخي حياته ذكره فجاء متاخرا يلصقه به ولو في رسم تخيله له. اما من اين اتى

بهذه اللحية فلا نعرف . اذ ان واحدا من المصادر لم يذكرها . لكننا نظن ان السندوبي تخيل ضرورة وجودها لان ارخاء اللحى كانت " الموضه " السائدة في تلك الايام . فاحب ان لا يحرم جاحظنا من لحيته . الا ان غيره كان اجمع منه (اى من السندوبي) في وصفه للجاحظ اذ قال لو يمسخ الخنزير منسخا ثانيا ما كان الا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو القذى في كل طرف لاحظ[1]

كل هذا ما استطعنا ان نجمعه من صفات الجاحظ سواء من كتبه ورسائله او من كتابات من جاء بعده عنه . وهي كما ترى ملاحظات قصيرة مقتضبة الا انها مع ذلك تعطينا فكرة عامة عن صورة الرجل الشخصية يستطيع الفنان الماهر بمساعدتها ان يصنع له رسما يدل لا على شخصه فقط بل وعلى روحه ايضا . اما هذه الفكرة العامة فهي ان خلقة الرجل كانت في غاية القبح والدمامة . وقد تواترت الروايات على هذا حتى لم يعد هناك اى مجال للشك فيه . ومن احسن ما بقي لنا من هذه الروايات او الحكايات او النوادر او سمها ما شئت ما يلي

اولا اجتماع رجلين يتحدثان عن هذا القبح . وبعد ان اتفقا على انه كان في الذروة منه قال احدهما ليته يعود الى بطن امه لعل الله يصلحه ثم يخرجه من جديد . فما كان من الثاني الا ان قال وهل تظن ان الله بحاجة الى ارشادك . انه لن يفعل هذا ابدا لانه يعلم ان خلقه من جديد اسهل عليه من محاولة اصلاحه[2] .

ثانيا قال هو عن نفسه ما اخجلني الا امراتان الاولى طلبت مني ان اتبعها في احد اسواق البصرة . فتبعتها حتى اتينا دكان صانع تماثيل . فاشارت الي ~~الرجل~~ وقالت له : مثل هذا وانطلقت من فورها . سألت الرجل الخبر . فقال جاءتني تطلب مني ان اصنع لها تمثال شيطان فلما قلت لها لا اعرف جاءتني بك . واما الثانية فطويلة جميلة تطلعت فيها وقلت لها انزلي الى عالمنا يا هذه . فقالت ما لك لا تصعد فترى وجه الله[3] .

ثالثا وقال هو عن نفسه ايضا : قابلت طويلا فنظر الي شزرا وقال

كانك صعوة في أس حش اصاب الحش طش بعد رش

وسكت . فصعّدت فيه وقلت له اما انت . فقال ماذا . قلت اما انت ف

كانك بعرة في ذيل كبش تدلدل هكذا والكبش يمشي

فضحك الطويل وضرب على كتفي وقال غلبتني يا ابن الخبيثة (١).

رابعا – رووا ان احداهن أُعجبت بعقله فحاولت ان تراوده عن نفسه باعتراضها اياه في الشارع إثر خروجه من الكُتّاب . قالت له ما رايك يا ابا عثمان لو نتزوج فننجب ولدا يجمع بين جمال جسمي وكمال عقلك فيكون اعجوبة عصره . فسكت الجاحظ واطرق قليلا ثم امسك بلحيته فترة بعدها تطلع فيها وحدجها بنظرة عابرة وقال وهو يعبر الطريق . كفاك ياهذه وما يدريك: لعله يأتي بقبح خَلقي وكمال غرورك . ثم سار فما راته بعد (٢).

كل هذه الحكايات تدل دلالة واضحة على قبح خَلقه سواء في الوجه او في الطول او في مجمل التكوين . بعضها قالها بنفسه وبعضها حاكه حوله للناس . والان ننتقل الى وصفه الخلقي بعد ان القينا نظرة على وصفه الخلقي .

كثيرة الاخلاق التي اتصف بها الجاحظ والتي برزت واضحة جلية في كتبه ورسائله وما كتبه عنه اللاحقون . ولو حاولنا الاتيان على جميعها بالسرد والشرح والتعليق لإحتجنا لكتاب كامل . لكننا مراعاة للظروف التي نحن تحت حكمها في هذه الرسالة سنذكر اهم تلك الاخلاق ونقول اهم ما يمكن ان يقال عن ذلك الاهم فقط .

١ – عدل الجاحظ = اول خلق نحب ان نقول فيه هو العدل . هذا الخلق الذي كاد يسم بميسمه كل ما ترك الجاحظ من ادب سواء في الدين او في العلم او في غيرهما ويطبع بطابعه كل ما ورد عنه من روايات سواء في السخرية او في الجد او فيما بينهما . حتى لقد اصبح يخيل الي انه لا يمكن الفصل بين اللفظين " الجاحظ والعدل " – في نقله كان عادلا . فقد نقل عن اعدائه مثل الخوارج وقرظهم في كثير من الاحيان كما نقل عن اصحابه وقرضهم عندما راى ضرورة لذلك . واحسن مثال يمكن اخذه على هذا هو مثال استاذه النظام . والنظام انسان معرض للخطأ كما هو معرض للصواب . عند الخطأ يجب ان يُلام وينبه الى خطاءه وعند الصواب يجب ان يشكر ويجار الى صوابه . لا ان يُتغاضى عن جانب ويؤخذ بعين الاعتبار جانب واحد وقع من قلب الكاتب موقع هوى . والا كان ذلك الكاتب ظالما لا عادلا . وبعيدٌ عن الجاحظ وصف الظلم . فهو عندما راى في النظام جميلا لم يتوان ثانية عن مدحه ورفعه الى عنان السماء .

وفي حين انه عندما وقع له على ما لا يجوز من الغلط لم يحجم عن ان يسل سيفه السيان ويقول انه لم يكن ثقة. هذه كلمة في عدله في النقل الادبي. اما في العلم فلك من تحقيقه الدقيق وقصده للحقيقة العارية دون سواها ما يبهر العقل خصوصا اذا عرفتَ ان مثل هذا التحقيق لم يعرفه احد من سابقيه او معاصريه . ولولا ان لتحقيقه بابا كاملا لافضنا في جزئياته . هذا عن عدله في الادب وفي العلم اما في الدين فيكفي ان نقول انه كان من المعتزلة الذين يسمون اصحاب العدل والتوحيد ويكفي ان يكون رئيس الجاحظية تلك الفرقة لا المعتزلة فحسب بل والمتطرفة في الاعتزال . سُئل احدهم لماذا تسمون انفسكم باصحاب العدل. قال لاننا ننفي القضاء والقدر . قال وما شان ذلك بالعدل . قال لانه لا يجوز ان يقال كما تقول الفرق الاخرى ان الله قدر علينا المعاصي ثم يعود ليعاقبنا عليها . لان هذا لا ينجيه من تهمة الظلم . اما نحن فنقول ان اعمال الانسان من خلقه وانه حر في تصرفه بل انه ليس مسؤولا عن كثير من اعماله غير الارادية ولهذا كان اذا ما اخطأ وعذبه الله كان الله عادلا ولم يكن له على الله حجة في انه ظلمه . لقد اعتنق الجاحظ الاعتزال وتطرف في عقيدة العدل حتى لقد كفره من اجلها الكثيرون من الفقهاء ورموه بالزندقة . والذى يطالع البغدادى في فرقه يرى من انواع السباب والشتائم ما يتنزه القلم الاديب عن تكراره.

الا انه يحسن بنا ان نذكر ان عدل الجاحظ لم يكن نظريا سطّره في الكتب وفرّقه في الرسائل ليطلع عليه الناس من بعده وهو عنه في عزلة انما كان عمليا عاش فيه طول حياته ، رووا ان احدهم جاءه ليشفع به عند حاكم فرفض . وعندما سئل لماذا .قال لان الشفاعة لا تخلو من قول زور . والزور ربما لا شك فيه ضرب من الظلم واخفاء الحقيقة. ورووا الى جانب هذا حكايات كثيرة اخرى نسكت عنها لان الغرض ليس التعداد بقدر ما هو الاستشهاد .

٢ – <u>كرم الجاحظ =</u> هذا ثاني خلق يبرز جليا في كل حياته . الكرم بالرغم من فقره . والكرم بالرغم من كثرة مصروفاته . طبع على الكرم والسخاء فليس له عنهما احجام. لقد قلنا فيما سبق انه ولد فقيرا . ثم قلنا انه غنى بعد ذلك. فكان علينا ان نسميه من الجماعة الذين يغنون دفعة واحدة ، وكان علينا ايضا ان نستنتج كما هو المعروف انه كان بخيلا . لكن الحقيقة غير ذلك . فقد كان كريما وكان يكره البخلاء واليك بعض الشواهد . في اخر رسالة استنجاز الوعد قال (قاتل الله الحرص واخزى الطمع) وهذا ان دل على شيء فليس الا على ثورة كامنة في نفسه على هاتين النزعتين عبّر عنها بكل هدوء وساطة بهاتين الجملتين. قد يقول البعض ان هذا كان

ان هذا كان نظريا في حياته وليس له من العملية نصيب . وكثيرا ما اوصى الجاحظ بامور كان هو ابعد الناس عنها ـ لكن هذا يسقط عندما يعلم هؤلاء البعض ان الالوف المؤلفة من الدنانير التي جمعها من هدايا كتبه وان الضيعه الغناء التي زرع فيها الاراك وعاش فيها مع جارية وجارية تخدمها . وان الخادم الذى خدم ذوى اليسار واشباه الموك كلها ضاعت هباء ـ ولكن كيف ضاعت لست ادرى . الا انني ادرى انه عندما مات مات فقيرا وانه قبيل ذلك اضطر لان يكتسب قوته من عرق جبينه بالتعليم في كُتّاب وانه عندما ساله احدهم في اواخر ايامه والمرض يحز في ضلوعه والمه يسرى في عظامه فيكاد يهدها = كيف حالك يا ابا عثمان لم يكن من جواب الا مريض من مكانين من الافلاس والدين .

لم يمت الجاحظ فقيرا فحسب وانما كان مديونا ايضا. مديوناً والله اعلم بكم . ولو كان بخيلا لما وصل الى هذه الدرجة. قد يُقال إنّ أمثال واقوال تُضرب وتقال في مناسبات. يَعتمد عليها من يريد وينكر صحتها من يشك في الامر فهاتوا لنا غيرها . الا اننا قبل ان نأتي بغيرها نقول اننا قد تاكدنا من صحة نسبة كل ما مر عن كرمه ومع ذلك خذوا هذا الدليل الثالث . احسن كُتب الجاحظ على الاطلاق واقربها الى روحه وادلها على نفسه هو كتاب البخلاء . فالى هؤلاء المنكرين نقدم هذا الكتاب . لا لنناقش ونحاور ونبرهن ان الرجل كان كريما بل لنتركهم يقرؤنه لوحدهم ويغيّروا ارائهم بانفسهم . كتاب البخلاء هو اعجوبة الدهر في ذم البخل والسخرية من اهله. كتاب البخلاء هو السيف القاطع الذى يمكن شَهرُه في وجه كل بخيل ليسكت عن نرنرته ويترك الدفاع عن نزعه ان لم يتحوّل كريما . اقرؤا كتاب البخلاء .

٣ ـ حُب الجاحظ للحياة = ثالث ناحية من نواحي خلقه نحب ان نتكلم عنها هي ـ ناحية حبه للحياة . وهي كما يظهر غامضة يمكن وضع نواحي كثيرة تحتها والكلام عنها جميعا ضمنها . منها مثلا مالبسة الزمان ومنها كذلك الميل للتحلل ومنها ايضا الانانيه بالاضافة الى المفهوم الواسع من التمتع بالحياة. وفي الاسطر القليلة التالية سنحاول ان نلقى نظرة على كل من هذه وان كانت جميعها يجمعها قولنا = حب الحياة .

اما ميله للتحلل ـ وان كانوا لا يقولون تحللا كاملا ـ فهو خلق رماه به اعداؤه لما رأوه من حلمه وسعة صدره واتساع افاق عقله . فهو اذا نفى تحريم انواع الشراب في رسالة النبيذ ولم ير بأسا من شربه قالوا هو متحلل من القيود الدينية . واذا سكن الى الجوارى واكثر

مفهوم / / قالوا / / و / متحلل / الى / من / اد / القيود

منهن قالوا هو متحلل من القيود الخلقية . واذا سخر وتهكم قالوا لا وزن للاجتماع وحدوده عنده . وما دروا ان كل حكيم متزن يقول بما قال الجاحظ ويرى بما راى . هذا من ناحية تحلله اما ملابسة دهره فهم اذا راوه ساير السلطان وكتب يؤيده قالوا ليس بغريب فهو متملق . واذا جرد قلمه يقول في العامة قالوا هو مداهن وما دروا ان الحيلة ليست وجها واحدا بل ذات وجوه وان على الاديب الحق ان يقول فيها كلها . وكأن الاستاذ السندوبي لم يكتف بكل هذه المطاعن حتى راح "يضيف الى الحروف نقطها" فيتهمه بالانانية . اما من اين اتى بهذه الانانية او من ماذا استنتجها او كيف اهتدى اليها فللآن بالرغم من اننا طالعنا اكثر ما بقي لنا من ادبه وما قيل فيه لم نجد لمثل هذا رائحة . لكننا نقول ان هذا كان استنتاجا شخصيا استنتجه السندوبي من ابتعاده عن الناس وخلوده للخلوة . فهو لم يقبل وظائف الدولة وهو لم يوافق على استشفاع من استشفع به وهو الى جانب ذلك كان ثائرا على اكثر النظم و ينقدها وكأنه لا يرى الا نظامه . نقول لعل هذه الظواهر هي التي قادت السندوبي الى استنتاجه . ولو علم صاحبنا ان العالِم الحق هو الذي يفعل ذلك واكثر منه اى يبتعد عن الناس ليخلوا الى كتبه لما استنتج ما استنتج ولما قال ما قال . والجاحظ كان عالما وكان اديبا وكان الى جانب ذلك فقيها له في الفرق فرقة مشهورة . فكيف يكون كذلك وهو اناني . كيف يتبعه اصحاب فرقته وهو اناني . وكيف تكون فيه صفة العدل وهو اناني . بل كيف يكون كريما وهو اناني . الجاحظ لم يكن انانيا اولا لان المظاهر لا تدل على انانية وثانيا لان احدا لم يذكر ذلك واخيرا لان عندنا دلائل كثيرة تدل على العكس .

انما يقال باختصار ان الجاحظ كان يحب الحياة . لكنه لم يكن يحبها كما يحبها غيره الكثيرون . اى بتضحية كل شيء في سبيلها . او لم يحبها لانه اضعف من ان يقاوم مغرياتها انما احبها لنزعة فيه تالية تحكمت بعقله واستبدت بكل ما فعل . احبها لانه كان واقعيا . خياله ضعيف ولذا لم يحلم بمدينة فاضلة . وعقله حصيف ولذا لم يتطرف كثيرا للنظريات البعيدة. "هنا نعيش . وبحسب هذا يجب ان نتكيف . لا ان نعيش جسميا في عالم وروحيا في آخر" .

٤ — واقعية الجاحظ = هذه الواقعية جاءت الرابعة في العدد الا انها في الحق الاولى عندى في الاهمية . وقد سَخَّر الجاحظ كل ما لديه من جسم وعقل وروح للعيش بحسبها . وقد هيمنت هي عليه فطبعت كل حركة وسكنة منه بطابعها . الواقعية هي كل شيء

عنده وهي الخاتم الذى تجد اثره على كل ما ترك . في الدين كان واقعيا ولهذا بطلت عنده اولا النظريات الخيالية والاقوال الهوائية التي تعود غيره الصاقها بالدين وحل محلها تعاليم جديدة عملية يتفهمها من يحاول مطالعة تعاليم الجاحظ . وبطلت عنده ثانيا تلك الطرق العقيمة في اثبات الدين والدفاع عنه مما كان يسميه (مهاترات) وحل محلها المنطق والعقل واستعمال القوى المميزة. والذى يطالع لا كتاباته في الدين فحسب (حجج النبوة) بل وحتى الحيوان وما قيل فيه يتاكد من صدق ما ذهبنا اليه . ادبه كان ادبا واقعيا وعلمه كان علما واقعيا ودينه كان دينا واقعيا وحياته في كل جـزئياتها كانت كذلك . اما لماذا فاعتقد لانه سبر الحياة في جحيمها ونعيمها واطلع على كل خفاياها .

٥ ـ هـزله وجـده = على هذين قطر الجاحـظ . ومن الغريب انهما متناقضان وقلّ ان يجتمع في واحد ما لم يكن من الذين يجمعون بين المتناقضات . الا ان الجاحظ كان صاحب اضـداد وقد جمع بينهما . وعلى هذا فليس من الغريب ان يجمع بين المتناقضات انما الغريب فيه ان يكون مبرزا في كليهما . فنكتة الجاحظ لا يكاد يعدلها نكتة وحكمة الجاحظ لها في المناسبات وقع كبير . ونحن نرى ان الجاحظ في طبعه قد رُكِّب على الجـد والعبوس. لان حياته الاولى لا تولد ولا توحي بغير ذلك . لكنه غَنِيَ ونَعِمَ فيما بعد فجاءته الابتسامة والمرح وعندما تطورت به الايام وعركته السنون وتجمع لديه العنصران صهرهما في اتونه ثم خلق منهما كيانا جديدا هو الكيان الادبي الخاص بالجاحـظ الذى يبرز فيه هذان العنصران واضحين . والدليل على هذا ان رسائله الاولى مثل العباسـية مثـلا كلها جادة رزينه لا عبث فيها ولا مداعبة . في حين ان رسائله الوسطى قد طغت عليها هذه النزعه طغيانا عظيما مثل رسالة الجد والهزل . واذا تقدمنا الى ما الف في شـيخوخته ونعني البخلاء والحيوان والبيان وجدنا النزعتين معا قد دمجتا واحـسن دمجهما . كثيرون الذين قالوا ان جانب الضحك في خلق الجاحـظ اقوى من الجد . واكثر منهم الذين راوا العكس . الاولون يسـتشهدون بهذه النكات الكثيرة الواردة عنه . ويذكرون هذه الرسائل المضحـكة التي خلفها اذا ما طُلب ذلك ـ في حين ان الا خرين يسـتشهدون بمجمل حياته وبهذه الرسائل الدينية الجامدة التي خلفها ايضا اذا ما طلب ذلك . اما نحن فاننا نميل الى الراى الثاني وهو ان الجاحظ كان في مجمل طبعه جادا لكنه كان في كثير من الاحيان (وهو يرقب الناس في برجه العاجي) كان يرى سـيرهم على غير هدى وكان يلاحـظ حماقاتهم دون ان يدركوا ، فما كان يملك من ان يعود الى دفتره ويسـطر هذه السخافات ويضحك من هذه الحماقات حتى يكل .

ثم يخرج هذه الكتب فيضحك لها من بعده جميع الناس .

٦ ـ اخلاق اخرى = مثل حلمه ومثل دهائه ومثل اعتداده بنفسه وشرود ذهنه ومثل تواضعه ومثل غيرها كثير نمسك عن الافاضة فيها ونكتفي بالتلميح اليها اولا لان الظروف لا تساعد وثانيا لانها لم يكن كبير اثر في حياته الخاصة واخيرا لانها لم تبرز واضحة في ادبه لدرجة تضطرنا معها ان نتكلم عنها باسهاب .

هذا هو الجاحظ . الفقير الغني . الحقير العظيم . المكروه المحبوب الجاهل العالم الذى بكل اختصار جمع المتناقضات ووفق بين الاضداد حتى اصطلحت عليه اضداد الامراض . فمات رحمه الله تحت ضغط البوسر الاليم .

...

لظروف فنية قاهرة اضطررنا لاتباع هذا الاسلوب في الاشارة الى المراجع التي رجعنا اليها في كتابة الفصل الاول من الرسالة . نمعذرة والسلام .

صفحة	رقم	مرجع
١١	١	سندوبي ١٧٢
	٢	ح ٧/ ٥٤
	٣	مج مسعودي ٨/ ٣٨
	٤	ياقوت ٦/ ٥٦
	٥	وفيات ١/ ٥٠٣
	٦	ابو الفداء ٢/ ٤٩
	٧	ابن الوردي ١/ ٢٣٣
١٢	١	ياقوت ٦/ ٧٨
	٢	سندوبي ١٥
	٣	ابو الفداء ٢/ ٤٩
	٤	ابن الوردي ١/ ٢٣٣
	٥	بيان ١/ ٢٤٢
	٦	البغدادي ١٦٢
	٧	السيوطي ٢٥٤
	٨	ابن حزم ٤/ ١٩٥
١٣	١	ياقوت ٦/ ٥٦
١٤	٠	وفيات ١/ ٥٠٣
	١	ياقوت ٦/ ٦٢
	٢	سندوبي ١٥
	٣	مقدمة البيان ١/ ٢
	٤	مقابسات ١٢
	٥	مقابسات ١٤٨
	٦	مقابسات ١٢

صفحة	رقم	مرجع
١٥	١	مج ١٢٦
	٢	كامل ١/ ٢٨٣
	٣	كرد ٣١٥
	٤	ياقوت ٦/ ٥٦
	٥	ابن حزم ٤/ ١٩٥
	٦	كوبرلي زادا ٨٣
	٧	طه حسين في " الجاهلي "
١٦	١	كرد ٣١٥
	٢	كرد ٣٢٤
	٣	سندوبي ١٠/١٩
	٤	بيان ٢/ ١٨ ٣/ ١٥
١٧	٠	كرد ٣١٥
	١	سندوبي ١٣
	٢	ياقوت ٦/ ٦١
	٣	ح ٣/ ١١٤
١٨	١	ح ١/ ٦
١٩	١	سندوبي ١٢
٢٠	١	سندوبي ١٦٩
	٢	ح ٣/ ١٣٤
	٣	ح ٢/ ٢٠٢
٢١	١	ب ١/ ٢٤٣
	٢	ح ٢/ ٥٦
	٣	ح ٢/ ١٥

تابع المراجع – ٢

صفحة	رقم	مرجع
٢٢	١	ياقوت ٦/ ٨٠ ونيات ١/ ٥٥٥
	٢	ياقوت ٦/ ٥٦
	٣	مقدمة البيان ٢/ ٦
	٤/ ٦	شفيق ١٠...
	٧	مقدمة البيان ٢/ ٦
٢٣	١	ياقوت ٦/ ٧٩
	٢	ونيات ١/ ٥٤٤
	٣	عصر المامون ٤٢٨
	٤	ياقوت ٦/ ٥٦
	٥	ونيات ١/ ٥٥٤
٢٤	١	سندوبي ١١
	٢	مقابسات ١٠...
	٣	البغدادى ١٦٢
	٤	ابن شـهيد في مبارك
	٥	ياقوت ٦/ ٥٦
	٦	كرد ٣١٥
	٧	بخ ١٩٤
	٨	ياقوت ٦/ ٥٦
٢٥	١	ح ٢/ ٥
	٢	مقدمة البيان ٢/ ٧
	٣	ح ٣/ ١٦٧
٢٦	١	ب ٢/ ٧٠
٢٧	١	٣/ ٢٢٤
	٢	بخ ٥٠
٢٨	١	ياقوت ٦/ ٥٦

صفحة	رقم	مرجع
٢٩	١	كرد ٣١٧
	٢	ح ٧/ ١٥
	٣	ح ٣/ ١٠١
	٤	ح ٢/ ٤٥
	٥	ح ٣/ ١٠٠
	٦	ح ٤/ ٥١
	٧	ح ٥/ ١١٣
	٨	ح ٤/ ٥٦ صبح ٣/ ٣١٨
	٩	ونيات ...
٣٠	١/ ٥	شـفيق ٦٧ ...
٣١	١/ ٤	شـفيق ٦٧ – ٦٩
	٥	مرتضى ٣٠
	٦	ح ٢/ ٨٣
	٧	ح ٤/ ١٠٦
٣٣	١	مقدمة البيان ١/ ١٦
٣٤	١	ياقوت ٦/ ٧٥
	٢	ياقوت ٦/ ٧٩
	٣	سندوبي ١٨٩
	٤	ياقوت ٤/ ٧٤
	٥	سندوبي ١٩٢
	٦	ياقوت ٦/ ٨٠
٣٥	١	ب ٣/ ٢١١
	٢	ياقوت ٦/ ٥٨
	٣	ياقوت ٦/ ٥٨
	٤	فنكل ٤٣ ...

تابع المراجع — ٣

صفحة	رقم	مرجع
٣٦	١	ابن عساكر ٦/ ٥٢
	٢	مرتضى ٣٨
	٣	مرتضى ٣٩
	٤	كراوس ٦١
	٥	مج ٢
	٦	سندوبي ٣٣
	٧	حيوان ...
	٨	كراوس ٢
	٩	كرد ٣١٨
	١٠	نفسه
٣٧	١/ ٢	ياقوت ٦/ ٥٨
	٣	ياقوت ٦/ ٧٢
٣٨	١	سندوبي ٣٣
٣٩	١	ياقوت ٦/ ٧٦
	٢	ب ٣/ ٢٢٢
	"٢	ح ٢/ ١١
	٣	ب ٣/ ٢٢٦
	٤	ب ٢/ ٢٣٠
	٥	ح ٢/ ٤٦
	٦	سندوبي ٣٣
	٧	ح ٣/ ٨٥
	٨	ب ٢/ ١٣٥
	٩	كرد ٢٨٧
	١٠	ح ٣/ ٨
٤٠	١	سندوبي ٣٣
	٢	ياقوت ٦/ ٦٢
	٣	ياقوت ٦/ ٦١
٤١	١	ياقوت ٦/ ٧٥
٤٢	١	ياقوت ٦/ ٧٤
	٢	ياقوت ٦/ ٧٣
	٣	ادباء البكلوريا " جاحظ"
	٤	مج ١٢٦ ...
	٥	ياقوت ٦/ ٧١
	٦	مج ٨٨
	٧	ياقوت ٦/ ٥٦
	٨	مج ٩٠
	٩	ابن خلكان ١/ ٣٨٨
	١٠	اول " الحي الجاحظ"
٤٣	١	دائرة البستاني "جاحظ"
	٢	نفس المرجع
	٣	سندوبي ١٦٦
٤٤	١	سندوبي ١٧٠
	٢	ادباء البكلوريا " جاحظ"

الفصل الثاني : كتب الجاحظ

١. سرد كتبه
٢. تحقيقه في ذلك الرد
٣. وصف الباقيات . ونظرة تقدير

المقالة الاولى في تعداد كتبه .ـ

١ ـ الابل = مذكور في ياقوت ٦/٦٧ . لا مخطوطة . لا مطبوعة . ضاع

٢ ـ ابو النجم (رسالة الى ـ وجوابه) = ذكره السندوبي ٤ . لا مخطوطة . لا مطبوع.

٣ ـ اثم السكر (رسالة في ـ) ذكره ياقوت ٦/ ٧٨ .

٤ ـ احالة القدرة على الظلم = ذكره ياقوت ٦/ ٧٧ .

٥ ـ احتجاج البخلاء = ذكر في الحيوان ١ / ٢ / ١٢

٦ ـ الاحتجاج لنظم القرآن = ذكر في الحيوان ١ / ٥ / ١ ـ وطبع في هامش الكامل الثاني بين ١٢٢ و ١٤٦ . قال السندوبي ان الباقلاني طعن فيه في الاعجاز .

٧ ـ احدوثة العالم = ذكره السندوبي ٢ .

٨ ـ الاخبار = ذكر في الحيوان ١ / ٥ / ٦ وفي ياقوت ٦ / ٧٧ .

٩ ـ الاخبار وكيف تصح = ذكره ياقوت ٦ / ٧٦ .

١٠ـ الاخطار والمراتب والصناعات = ذكره السندوبي ٩ .

١١ـ اخلاق الشطار = ياقوت ٦ / ٧٨ .

١٢ـ اخلاق الفتيان وفضائل اهل البطالة = التلج ٠/ ٣/ ٢ .

١٣ـ اخلاق الملوك = ياقوت ٦ / ٧٦ .

١٤ـ الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة = لم يذكر . توجد منه مخطوطتان الاولى في الموصل رقم ٣/٢٦٤ والثانية في داماد رقم ٩٤٩ / ٢ .

١٥ـ الأخوان = ياقوت ٦ / ٧٧ .

١٦ـ الادب = العقد الفريد ١ / ٣١١ / ٢٥ .

١٧ـ الاستبداد والمشاورة في الحرب = ياقوت ٦ / ٧٨ .

١٨ـ استحقاق الامامة = لم تذكر . منها مخطوطة في الملحق البريطاني رقم ١١٢٩ / ٢٠ نشرت في ثاني الكامل ٢١٢/ ٢٢٠ و ٢٦٩ / ٢٩١ . وفي رسائل السندوبي ٢٤١/ ٢٦٠ وفي ريشر ١٦٨ / ١٧٩ .

١٩ ـ الاستطاعة وخلق الافعال = ياقوت ٦ / ٧٧ . والسندوبي ص ١١٨ .

٢٠ـ استطالة الفهم = خفاجي ١٠٤ . منشور في الخفاجي ١٠٤/ ١٠٤ .

٢١ـ استنجاز الوعد = لم يذكر . منه مخطوطة في الملحق البريطاني ١١٢٩ / ٢١

٢١ – ومنشور فى المجموعة ١٧٣ – ١٧٧ وفى ثانى الكامل ٢٢٠ – ٢٢٧ . وفى ريشر ١٩٥ – ١٩٩ . وبخصوصه راجع ص ١٧٥ و ١٧٦ منه .

٢٢ – الاسد والذئب = ياقوت ٦ / ٧٨ .

٢٣ – الاسماء والكنى = بيان ١ / ٢٢٢ وكذلك بيان ١/ ١١١ .

٢٤ – الاسم والحكم = حيوان ١ / ١٤٩ / ٧ .

٢٥ – الاشجار (كتاب فى –) = كرد على ٤٠٣ .

٢٦ – اصحاب الالهام = حيوان ١ / ٥ / ٥ .

٢٧ – الاصنام = حيوان = ١ / ٣ / ٥ . راجع السندوبى ١١٩ .

٢٨ – اصول الدين = ابن خلكان = ١/٣٨٨ / ١٠ .

٢٩ – اصول الفتيا والاحكام (فى –) = حيوان ١ / ٤ / ٢٣ .

٣٠ – اطعمة العرب = المدائنى ٢ / ٤٩ / ٢٩ .

٣١ – الاعتزال وفضله = السندوبى ١١٩ .

٣٢ – افتخار الشتاء والصيف = ياقوت ٦ / ٧٦ .

٣٣ = افعال الطبائع = سندوبى ٢٤ .

٣٤ – اقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات = حيوان ١ / ٢ / ٢٠ .

٣٥ – الامامة = بيان ٣ / ٢١١ .

٣٦ – الامامة على مذهب الشيعة = ياقوت ٦ / ٧٦ .

٣٧ – امامة امير المؤمنين معاوية = ياقوت ٦ / ٧٦ .

٣٨ – امامة بنى العباس = سندوبى ١٢١ .

٣٩ – امامة ولد العباس = مروج ٦ / ٥٥/ ٧ .

٤٠ – امامة المروانية = مروج ٦ / ٥٧ / ٢ . راجع ياقوت ٦/ ٧٦ والسندوبى ١٢١ . وبروكلمن ٩

٤١ – امتحان عقول الاولياء = ياقوت ٦ / ٧٦ . وهى رسالة لأبى الفرج .

٤٢ – الامثال = ياقوت ٦ / ٧٧ .

٤٣ – امر الحكمين = لم يذكر . منه مخطوطة فى ميلانو امبروزيانا ن ١٢٩ راجع بروكلمن ١٥

٤٤ – الامصار = سندوبى ٧ .

٤٥ – الامصار وعجائب البلدان = مسعودى ١/ ٢٠٦ . راجع بروكلمن ب ٩٠ وسندوبى ١٢٤ .

٤٦ ـ الامل والمامول = يافوت ٦/ ٧٨
٤٧ ـ امهات الاولاد = سندوبي ٣٣
٤٨ ـ الانس والسلوة = سندوبي ٣٤
٤٩ ـ الاوطان والبلدان = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٥
٥٠ ـ الاوفاق والرياضات = حيوان ١/ ٣/ ٢١
٥١ ـ اى القران = ياقوت ٦/ ٧٧ ـ راجع السندوبي ص ١١٧
٥٢ ـ البخلاء = مروج ٨/ ٣٤/ ١٠ وكذلك ياقوت ٦/ ٧٦. طبع باشراف الساسي ثم في دمشق ثم في دار الكتب ثم في لايدين وترجمه ريشر ٢٧٦-٢٨٨ . راجع كرد علي ص ٤٣٠ واحمدامين في ضحى الاسلام ص ١٠٧ .
٥٣ ـ بصيرة غنام المرتد = حيوان ٢/ ٥/ ٦ وياقوت ١٦/ ١٠٠ والطبرى ٣/ ١٣٠٢/ ٨ . راجع رسالة الفتح ابن خاقان اليه في ياقوت ٦/ ٧٥ وكذلك بروكلمن نمرة ١٧ ب .
٥٤ ـ البغل = ياقوت ٦/ ٧٥ . قال انه ملحق
٥٥ ـ البلاغة والاعجاز = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٦
٥٦ ـ البلدان = ياقوت ٦/ ٧٧ وكذلك بلدان ياقوت ٢/ ٥٩٣/ ٧وكذلك سندوبي ١٢٥ .
٥٧ ـ بني امية = زيدان ٢/ ١٦٩/ ٤ منشورة في رسائل السندوبي ٢٩٢-٣٠٠ .
٥٨ ـ البيان والتبيين = مروج ٨/ ٣٤/ ٧ وياقوت ٦/ ٧٦ وابن خلكان ١/ ٣٨٨/ ١٣ وبغية السيوطي ص٢٩٥ . من مخطوطاته في الاسكوريال ٢/ ٢٢٨ ثم لنينغراد ١٥٨ ثم داماد زادى ١٥١٤ ثم في فاس ١٢٥٢ ثم في الموصل ٢٠٨/ ١٥/ ١ . منشور في سنة ١٣٠١ ، ١٣٢٢ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٣ . راجع السندوبي ١٢٦ وبروكلمان نمرة ١
٥٩ ـ بيان مذاهب الشيعه = المجموعة بين ١٧٨ ـ ١٨٥ ثم ريشر ١٩٧-٢٠٤ .
٦٠ ـ بين الصدق والكذب = حيوان ١/ ٢/ ١٣
٦١ ـ التاج = فهرس العقد الفريد لمحمد شفيع ١/ ٢٦/ ١٢ . الا ان العقد بذاته لابن عبد ربه ذكره لغيره ٢/ ٢٨٧/ ١٣ . وبهذا الخصوص راجع مقدمة احمد ذكي باشا .
٦٢ ـ التبصر بالتجارة = منشورة في المجمع العلمي ١٢/ ٣٢٦-٣٥١ . وبهذا الخصوص راجع الكرملي ١٣/ ٢٨١-٢٩٩ ثم كرد علي ص ٤٣٠ ثم مجلة المجمع العلمي بالشام ١٣/ ٣٢٦.
٦٣ ـ تحسين الاموال = سندوبي ٤١
٦٤ ـ التربيع والتدوير = ياقوت ٦/ ٧٦ . مخطوطة في المحلق البريطاني ١١٢٩/ ٣ . منشور في المجموعة ٨٢-١٤٢ وفي هامش اول الكامل ٤٠-٩٧ وفي مثلث فلوتن ٦٨-١٥٧ وفي رسائل السندوبي ١٨٧-٢٤١ وفي ريشر ٢١٢-٢٥٥ .
٦٥ ـ التسوية بين العرب والعجم = يافوت ٦/ ٧٧
٦٦ ـ تصحيح الاخبار = سندوبي ١١٨ . راجع منية الامل لاحمد ابن يحيى ٢/ ٣٨٧/ ٨ وكذلك لغة العرب ٩/ ٣/ ١٧٤ وما بعدها وراجع ايضا ريشر ٥٥٢ وما بعدها
٦٧ ـ تصويب علي في تحكيم الحكمين = ياقوت ٦/ ٧٦ . يوجد منه مخطوطة في امبروزيانا في ميلانو نمرة ١٢٩ . وبخصوصه انظر المجلة الالمانية ٦٩/ ٧٧ وانظر مقالة جريفني في مجلة القرن لذكرى المستشرق اماري ١/ ٤٠٢ ـ ٤١٥. وقال السندوبي ص ١٢٨ انه وجد قسما منه . ونحن نقول ولعله " امر الحكمين ذاته الذى مر سابقا " .

٦٨ – التفاح = سندوبي ٤٤ . ولعله اشجار كرد علي الذى مر ذكره .

٦٩ – تفضيل الاعتزال على كل نحلة = حيوان ١/ ٥/ ٢ .

٧٠ – تفضيل البطن على الظهر = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٧ .

٧١ – تفضيل صناعة الكلام = فهرست ٣٠٠/ ٢٥ . قال المسعودى لعلها الهاشمية وبهذا الخصوص راجع السندوبي ١١٢ .

٧٢ – تفضيل النطق على الصمت = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٢٢ . منشورة في المجموعة ١٤٨–١٥٤ وفي هامش الكامل الثاني ٢٢٧–٢٣٧ وفي ريشر ١٨٢–١٨٦ . راجع ص١٤٨ منها . ونحن نقول ولعلها فصل من البيان والتبيين .

٧٣ – التفكر والاعتبار = ياقوت ٦/ ٧٧

٧٤ – التمثيل = ياقوت ٦/ ٧٧

٧٥ – تنبيه الملوك = زيدان ٢/ ١٦٨/ ٢٣ . السندوبي أسماه – والمكايد ص ١٥٢

٧٦ – تنبيه الملوك والمكايد = سندوبي ١٥٢ منه مخطوطة شمسية بدار الكتب ٢٣٥٤.

٧٧ – تهذيب الاخلاق = رأيته في مكتبة الجامعة اليسوعية معنونا باسم الجاحظ .

٧٨ – الجد والهزل = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٣ وداماد ٩٤٩/ ٦ والموصل ٢٦٥/ ٩ . نشره كراوس ٦١–٩٩ . اسماه السندوبي المزح والجد ص ١٢٩ .

٧٩ – الجزء الذى لا يتجزأ = سندوبي ٧٨.

٨٠ – جمهرة الملوك = ياقوت ٦/ ٧٧ .

٨١ – الجوابات = حيوان ١/ ٥/ ٥

٨٢ – جوابات المعرفة ياقوت ٦/ ٧٧ .

٨٣ – جوابات في الامامة = ملحق البريطاني ١١٢٩ / ٢٦

٨٤ – الجوارح = بيان ١/ ٨٠ .

٨٥ – الجوارى = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٨٦ – الحاسد والمحسود = ياقوت ٦/ ٧٦ . الملحق البريطاني ١١٢٩/ ١ . نشر في المجموعة ٢–١٣ وفي هامش الثاني ٢–١٦ وفي ريشر ١٨٠–١٨٢ . راجع ص ٢ منه .

٨٧ – حانوت عطار = ياقوت ٦ / ٧٧

٨٨ – الحجاب = طراز الخفاجي ٧٣ . مخطوط في داماد ٩٤٩/ ١٢ والموصل ٢٦٥/ ١٠ منشور في طراز الخفاجي ٧٣–١١٥ ورسائل السندوبي ١٣٥–١٦٨ وريشر ٥٣٣–٥٥٠ .

٨٩ – الحجاب وذمه = هكذا اسماه السندوبي ١٥٥ .

٩٠ – الحجات = سندوبي ١٢٩

٩١ – حجة او حجج النبوة = ملحق البريطاني ٨/١١٢٩ . منشور في هامش الاول ٢٧٥–٢٩٦
وفي هامش الثاني ١–١٢٢ وفي رسائل السندوبي ١١٧–١٥٤ وفي ريشر ١١٢–١٥٩ .
ذكر في الحيوان باسم الحجة في تثبيت النبوة ١/٥/٥ . راجع كرد علي ٤٣٨

٩٢ – الحجر والنبوة = ياقوت ٦/٧٧ .

٩٣ – الحزم والعزم = سندوبي ٥٨

٩٤ – حكاية سِرّ قَوْل العثمانية والضرارية = حيوان ١/٦/٥ .

٩٥ – حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياه = موصل ١/٢٦٥ .

٩٦ – حكاية اصناف الزيدية = ياقوت ٦/٧٦ .

٩٧ – الحلبة = سندوبي ١٦٠

٩٨ – الحلبة = سندوبي ١٣٠ .

٩٩ – الحلية = ياقوت ٦/٧٨

١٠٠ – الحنين = فهرست ٢٣/١٥٥ . ذكره على انه لغيره . ٨/٨/٨

١٠١ – الحنين الى الاوطان = منشور في القاهرة سنة ١٣٣٣ . راجع ص ٤ منها .

١٠٢ – حيل صراق الليل = بخلاء ١/٢

١٠٣ – حيل لصوص النهار = بخلاء ١/٣ .

١٠٤ – حيل اللصوص = حيوان ١/٢/١٠ وبغدادى ٨/١٦٢ . راجع ما قال البغدادى .

١٠٥ – حيل المكدين = بغدادى ١٣/١٦٢ .

١٠٦ – الحيوان = بيان ١/٦٠ ، ١٣٨ . بيان ٣/١٧٣ . مروج ٨/ ٣٤/١٠ . ياقوت ٦/٧٥
ابن خلكان ١/٣٨٨/١٢ . بغية السيوطي ص٢٦٥ . مخطوط في عاشر افندى ٥٨٤ وكذلك
في عاشر افندى ٨٧٦ . ومنشور في القاهرة ١٣٢٥ . راجع ما قاله عنه هولا بالاضافة
الى ما قال السندوبي ١٣١ وكرد علي ٤٢٣ و ٤٦٤ و بروكلمن نمرة ٢ .

١٠٧ – خلق القران = حيوان ١/٤/٢١ .

١٠٨ – الخراج = ياقوت ٦/٧٥ قال انه ملحق .

١٠٩ – خصومة الحول والعور = ياقوت ٦/٧٨ . اسماه السندوبي – القول والعور .

١١٠ – دلائل النبوة = ياقوت = ١٦/١٠١ . راجع حجج النبوة .

١١١ ــ الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير = منشور . راجع بخصوصه كرد علي ٤٢٨

١١٢ ــ الدلالة على ان الامامة فرض = ياقوت ٦/ ٧٦

١١٣ ــ ذكر ما بين الزيدية والرافضة = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١١٤ ــ ذم الكتاب = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١١٥ ــ ذم اخلاق الكتاب = داماد ٩٤٩/ ٣ والموصل ٢٦٥/ ١٣ منشور في فنكل ٤٠-٥٢
وفي ريشر ٦٧-٧٨ .

١١٦ ــ ذم الزنا = ياقوت ٦/ ٧٧

١١٧ ــ ذم العلوم ومدحها = ناتج ٣٣٩٨ و (م.ف.و.) ٥/ ٥٠١

١١٨ ــ ذم القواد = داماد ٩٤٩/ ١٠ راجع صناعات القواد .

١١٩ ــ ذم اللواط = بغدادى ١٦٢/ ٩ منشور في هامش الاول ٣١-٤٠ . وفي ريشر ١٠X الخ .

١٢٠ ــ ذم النبيذ = ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٢١ ــ ذم الوراق = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١٢٢ ــ ذم الوراقة = سندوبي ٧١ .

١٢٣ ــ ذوو العاهات = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١٢٤ ــ الرافضه = مجموعة ١٨١ . ولعله ذكر ما بين الزيدية والرافضه .

١٢٥ ــ الرجل والمراة = حيوان ١/ ١٦١ .

١٢٦ ــ الرد على اصحاب الالهام = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٢٧ ــ الرد على الجهمية في الادراك = حيوان ١/ ٥/ ٧ .

١٢٨ ــ الرد على العثمانيه = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٢٩ ــ الرد على القوليه = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١٣٠ ــ الرد على المشبهه = حيوان ١/ ٤/ ٢٢ . وياقوت ٦/ ٧٦ .

١٣١ ــ الرد على من الحد = ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٣٢ ــ الرد على من الحد في كتاب الله = سندوبي ١٣٣

١٣٣ ــ الرد على من زعم ان الانسان جزء لا يتجزا = سندوبي ٧٨ .

١٣٤ ــ الرد على النصارى = ياقوت ٦/ ٧٦ . منشور في هامش الثاني ١٤٨-٢١٩ وفي رسائل فنكل
١/ ١٩ وفي ريشر ٤٠-٦٧ . ومخطوط في البريطاني باسم رد النصارى ١١٢٩/ ٩ .

١٣٥ – الرد على اليهود – ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٣٦ – رسائل متعددة = حيوان ١/ ٣/ ٢٢ .

١٣٧ – الزرع والنخل = بيان ١/ ١٦٣ .

١٣٨ – الزرع والنخل والزيتون والاعناب = حيوان ١/ ٢/ ١٩ .

١٣٩ – سحر البيان = زيدان ٢/ ١٦٨/ ٢٥ . مخطوط في كوبرلي ٤×١٢ راجع (م٠٩٠) ٧/ ١٣٤

١٤٠ – السلطان واخلاق اهله = ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٤١ – سلوة الحريف بمفاخرة الربيع والخريف = منشور بحلب .

١٤٢ – الشارب والمشروب = ياقوت ٦/ ٧٦ . ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٢٨ . ومنشور في ثاني الكامل ٢٥١–٢٦٩ وفي رسائل السندوبي ٢٧٦–٢٨٤ . وفي ريشر ١٦٣–١٦٨ .

١٤٣ – الشكر = صبح الاعشى ١٤/ ١٧٢–١٨١ .

١٤٤ – الشعوبية = بخلاء ٣٦٧ ، ٣٧٤ . ولعلها تلميح لما جاء في البيان والتبيين الثالث .

١٤٥ – الصرحاء والهجناء = مجموعه ص ٥٤ . حيوان ١/ ٢/ ١٥ . حيوان ٣/ ١١٦/ ١٢ . ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٤٦ – صناعات القواد = الخفاجي ٦٧ . منشور في الخفاجي ٦٧–٧٢ وفي رسائل السندوبي ٢٦٠–٢٦٦ وفي ريشر ٥٢٧ وما بعدها . بخصوصه راجع لغة العرب ٢١٤/ ٥ .

١٤٧ – صناعة الكلام = منشور في هامش الثاني ٢٣٨–٢٦٥ وفي ريشر ١٥٩–١٦٣ . قال بروكلمن وتسمى ايضا في فضيلة – . وسماها المسعودى تفضيل – .

١٤٨ – صياغة الكلام = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٤٩ – الصوالجه = ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٥٠ – الطب = فهرست ٣٠٠/ ٢٤ .

١٥١ – الطبائع = يافوت ٥/ ٩/ ١٥ .

١٥٢ – طبائع الحيوان = بغدادى ١٦٢ .

١٥٣ – طبقات المغنين = زيدان ٢/ ١٦٩/ ٦ . ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٥ منشور في اول الكامل ١٢٠–١٣٠ وفي المجموعة ١٨٦–١٩٠ . وفي ريشر ٢٠٤–٢٠٦ .

١٥٤ – الطفيليين = مروج ٨/ ٣٤/ ١٠ . ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٥٥ – العالم والجاهل = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١٥٦ – العباسيه = حيوان ١/ ٦/ ١٤ . منشورة في رسائل السندوبي ٣٠٠–٣٠٣ . يقول

١٥٧ – العبر والاعتبار = ملحق البريطاني ١٨٤ .

١٥٨ – العثمانية = مروج ٦/٥٦/٠٨ منشورة في رسائل السندوبي ١/ ١٣ . راجع سندوبي ١٣٤

١٥٩ – العداوة والحسد = نشرها كراوس ٩٩–١٢٤ . وطبعت في لايدن .

١٦٠ – العرافة والزجر على مذهب الفرس = زيدان ٢/١٦٩/٢ . مطبوعة في لايدن سنة ١٢١٠

١٦١ – العرب والعجم = حيوان ١/ ٣/٣ .

١٦٢ – العرب والموالي = حيوان ١/ ٣/١ .

١٦٣ – العرجان = بيان ٣/ ٤٢ .

١٦٤ – العرجان والبرصان = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٦٥ – العرجان والبرصان والقرعان = بغية السيوطي ص٣٩٥٪

١٦٦ – العرس والعروس = سندوبي ١٢٩

١٦٧ – العشق والنساء = ملحق البريطاني ٦/١١٢٩ منشورة في المجموعة ١٦١–١٦٩ .
وفي هامش الثاني ٣٠–١٦٦ . وفي رسائل السندوبي ٢٦٦–٢٧٥ وبشر ١٨٨ –١٩٤ .

١٦٨ – عصام المريد = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٦٩ – العفو والصفح = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١٧٠ – عمروا (نيمن يسمى من الشعراء –) = ياقوت ٦/ ٧٨ . يشك بوكلمن فيما اذا كان
هو نفس كتاب محمد بن داود الجراح ص ٢٢٥ .

١٧١ – عناصر الادب = سندوبي ٩٨ .

١٧٢ – غش الصناعات = حيوان ١/ ٢/ ١٠ . ياقوت ٦/ ٧٨ . بغدادى ٩/١٦٢ .

١٧٣ – الغيرة – حيوان ١/ ٢/ ١٤ .

١٧٤ – الفتيا = ياقوت ٦/ ٧٦ . بغدادى ١٦٢

١٧٥ – الفتيان = ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٧٦ – فخر السودان والبيضان = داماد ٩٤٩/٥ . الموصل ٦/٢٦٥ . منشور في المجموعة
٨٢–١٤٧ . ومثلث فلوتن ٨٦–١٥٧ وبشر ٢١٠–٢١٢ .

١٧٧ – فخر هاشم وعبد شمس = سندوبي ١٠٢ .

١٧٨ – الفخر بين عبد شمس ومخزوم = ياقوت ٦/ ٧٦ . راجع سندوبي ١٠١ .

١٧٩ – فخر القحطانية والعدنانية = ياقوت ٦/ ٧٦ . سماها في المجموعة ص = ٨١ فخر
عدنان على قحطان .

١٨٠ – فرط جهل يعقوب بن اسحق الكندى = ياقوت ٦/ ٧٨ .

١٨١ – الفرس على الهملاج = ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٨٢ – الفرق ما بين النبي والمتنبي = حيوان ١/ ٥/ ٨ . سماها ياقوت النبي والمتنبي ٦/ ٧٦ .

١٨٣ – الفرق في اللغة = قروان فاس ١٢٦١ . مجلة المعارف ١٤/ ٥٢ .

١٨٤ – الفرق ما بين الجن والانس = حيوان ١/ ٣/ ١٨ .

١٨٥ – الفرق ما بين الحيل والمخارق = حيوان ١/ ٥/ ٥ .

١٨٦ – الفرق ما بين الذكور والاناث = حيوان ١/ ٢/ ١٥ .

١٨٧ – الفرق ما بين الملائكة والجن = حيوان ١/ ٣/ ١٨ .

١٨٨ – فضل اتخاذ الكتاب = سندوبي ١٠٧ .

١٨٩ – الفضل ما بين العداوة والحسد = موصل ٢٦٥/ ٨ . ولعلها العداوة والحسد .

١٩٠ – فضل الفرس = ياقوت ٦/ ٧٧ .

١٩١ – فضل الفرس على الهملاج = سندوبي ١١٠ .

١٩٢ – فضل العلم – ياقوت ٦/ ٧٦ .

١٩٣ – فضل الموالي على العرب = عقد ج ثاني [٢] / ٧٤/ ٢٥ . وبغدادى ١٦٢/ ٢ .

١٩٤ – فضل هاشم على عبد شمس = منشور في رسائل السندوبي . ٦٧–١١٦ .

١٩٥ – فضيلة المعتزلة = ياقوت ٦/ ٧٦ . قال السندوبي وهو الذى رد عليه ابن الراوندى بكتاب فضيحة المعتزلة ص ١١٩ .وقد ذكره ايضا الخياط في الانتصار ١٦٤/ ٦ .

١٩٦ – فضيلة الكلام = فهرست ٣٠٠/ ٢٤ . ناقضه الرازي ابراهيم [illegible]

١٩٧ – فضيلة صناعة الكلام = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٢٣ .

١٩٨ – فنون شتى مستحسنة = داماد زادى ٨٥/ ١٢٥ .

١٩٩ – القحاب والكلاب واللاطه = بغدادى ١٦٢/ ١٢ .

٢٠٠ – القحطانية والعدنانية في الرد على القحطانية = حيوان ١/ ٢/ ٢٣ وبغدادى ١٦٢/ ١ .

٢٠١ – القضاة والولاة = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٠٢ – القلم ياقوت ٦/ ٧٧ .

٢٠٣ – القواد = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٠٤ – القواد واسباب الصناعات = سندوبي ١٣٩ .

٢٠٥ – القول في البغال ومنافعها = داماد ابراهيم ٩٤٩/ ١٦ . والموصل ٢٦٥/ ١٤ .

٢٠٦ ـ القيان = داماد ابراهيم ٩٤٩/١٤ منشورة في رسائل فنكل ٥٣-٧٥ . وريشر ٧٨-١٠٠

٢٠٧ ـ الكبر المستحسن والمستقبح = سندوبي ١١٩ .

٢٠٨ ـ كتمان السر = ياقوت = ٦/ ٧٧ .

٢٠٩ ـ كتمان السر وحفظ اللسان = داماد ٩٤٩/٣ والموصل ٢٦٥/٤ . مفشورة في كراوس

٢١٠ ـ الكرم = ياقوت ٦/ ٧٨ . راجع لغة العرب جلبي ٨ سنة ١٩٣٠ . وبروكلمن ٤٣ .

٢١١ ـ الكيميا = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢١٢ـ اللاشي والمتناشي = سندوبي ١٤٩ .

٢١٣ ـ اللصوص = ياقوت ٦/ ٧٦ . بلدانه ٤/ ٢٣١/ ٢١ . وبغدادى ١٦٢ .

٢١٤ ـ مئة امثال علي = برلين ٨٨٥٦/٧ . ثم برلين ٨٢٥٧ /٧ يقول بروكلمن انه طبع في صيدا سنة ١٣٤١ . وانه املاه في اواخر ايامه لتلميذه احمد بن زاهر . وان محمد بن عبد الرشيد نقله للفارسية .

٢١٥ ـ ما بين الرجال والنساء = حيوان ١/ ٢/ ٢٠ .

٢١٦ ـ ما بين الخؤوله والعمومه = حيوان ١/ ٢/ ١٩ .

٢١٧ ـ المحاسن والاضداد = منشور في مصر واوربا .

٢١٨ ـ المخاطبات في التوحيد = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢١٩ ـ المختار من كلام ابي عثمان = برلين ٥٠٣٢ .

٢٢٠ ـ مدح التجارة وذم اعمال السلطان = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٢٤ . منشور في هامش الثاني ٢٤٦-٢٥٠ . وفي المجموعة ١٥٥-١٦١ . وفي ريشر ١٨٦-١٨٨ .

٢٢١ ـ مدح الكتاب = ياقوت ٦/ ٧٨ . اشك في التهجئة

٢٢٢ ـ مدح الكتب والحض على جمعها = عاشر افندى ١٤٤/٥ /٧ راجع المجلة الاسيوية الالمانية ج ٦٨ص٣٨٩ ثم راجع صفحة ١٤٤ من بروكلمن نمرة ٧ .

٢٢٣ ـ مدح النبيذ = ياقوت ٦/ ٧٧ .

٢٢٤ ـ مدح النبيذ وصفة اصحابه = بريطاني ١١٢٩/ ٤ . قال بروكلمان انها رسالة الى الحسن بن وهب وانها منشورة في اول الكامل ٩٧-١٢٠ وفي رسائل السندوبي ٢٨٥-٢٩١ . وفي ريشر ١١١ وما بعدها .

٢٢٥ ـ مدح الوراق = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٢٦ ـ المزاح والجد = ياقوت ٦/ ٧٧ .

٢٢٧ ــ المسائل (كتاب) = بخلاء ٦/١٠ . وحيوان ١/٥/١ .

٢٢٨ ــ المسائل في القران = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٢٩ ــ مسائل القران = فهرست ٣٨/ ١٤ .

٢٣٠ ــ مسائل العثمانية = مروج ٦/ ٥٧/ ٦ .

٢٣١ ــ مسائل المعرفة = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٣٢ ــ مسائل وجوابات في المعرفة = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١١ .

٢٣٣ ــ المضاحك بغدادى ١٥٨/ ١٥ .

٢٣٤ ــ المعاد والمعاش = ياقوت ٦/ ٧٧ . مخطوط في ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٢ وفي داماد ٩٤٩/ ٤ . وفي الموصل ٢٦٥/ ٥ . نشرها بول كراوس في مجموعته .

٢٣٥ ــ المعادن وباقي جواهر الارض = حيوان ١/ ٣/ ١٤ .

٢٣٦ ــ معارضة الزيدية = حيوان ١/ ٥/ ٢ .

٢٣٧ ــ المعارف = بغدادى ١٣٣/ ٩ .

٢٣٨ ــ المعرفة = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٣٩ ــ المعلمين = ياقوت ٦/ ٧٦ . ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٢ . منشورة في هامش الاول ١٧-٣٢ . وريشر ١٠١-١٠٧ بحث عنه الاستاذ هرنسفيلد في الدراسات الشرقية لذكرى براون . ص ٢٠٠ وما بعدها ومنها مخطوطة اخرى في الموصل ٢٦٥/ ١٢ .

٢٤٠ ــ المغنين = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٤١ ــ المغنين والغناء والصنعة = ياقوت ٦/ ٧٢ .

٢٤٢ ــ مفاخرة الجوارى = داماد ٩٤٩/ ١٣ .

٢٤٣ ــ مفاخرة الغلمان والجوارى = موصل ٢٦٥/ ١١

٢٤٤ ــ مفاخرة السودان والحمران = حيوان ١/ ٢/ ١٨ .

٢٤٥ ــ مفاخرة السودان والبيضان = ياقوت ٦/ ٧٧ .

٢٤٦ ــ مفاخرة القحطانية على الكنانية وسائر العدنانية = بغدادى ١٦٢ . في المجموعة سماها الجاحظ نفسه مفاخر القحطانية . ص ٨١ .

٢٤٧ ــ مفاخرة المسك والرماد = سندوبي ١٤١ .

٢٤٨ ــ مقالة الزيدية والرافضة = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٢٣ . منشورة في هامش الثاني ٢٩١-٣٠١ .

٢٤٩ – مقالة العثمانية = ابن قتيبه ٧ وما بعدها . مخطوط في الملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٠ وفي كوبارلي زاده ٨١٥ . لخصها السندوبي في رسائله ١–١٢ . ورد عليها ابو جعفر الاسكافي راجع المجلة الاسيوية الالمانية ٦٨/ ٣٩١ وراجع ايضا مجلة اسلاميكه ١٨/ ٣٦ . قال بروكلمن – سميت كذلك لانه دافع فيها عن موقف العثمانيين في الامامة

٢٥٠ – المكاتبه (رسالة الى ابراهيم بن المدبر–) = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٥١ – المكايد = زيدان ٢/ ١٦٨/ ٢٣ .

٢٥٢ – الملح والطرف = حيوان ١/ ١١٧/٢ .

٢٥٣ – الملوك والامم السالفة والباقية = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٥٤ – من ابى وجوب الامامة = حيوان ١/ ٦/ ١٤ .

٢٥٥ – مناقب جند الخلافة = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٥٦ – مناقب الترك وعامة جند الخلافة = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٧ داماد ٩٤٩/ ٧ باريس ٦٠١٨ موصل ٢٦٤/ ٢٠. منشورة في فلوتن ١–٥٦ . وفي المجموعة ٢–٥٤ وفي هامش الثاني ١٦٦–٢٧٥ . وفي ريشر ٢٠٧–٢١٠ .

٢٥٧ – الموالي = العقد الفريد ٣/ ٢٦٩/ ١ .

٢٥٨ – الموالي والعرب = العقد الفريد ٢/ ٩٢/ ٨.

٢٥٩ – موت ابي حرب الصفار البصرى = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٦٠ – المودة والخلطة = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٩ . ومنشورة في رسائل السندوبي ٣٠٣–١٠

٢٦١ – الميراث = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٦٢ – النابتة = كرد ٣٦٠ مخطوطة في داماد ٩٤٩/ ١١ . طبعها فولتن . ومن اجلها راجع هوتسمن في (ز . ا .) ج ٢٦ ص ١٨٦ وراجع مقال رتر في مجلة اسلاميكا مج ١٨ ص ٣٦ . وراجع كذلك داود جلبي في لغة العرب ج ٨ سنة ١٩/٣٠ . وراجع كذلك فولتن في مجموعة المؤتمر الحادى عشر للمستشرقين الدولي في القسم الثالث ص ١٥٥ .

٢٦٣ – الناشي والمتلاشي = ياقوت ٦/ ٧٧ .

٢٦٤ – النبل والتنبل = وذم الكبر = ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٨ . منشورة في هامش الثاني بين ١٨٤–١٩٩ .

٢٦٥ – النبي والمتنبي = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٦٦ – النبيذ = كرد علي ٣٨٠ .

٢٦٧ - النرد والشطرنج = ياقوت ٦/ ٧٨ .

٢٦٨ - النساء = ياقوت ٦/ ٧٥ . ملحق البريطاني ١١٢٩/ ٥ .

٢٦٩ - النصراني واليهودي = حيوان ١/ ٥/ ٣ .

٢٧٠ - نظم القران = ياقوت ٦/ ٧٦ . فهرست ٣٨/ ١ .

٢٧١ - النعل = سندوبي ١٥٢ .

٢٧٢ - نفي التسبيح = داماد ٩٤٩ راجع (م.ف.و.) ج ٥ ص ٥٢٩ مخطوطة اخرى موصل ٢٦٥/ ٢

٢٧٣ - نفي التشبيه = موصل ٢٦٥/ ٦ .

٢٧٤ - نقض الطب = فهرست ٣٠٠/ ٢٤ . ابن القفطي ٢٧٤/ ١٨ ابن ابي اصيبعه ٢/ ٢٢/ ١
قال ابن القفطي ان الرازي نقضه وان الاصفهاني فعل مثل فعله .

٢٧٥ - نوادر الحسن = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٧٦ - نوادر المعلمين = مستطرف الابشيهي ٢/ ٢٢٦/ ٣٣ .

٢٧٧ - النواميس بغدادي ١٦٢/ ١٠ .

٢٧٨ - الهاشميات (رسائل-) = حيوان ١/ ٤/ ١ .

٢٧٩ - الهدايا = ياقوت ٦/ ٧٧ . قال انه منحول .

٢٨٠ - وجوب الامامة = ياقوت ٦/ ٧٦ .

٢٨١ - وصف النبيذ وصفة اصحابه = سندوبي ١٥٠.

٢٨٢ - وصف العوام = الخفاجي ١٧٥ . منشورة في ريشر ٥٥٠ وما بعدها .

٢٨٣ - الوكلاء والمتوكلين = ياقوت ٦/ ٧٦ . ملحق البريطاني ١١٢٩/ ١٤ . منشورة في هامش
الثاني ٢٢٠-٢٢٧ وفي المجموعة ١٧٠-١٧٣ . وفي ريشر ١٩٤-١٩٩ .

٢٨٤ - الوعد والوعيد = حيوان ١/ ٥/ ٢ . سماه ياقوت الوعيد فقط ٦/ ٧٦ .

٢٨٥ - اليتيمه = السندوبي نقلا عن طراز الخفاجي ص ١٥٩ .

ـ المقالة الثانية ـ تحقيق في تعداد كتبه ـ

x-x-x-x-x-x

لقد اختلف المهتمون بالأمر اختلافاً بيّناً في العدد الصحيح الذى خلفه الجاحظ من الكتب والرسائل . فابن سبط الجوزى في القرن السابع للهجرة قال = رأيت كتب الجاحظ على مرأى من ابي حنيفة النعمان وكان عددها يتجاوز الثلاثمائة . ثم تتالت الروايات على إثر هذه كل منها يؤيد مقدار تحقيق صاحبه . فكرد علي قال = ترك الجاحظ ٣٦٠ كتابا ، وأحمد زكي قال بل ترك ٣٥٠ ، وتنازل الاستاذ النشاشيبي الى ٣٥٠ ، في حين قر قرار بروكلمان على ١٧٤ . أما السندوبي فلم تتسع ذمته العلمية لاكثر من ١٥٩ . ـ أما نحن فلنا في الموضوع عدد آخر يختلف عن هؤلاء تمام الاختلاف سنراه عما قريب . وهكذا تختلف الأعداد بالاختلاف اصحابها ومقدار بُعدهم أو قُربهم من التحقيق العلمي الصحيح .

ونعتقد ان السبب في كل هذا الاختلاف راجع الى اربع ظواهر ـ الاولى كتابةَ باسم غيره ، الثانية تسمية عدة كتب من كتبه باسماء مختلفة ، الثالثة كتابة غيره باسمه ، الرابعة ضياع عدد آخر من كتبه .

———======———

ـ اولا الكتب التي كتبها باسم غيره ـ

———x-x-x-x-x-x———

هذه الظاهرة ـ نعني استفادةَ ناشئي وصِغار الكُتابِ من اسماء من سبقوهم الى عالَمَ الشهرة ودنيا المجد ـ كانت فاشية في صفوف ادباء العباسيين على العموم[1] . وقد عَمِلَتْ كثيرا أيامَ النزاع بين العروبيين والشعوبيين . ولا تزال مُتَّبَعَةً فعّالةً حتى يومنا هذا . وآخر ما اذكر عنها ما قرأته مؤخّرا في المكشوف من ان كاتبين شهيرين من كُتاب العصر الحاضر لم يشتهرا الا باسمين قديمين .

على كل استغل الجاحظ ـ وخصوصا في مطلع حياته الادبية ـ هذه الظاهرة وراح يؤلف الكتب في شتى الاغراض وينحلها امثالَ ابن المقفع وسهلَ بن هرون والخليل بن احمد وغيرهم . وقد اشار الى هذا هو بنفسه في

... فاترجح باسم غيره ... بشواهد المقنع ... (١) كالو...

الحيوان حيث قال = وايد ذات الرواية المسعودي في تنبيه الاشراف حيث نقلها معلقا عليها بالايجاب .

اما ما هي تلك الكتب التي كتبها باسم غيره ، والتي لا بد وان تكون قد سقطت من القوائم التي جُمِعتْ باسماء كتبه ، والتي يجب على الباحث المدقق ان يعرفها ويضيفها الى تلك القوائم تقربا من الحق ـ فمن الصعب جدا معرفتها . والسبب في ذلك أن الكتب التي خلّفها هؤلاء الناس اولا قليلة وثانيا معروفة وثالثا لا سبيل للشك في صحتها . ولهذا نعود فنقول تفسيرا وتوضيحا لما قال الجاحظ = ان تلك الكتب المنسوبة الى غيره مما اشار اليه لا بد وان تكون قد ضاعت مع الكثير غيرها مما قد ضاع .

ـ ثانيا ـ الكتب المفردة ذات الاسماء المتعددة ـ

x-x-x-x-x-x-x

وهذه ظاهرة ثانية عملت عَمَلَها في تشويش الافكار واضطراب الارقام التي أُوردتْ حصراً لكتب الجاحظ . وهي ظاهرة كانت معروفة في عصره ومُتَّبَعة فيما بعده أيضا . ولعل للسهو تارة وحب الاختصار اخرى او تسمية الكتب باهم موضوع فيها (وهذا الموضوع يختلف طبعا حسب راى القارىء) بالاضافة الى عوامل التصحيف والتحريف وتبديل اماكن الكلمات واستعمال حرف بدل حرف او كلمة بدل كلمة او زيادة كلمة او تنقيص كلمة او الاهتمام بمعنى العنوان دون التقيد بنصه او غيرها كثير دخلاً في الموضوع كما سنرى . ويهمنا هنا تصفيةُ حساب هذه التشويشات ومعرفة اسماء الكتب كما هي أو على الاقل كما يجب ان تكون . لنكون على بينة من حقيقة الامر .

ولكن يحسن بنا قبل البدء ـ أن نشير الى أنَّ هذه الظاهرة لم تلعب في كتب الجاحظ وحدها وانما لعبت في غيرها كثير . ويكفي ان نورد مثلين فقط اولهما كتاب ياقوت = فقد ورد باسم "إرشاد الاديب" لمعرفة الاديب" . وورد ايضا باسم "معجم الادباء" وورد ايضا باسم "طبقات الادباء" وكذلك باسم "معجم ياقوت" .

وبما ان ياقوت لم يترك كتاب واحد بخصوص الادباء – لذا لزم ان نتغاضى عن كل هذه التسميات المختلفة ، ونأخذ بالجوهر الاصيل فنقول ان لياقوت كتابا واحدا فقط موضوعه كذا وكذا. وثانيهما القرآن الذى لم يسلم من هذه التغييرات الطارئة. فالقرآن يعرف اولا "بالقرآن" وثانيا "بالفرقان" وثالثا "بالمصحف" ورابعا "بالكتاب الكريم". وبغيرها كثير يعرفه "مشايخ الازهر" اكثر من معرفتي .

نعود الان لنرى ما هي الكتب المفردة التي عُرفت باسماء متعددة لنبحث اولا في ما هية الاسم المفرد. وثانيا لماذا لا نقبل غيره. وأخيرا نجمع ونطرح لنقف على الصافي بخصوص هذه المشكلة .

عقد/ ٣٠/ ٢٥/ سندوبي × × زيدان ,كوپرلي – برلين

١ – الادب ، عناصر الادب ، البيان والتبيين ، سحر البيان ، المختار من كلام ابي عثمان الجاحظ

من هذا العرض السريع لهذه الاسماء نستنتج: اولا. أن المادة التي يدور عليها الجميع هي الادب

ثانيا – أن بعضها ذُكر ذِكْراً وليس له مخطوطات في حين أن الثانية لها مخطوطات وليس لها ذكر.

وأخيرا أن هناك واحدا له ذكر وله مخطوطات وهو معروف مشهور ويمكن ان يحويها جميعا. لذا نميل إلى أن نقول بان هذه جميعها اسماء متفرعة عن "البيان والتبيين" الذى مداره الادب وما اليه . "

"اما عناصر الادب" فلم يرد له ذكر الا عند السندوبي . والسندوبي طبعا لا يمكن اعتماده ما دام محدثا وما دام لم يذكر مصادر لهذه التسمية .

في حين ان " المختار " له مخطوطة في برلين ولكنه لم يُذكر في المصادر . واخيرا لم يُعَوِّدنا الجاحظ أن يجمع مجموعات من كلامه وينشرها في كتاب خاص . ولهذا نقول إننا نشك في أصالة المخطوطة ونميل الى انها من وضع المتأخرين .

واخيرا نُنهي بقولنا إن كل هذه الاسماء ما هي الا اسماء لواحد موضوعه "الادب". وبما ان " البيان " فيه كل محتوياتها – لذا نقول انها اسماء متعددة للبيان والتبيين .

ملحق ومطبوع مرتين — ياقوت — حيوان — ياقوت — ملحق.

٢ — استحقاق الامامة — وجوب الامامة — مَن أبىٰ وجوب الامامة — الدلالة على ان الامامة فرض — جوابات في الامامة

نظرة بسيطة الى هذه الاسماء ترينا =

اولا — أن الرجل ألَّف في الامامة .

ثانيا — ان تأليفه فيها اتخذ صيغة المجادلة . نبرهن اولا على انها حقة وفند — ثانيا اراء من انكروها . واخيرا أجاب على اسئلة لا بد وان تكون قد وردت عليه بخصوصها .

من هذا نرى أن الاول والثاني والثالث والرابع لا بد وان تكون مسميات لكتاب واحد هو هذا الذى بقيت مخطوطته في المتحف البريطاني . اما لماذا . فاولا لما مر وثانيا لأن الجاحظ نفسه ذكر واحدا منها في حين عدّد ياقوت اثنين . وياقوت ليس بالذى نؤمن به على العمى لانه غلط في هذا كما سنرى .

في حين ان الرابع لم يرد له ذِكر . إنما بقيت منه المخطوطة . واخيرا لان رسالة "الامامة" نشرت مرتين في هامش الثاني من الكامل بين ٢١٢ — ٢٢٠ و٢٦٩ — ٢٩١ وقارئهما لا يستطيع الا ان يقول إنهما كتاب واحد .

بقي الأخير اى "الجوابات" وامره مشكوك فيه . فنحن اذا اخذنا بعين الاعتبار طريقة الجاحظ في التاليف وخصوصا فيما يتعلق بالدين حيث يستخدم " الكلام " كثيرا — فيورد اقوال اعدائه واسئلتهم اولا ثم يحاول ان يرد عليهم ثانيا ثم يسألهم ليعجزهم ثالثا كما كان امره في الرد على النصارى وفي الشارب والمشروب — لم نجد بُدّا من ان نقول ان الكتاب الاخير ليس اكثر من صدر لهذا الكتاب الواحد في الامامة . اما اذا تغاضينا عن الواقع المعروف ، فالامر مشكوك فيه وجَعْلَه كتابا مفردا ارجح .

وعلى هذا تكون النتيجة عندنا ان هذه الكتب اسماء لكتاب واحد يبحث "في الامامة" .

ياقوت ـــ تاج ـــ ياقوت ـــ كرد ـــ ـــ موصل

٣ ـ الفتيان ، اخلاق الفتيان ، اخلاق الشطار ، تهذيب الاخلاق . الاخلاق المحمودة والمذمومة

هذه مجموعة اخرى . اذا نظرنا على مجموعها وجدنا اولا ـ ان موضوعها "الاخلاق" سلبا وايجابا . ثانيا ـ ان واحدا منها بقيت مخطوطة في الموصل ، واخيرا ان واحدا منها نعني اخلاق "الفتيان" ذكره التاج (والتاج بذاته لم تثبت اصالته) . وأن شيئا اخر نعني "تهذيب الاخلاق" لم يذكره الا كرد علي (وكرد مع قيمته العلمية الا ان انعدام المصادر الاصلية والاغلاط الاخرى التي وقع فيها في بحوثه عن الجاحظ لا تحملنا على الاطمئنان الى اقراره على نسبة هذا الكتاب) . بقي الاول والثالث . اما الأول ففي "الفتيان" واما الثاني ففي "الشطار" وما اظن الكاتب قصد منهما شيئاً مختلفاً قط ، خصوصا وهو يكتب عن اخلاقهم المحمودة والمذمومة .

وعلى هذا تكون النتيجة ان الجميع اسماء لمسمى واحد نميل الى القول بانه " الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة " لانه ادلّ على المعنى المقصود من المادة لا لاننا نعتمد على مصدر علمي موثوق به .

فهرس العقد ، ياقوت ـ ٧٧/٦ ياقوت ٧٦/٦ زيدان ـــ سندوبي ١٥٢ ياقوت٧٧/٦

٤ـ التاج ـ جمهرة الملوك ـ اخلاق الملوك ـ تنبيه الملوك ـ تنبيه الملوك والمكايد . المكايد . السلطان واخلاق اهله

وفي هذه الجمهرة ماذا نرى .. نرى اولا ـ انها تدور حول السلطان واخلاقه . اى هي من نوع الادب "البلاطي" . فهل نشك في صحتها كلها ونقذف بجمهرتها عرض الحائط . كلا . فهذا غير صحيح لان الجاحظ عاش مع السلطان وكان مقربا من الخلفاء مثل المأمون والمعتصم ـ واعوانهم مثل الزيات وابن ابي داود . لذا فباستطاعته ان يكتب عنهم وان ينصح لهم . ورسالة المعاد والمعاش لاحمد ابن ابي دؤاد التي لا يتطرق شك الى صحتها دليل قوى على ما نقول . ولهذا نقبل ان يكون قد كتب في السلطان مبدئيا . لكن بكل حيطة وحذر . لانه لم يعيش معهم طويلا ولا قَرُب من الخلفاء كثيرا ولم يسمع ببني ساسان الا من بعيد .

اما التاج فاننا نرفضه رفضا باتا كما سيجيء عند الكلام على الكتب المنسوبة ، هذا بالاضافة الى ان واحدا من المصادر القديمة لم يذكره انما كان اول ذكر له بقلم "شفيع" مفهرس العقد الفريد الذي اشار الى صحة نسبته . ونحن مع احترامنا للسيد شفيع نقول ان قبول هذه النسبة من الصعب ما لم تدعمها المصادر الاصلية او على الاقل البراهين الجلية .

والان ننتقل للثالث والرابع والخامس والسادس لنقول اننا لا نرى فيها اكثر من اسماء مختلفة لمسمى واحد حول الملوك . تارة اختصر فيها وتارة اقتطع منها وثالثة جمعت كاملة . هذا بالاضافة الى شكنا في اصالتها لان الاول كما نرى مصدره زيدان والثاني السندوبي والثالث زيدان من المحدثين. ولا مخطوطات. بعد هذا ننتقل للثاني من السلسلة فنشتم من تسميته انه في التاريخ الا اذا كان الاسم مضللا وهو في الحق مكتوب في الاخلاق . اما الاخير من السلسلة فهو الصريح اذ يجمع بين الخُلق والتاريخ . ولهذا نقول ان الاحسن ان نطلق الاخير عليها جميعا اولا لدلالة اسمه على موضوعاتها وثانياً لانه يتسع الموضوع الثاني اذا كان تاريخيا . وعلى كل فنحن لا نرى في هذه المجموعة اكثر من كتاب واحد "في اخلاق السلطان" ان لم يكن كتابين ثانيهما "في تاريخه" .

مروج ياقوت	حيوان ياقوت	مدائني

ه ـ البخلاء . احتجاج البخلاء . فرط جهل الكندى . واطعمة العرب .

بغض النظر عن المصادر وعن وحدة دلالة التسمية خصوصا بين الاول والثاني نقول دون اى شك ان هذه كلها اسماء لكتاب واحد لا ثاني له هو كتاب البخلاء المعروف . اما الثاني نعني " احتجاج البخلاء " فليس اكثر من تسمية الكتاب بعنصر بارز فيه وهو دفاع البخلاء عن مذهبهم مما اشار اليه الجاحظ نفسه في اول الكتاب . في حين ان الثاني ليس اكثر من فصل خاص منه يدور على بخل الكندى ومدون بين صفحتي — من طبعة دمشق . اما الاخير فهو الفصل الاخير في اطعمة العرب الذى راى الجاحظ ان من الضرورى اضافته

تتمة للبحث وهو يقع بين صفحتي — من ذات الطبعة .

وعلى هذا نجد ان ذات الكتاب سُبِقَ تارة بعنصر بارز فيه هو احتجاج البخلاء وتارة باحد فصوله مثل جهل الكندى واخيرا بفصل مضاف مثل اطعمة العرب . فالي مثل هذه التشويشات يجب ان ننتبه دائما عند حل مشاكل تسمية كتب الرجل .

	ياقوت	ملحق	سندوبي	مسعودى
٦ -	البلدان —	الاوطان والبلدان —	الامصار —	الامصار وعجائب البلدان .

لا شك في الامر ان الجاحظ كَتَبَ كتابا في الجغرافيا جعل تركيزه فيه على عدد مِن البلدان . قال بروكلمان ان قسما منه ضاع ولم يبق لنا منه الا ما في المخطوطة التي في المتحف البريطاني مما يدور حول الكوفة والطائف وبضعة مدن اخرى . كل هذا لا شك فيه . لكن ما اسم ذاك الكتاب من بين هاته . اما " الامصار " فاني لا اقبله لانه من محدث لم يؤيد بأصل . واما ما جاء به المسعوديِ فما اظنه اكثر من حكاية شيء عن محتوياته العجيبة التي لا يمكن للجاحظ ان يتركها . في حين ان اضافة "الاوطان" لمُسَوِّق المخطوطة لم يَعْدُ تاثُراً من كتابه الاخر في "الحنين" اى انها تسمية محدثة . وبعد هذا يبقى عندنا الاول الذى ذكره ياقوت اى البلدان . نحن لا نشك في ان الجميع اسماء لكتاب واحد . لكن ايها هو الاسم الصحيح . في هذا الشك . لكننا بعد الشك نرجح انه الاول فقط .

	حيوان	ياقوت	سندوبي
٧ -	الاخبار .	الاخبار وكيف تصح .	تصحيح الاخبار .

في هاته نقول اولا اننا لا نقبل الاخير لانه من وضع السندوبي . وثانيا نضيف ان بروكلمان قال "ولعل هذه كلها اسماء لمسمى واحد" وبروكلمان وان كان لم يعط اسبابا الا ان دلائل التسمية كلها بجانبه .

هذا بالاضافة الى ان ما نقل من الكتاب في هامش الكامل الثاني وردت فيه كثيرا كلمات - الاخبار ، الاخبار وكيف تصح ، ثم تصحيح الاخبار متبادلة في اماكنها ودلالاتها. ولهذا نقول إنها كلها عناوين لواحد هو "الاخبار" مثلا .

بغدادي بيان

٨ - أ - الحيوان . طبائع الحيوان . الجوارح

اما الاول فمعروف انه له . في حين ان الشبهة تدور حول الثاني . اولا لان الذي اورده كان البغدادي الذي حاول ان ينتقص من الجاحظ بايراده اسماء كثيرة لكتبه في موقف التنقص منها ، وكان هذا احدهما وثانيا ان هذا معروف بكونه نزعة حاول الجاحظ ان يوضحها في كتابه الحيوان لانه كتاب كامل . وعلى هذا تكون النتيجة أن كتاب "طبائع الحيوان" صفة بارزة لكتاب الحيوان وليس كتابا بعينه. وليس هذا بجديد فقد راينا كيف سمى البخلاء باحتجاج البخلاء لبروز هذه الظاهرة فيه .

والان ننتقل للجوارح . هذا الكتاب ذكره الجاحظ بنفسه في البيان وقال انه موجود في كتاب الحيوان . وعلى هذا تكون الجوارح قسم من الحيوان لا كتابا قائما بذاته .

- داماد ياقوت سندوبي .

ب . القول في البغال ومنافعها . البغل . النعل .

اما الاخير فلا نقر بالعلان الوحيد الذي اورده كان السندوبي. ولا نرى فيه اكثر من تصحيف للبغل . في حين ان الذي قبله اى البغل قال عنه ياقوت انه ملحق للحيوان وليس كتابا قائما ~~بذاته~~ بنفسه . واما الاول فامره بعد هذا واضح . اى اولا انه ليس مستقلا وانما ملحق

حُوولَ في تسميته التبسط في الدلالة على مادته . ونرجو ان يُلاحَظَ أن التسمية مُحْدَثة لان احدا لم يذكره بهذا الاسم انما أُخِذ ذلك من مخطوطته.
والنتيجة تكون ان الكل اسماء لكتاب واحد بقيت مخطوطة لنا منه . وان هذا الكتاب ملحق بكتاب الحيوان .

ياقوت ـ ملحق	ملحق ـــ	حيوان	كرد
ج ـ النساء .	العشق والنساء .	ما بين الرجال والنساء .	فضل ما بين الذكور والاناث

نبدأ بالاخير لنفرغ من حسابه لاسباب صارت معروفة وننتقل لما قبله . فنقول ان الجاحظ في البيان قال عند الكلام عن اشياء اخرى ـ هذا موجود في كتاب ما بين الرجال والنساء من الحيوان . وعلى هذا فهو من الحيوان . اما الاول اى النساء فمادته المنشورة تشير الى انه مقطعات مما ذكر عن النساء في الحيوان من حيث غرامهن وعشقهن وخفة عقولهن ولهذا لا نتوانى في ضمه للحيوان . بقي الثاني الذى نشر في المجموعة . ونشر في هامش الكامل الثاني ايضا . ومادته تدل اولا انه فصول مقطعة تارة في العشق ومراتبه واخرى في النساء وحبهن وثالثة في المفاضلة بينهن وبين الرجال . وعلى هذا فهو لم يخرج عن فصول من الاول والثالث جُمعت دون ترتيب . وعلى هذا ايضا لا نستطيع الا ان نقول انها كلها واحد وان هذا الواحد هو قسم من الحيوان لم يجد به عند النشر.

سندوبي	ياقوت	عاشر	~~ياقوت~~	ياقوت
د ـ فضل اتخاذ الكتاب .	مدح الكتاب .	مدح الكتاب والحض علي جمعها .		القلم .

هنا اشياء طريفة غامضة نحب ان نجلوها . أما ان الجاحظ كَتَبَ يمدح الكِتاب والكُتب فمما لا شك فيه . فهو فصل طويل استغرق صفحات كثيرة من الحيوان الاول . لكن الذى نشك فيه اولا ان تكون هناك كتب كثيرة في ذلك وثانيا ان تغاير هذه الكتب في مادتها ما جاء في الحيوان . فلننظر لنرى .

اما الاول فنهمله لانه من صنع السندوبي غير المؤيد. أما الثالث فلسوء الحظ لم نعرف كيف يَنْطِق. فان كان الكِتَاب فهو ذاته نصلُ الحيوان. وان كان الكُتَّاب فهو إما معارضة لكتابه الاخر في ذم اخلاق الكُتّاب أو كتابٌ * جديد عن الكتاتيب. الا ان بروكلمان ولا نعرف كيف - هجاه - "كُتَّاب". ولهذا تبقى الشبهة حوله. ننتقل للثالث الذى لم يخرج في مادته عن الموضوع بالرغم من انه لسوء الحظ لم يطبع بعد. لكننا سالنا شتراوس فقال إنه هو ذاته الفصل الذى اورده الجاحظ في الحيوان وبهذا اطمأن البال. اما الاخير فمما لا شك فيه انه الذى تكلم عنه الجاحظ في الحيوان.

ومن هذا نرى اننا لثالث مرة امام مشكلة تسمية كتاب واحد باحد فصوله سواء كانت مُهمة او غير مُهمة. وعلى كل نَخْلُصُ من هذا البحث بالنتيجة التالية وهي = ان هذه الكتب جميعها اسماء لفصل واحد من كتاب الحيوان الذى يدور حول الكتب ومدح الكتّاب. الا اذا تبعنا تهجئةُ الثاني بشكل الكُتّاب جمعا لكاتب. فان المجموعة تنجلي عن كتابين لا واحد.

ومن هذا البحث الطويل نجد او بالاحرى نستنتج ان جميع ما مر ليس اكثر من تسميات متعددة لكتاب واحد هو الحيوان. تارة بظاهرة هي فيه وتارة بفصل، وتارة بتغيير نقطه، واخرى بتغيير في اسم ذاك الفصل. هذا ما توصلنا اليه وتحسب ان تلخصه في [ان ذات الكتاب (الحيوان) ورد على انه ١٥ كتابا] وهذا يسترعي الانتباه ويتطلب الدقة المتزايدة في في البحث

ياقوت كرد ياقوت بريطاني كرد ياقوت
وصفة اصحابه

٩ - إثم السُكْر، النبيذ، ذم النبيذ، مدح النبيذ / وصف النبيذ وصفة اصحابه، واخيرا الشارب والمشروب

لسوء الحظ لم يصل الينا من كل هاته الا قطعة نشرت في هامش

٧٢

الكامل الثاني بعنوان = الشارب والمشروب واليك موادها = اولا فتعرض الى اثم السكر فقال ان الله حرم اشياء كثيرة مسكرة . ثم يقول لكن الله جعل لكل تحريم استثناء واستثناء السكر كان بالنبيذ . ثم اخذ في مدحه ذاته ثم في وصف انواعه واخيرا اخذ يتكلم عن صفة اصحابه من حيث اثره الجميل فيهم اذا قلّ واثره القبيح اذا كثر .

ومن هذا نرى اولا ان الرابع والسادس اى ذا المخطوطة وذا العنوان كتاب واحد . ثم نرى بعد اسقاط الاسم الذى اتانا به كرد ان جميع مدلولات الاسماء الاخرى محتواة فيما نشر تحت اسم الشارب والمشروب . وعلى هذا تكون جميع هاته اسماء لكتاب واحد نميل الى تسميته بالشارب والمشروب لانه أعم . اذ تكلم الكاتب فيما وصل الينا عن صفة الشاربين وعن جميع انواع المشروبات لا عن النبيذ وحده ..

	ياقوت	بغية السيوطي	ياقوت ~~البيان~~	البيان
١٠ـ	ذوو العاهات .	العرجان والبرصان والقرعان .	العرجان والبرصان .	والعرجان

مما لا شك فيه ان الرابع اختصار من الثالث . وان الثالث اختصار من الثاني وان الاول اسم للكل قُصِد منه الدلالة على محتويات الكتاب . والنتيجة هي ان الجاحظ الف كتابا في ذووي العاهات أتى على كثير منها وعند الاشارة اليه مال قوم للتعميم واحب اخرون الاختصار في حين احب صاحب " البغية " مثلا ذكر اكبر عدد ممكن منها في العنوان . ومن هنا كان منشأ الاختلافات . ولو راجعت قول الجاحظ نفسه في البيان يشير اليه ــــ لما خالجك اى شك فيما ذهبنا اليه من انها كلها لم تعدُ كتابا واحدا (في ذوي العاهات) .

	ياقوت	سندوبي
١١ـ	الرد على من ألْحَد .	الرد على من الحد في كتاب الله

اورد الاول ياقوت واورد الثاني السندوبي . اما من اين اتت (في كتاب الله) فلا نعرف الا انها زيادة من السندوبي تدل دلالة اوضح وتُخصّص

تخصيصا ادق ما في الكتاب .

	حيوان	ياقوت	ياقوت	ملحق
١٢ –	على النصراني واليهودى .	الرد على النصارى .	الرد على اليهود	رد النصارى .

هنا لنا وقفة لا بد منها عند العنوان الاول . فانه من غير المعقول ان يُسمى الجاحظ كتابا بهذه التسمية العامية المبهمة . وباختصار نقول انه لا بد من وجود كلة قبل (علىٰ) اطارها النساخ ونميل الى القول بانها لا بد وان تكون من جنس"الرد" لان اكثر مواقفه مع هذين مواقف رد . وعلى هذا يكون العنوان الاول هو – الرد على النصراني واليهودى . وبعده يكون من السهل علينا ان نعرف ان العاليين ليسا الا ذات الكتاب أُشير اليه مرتين مختلفتين باعتبار موضوعه. واخيرا لننتقل للاخير هذا الذى بقيت منه مخطوطة التي نشرت في"ثلاث رسائل" لنلاحظ على مادتها ما يلي = اولا انها فصول مختارة من رسالة كبيرة

ثانيا انه في هذه المختارات اولا اورد ردود النصارى فانتهى العنوان الرابع.ثم رد عليها فانتهى العنوان ، الثاني.ثم سأل اسئلة وانتهى بها جمة اليهود فـفرغ حساب العنوان الثالث.وننتهى من كل هذا الى ان الجميع كتاب واحد في الرد على القومين .

	ياقوت	داماد
١٣ –	ذمّ الكتاب	وذم اخلاق الكتاب

مما لا شك فيه ان الذي بقيت مخطوطة ولم يذكر اسمه ، هو ذات الكتاب الذى ذُكر اسمه واختفى كل مخبر عن مخطوطة . وعلى هذا يكون الاسمين لمسمى واحد . هذا اذا صحت القراءة . اما اذا كانت تهجئة الاول "كُتّاب". فاننا نضطر لان نعتبره كتابا جديدا كتبه الجاحظ معارضة لكتابه الاخر الذى مر ذكره في مدح الكُتّاب والذى قلنا انه فصل من كتاب الحيوان .

	ياقوت	هامش اللوم	بغدادى والسيوطي	ياقوت	خفاص	سند وبي
١٤ –	ذم الزنا .	ذم اللواط	القحاب والكلاب	. القواد	. صناعات القواد .	القواد واسباب الصناعات

اما الاول والثاني والثالث فتكاد تكون أمرٌ وحدتهما مفروغاً منها . ومثلها وحدة الرابع والخامس والسادس . لقد ظننا هذا وسكتنا عن دمج الكل في واحد خوفا من نُطْق"القواد". فاننا بادئ الامر ظننا انه يعني الكلام على فن القيادة وما اليها وقلنا انه اتخذها نوعا من انواع طرق الكسب ولذا كتب فيها . لكننا عندما قرأنا الكتاب منشورا بها من الكامل الاول تحت اسم ذم اللواط ووجدنا القواد وصناعة القواد ثم قرانا منشورا في طراز الخفاجي وفي رسائل السندوبي تحت عنوان صناعات القواد ووجدنا ذات الشيء يتكرر وذات المعنى يتردد لم يبق لدينا شك في ان الستة اسماء ليست اكثر من مختلفات لكتاب واحد في الزنا وما اليه . والكلمة تكون من القوادة وليس من القيادة .

	سندوبي	ياقوت	ياقوت
١٥ –	ذم الوراقة .	ذم الوراق .	الوراق .

الاول نُسقِطه لعدم كفاءة سنده . في حين يبقى الثاني والثالث . ونحن نرى مادام لم يُطبعا ولم تبق لهما مخطوطات انه يجوز – وخصوصا مادام لم يُشكَلا – لنا ان نقول انهما كتاب واحد وان احدهما يتخير فنحن من الاول . او ان نبقيهما على حالهما ونقودهما اثنان مختلفان الواحد منهما كتب ضدا للاخر . وهذا غير غريب ولا بعيد عن الجاحظ . وتكون النتيجة ان هذه المجموعة انتهينا منها بكتاب واحد او باثنين .

	سندوبي	كرو
١٦ –	التفاح .	الاشجار .

كلا الروايتان ضعيفه . وعلى هذا نقول ان الرجل لم يكتب في النبات ابدا وان كان قد كتب نحن الأراك الذى زرعه في حديقة بيته وتكلم عنه في الحيوان لا عن التفاح .

	حيوان	ياقوت
١٧ –	اصحاب الالهام .	الرد على اصحاب الالهام

كلا الروايتين صحيحة وموثوق بها. لكن الجاحظ اشتهر بحب الايجاز حتى في تسمية كتبه . ولذا فنحن لا يساورنا الشك في ان الاسمين لمسمى واحد اولهما اضبطهما . في حين قصد من ثانيهما بعض التدقيق . وامثال هذه الاختصارات كثيرة خذ مثلا الاحتجاج لنظم القران وكيف اورده الجاحظ .

	ياقوت	حيوان
١٨ –	الفتيا .	اصول الفتيا والاحكام

هنا تنعكس الاية فالجاحظ يطوّل وياقوت يختصر .

	زيدان	مروج	ياقوت
١٩ –	بني امية	امامة المروانية .	امارة امير المؤمنين معاوية

اذا عرفنا ان المروانية هم بنو امية واذا اضفنا ان معاوية هو رأس بني امية يسهل علينا ان نقبل القول بان هذه الثلاثة اسماء لواحد . ويؤكد هذا القول قول المسعودي ان الثالث ليس الا تسمية فرعية للثاني ويؤكده ايضا مانُشر في رسائل السندوبي بشكل فصول مختاره تحت عنوان (بني اميه) وهو شواظ من نار صبه الكاتب على كل بني اميه خصوصا معاوية والعروانيين فاتهمهم بكل تهمة وفضحهم في كل خطة وبيّن جُهد استطاعته عدمَ اُحقِيّتهم بالخلافة وانهم اغتصبوها اغتصابا من ابي بكر وغيره من المستحقين .

	مطبوعه	ياقوت
٢٠ –	بيان مذاهب الشيعة	. الامامة على مذهب الشيعة .

بالاضافة الى ان الاول لم يذكر في المصادر الاولى ، وبالاضافة الى ان اسميهما يدلان على وحدتهما ، نقول بالاضافة الى كل هذا فقد قرأنا قسما منها منشورا في "ثلاث رسائل" بشكل فصول مختارة . وآخَر منشوراً في هامش الكامل الذاني بشكل فصول مختارة ايضا . فكانت النتيجة ان كثيرا من المختارات قد تكررت وان ذات الفكرة معادة . وهي تبيان انواع الشيعة وقول كل منهم في الامامة . واخيرا لماذا اتفقوا على إمامة علي . وعلى هذا فنحن لا يدور

بخلدنا اى شك بخصوص ضرورة وحدة الكتابين .

٢١ — تفضيل الاعتزال على كل نحلة (حيوان) . فضيلة المعتزلة (ياقوت) .

مما لا شك فيه انهما واحد . وقد قال السندوبي ولعلهما واحد كتب بالاسم الثاني. وهو ذاته الذى رد عليه الراوندي بكتاب فضيحة المعتزلة . ونضيف نحن فنقول وهو الذى دافع عنه (اى الجاحظ) بسببه الخياط في (الانتصار) .

٢٢ — العرب والعجم (حيوان) . التسوية بين العرب والعجم (ياقوت) . العرب والفرس (ياقوت) . العرس والعروس (كرد) . فضل الفرس (ياقوت) .

اما الاول والثالث فمما لا نشك فيه انهما واحد . واما الرابع فمما لا نشك فيه انه تحريف لما قبله . بقي "التسويه" "وفضل الفرس". من الاول والثالث لا نفهم أأراد الرجل تفضيل العرب ام تفضيل العجم ام المساواة بينهما . فان كان تفضيل العرب فالثاني والاخير كتابان جديدان . وان كان تفضيل العجم فالثاني جديد في حين ينضم الاخير الى وحدة الاول والثالث . أما إن كان يريد التسوية فالاول والثاني كتاب والاخير ثاني . وتكون "التسوية" كتابا ثالثا مستقلا . لكننا نميل ما دام ياقوت في الكتاب الاخير جلى الغامض الى القول بأنه يقصد تفضيل العجم . وعلى هذا يسقط الرابع ويبقى لدينا الاول والثالث والاخير على انها كلها كتاب واحد بالاضافة الى "التسوية" على انه ثاني .

٢٣ — الموالي (عقد ٣) . الموالي والعرب (عقد ٢) . العرب والموالي (حيوان) . فضل الموالي على العرب (بغداد)

ذات الشيء يقال في هذه المجموعة . فإما أن تكون جميعها كتابا واحدا او كتابين . ولا يمكن ان تكون اكثر . اما كتاب واحد ، فعنوانه "في تفضيل الموالي على العرب" . واما اثنان فواحدهما "في علاقتهما" وثانيهما "في تفضيل الموالي" .

٢٤ — العبر والاعتبار (ملحق) . التفكر والاعتبار (ياقوت) . الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير (مطبوع) .

من هذا نرى ان اول من ذكر الكتاب ياقوت . وان مخطوطة موجودة . وانه مطبوع لوحده . لكن لسوء الحظ وجدنا كل هذه تحت عناوين بعددها . اذ من غير المعقول ان يكتب الرجل ثلاث رسائل بذات الموضوع وتتفق المصادفات على ان واحدة منها يذكر اسمها وتضيع

مخطوطتها . وان ثانية توجد مخطوطتها لكنها لم تُذكر . وان ثالثة طبعت لكنها لم تخط ولم تذكر . نقول ان القول بالرأي الاخير بَعيدٌ ومُعَقَّد واتفاق ثلاثة عقلاء عليه غير معقول .

٢٥ — التمثيل (ياقوت) . الامثال (ياقوت) .

بالرغم من ان الاسمين وردا في ياقوت في جزء واحد وفي صفحة واحدة بل وفي سطرين متعاقبين ، نقول انهما لا يمكن ان يكونا كتابين مختلفين . لقد ضاعت مخطوطتاهما ولم يبق منهما سوى اسميهما . في حين لم يتكلم احد السلف عنهما بكلمة تُنير الطريق . ولذا فَمِن الصعب علينا ان نقول بخصوصهما جَزماً . وليس لدينا ما يعيننا على ذلك سوى الحدس والتخمين والمنطق الشكلي . لكن هذه ليست علمية . ولذا نقول : قد يجوز ان يكونا كتابين كما قد يجوز يكونا كتابا واحدا . ونترك لاكتشافات المستقبل امر الحكم النهائي .

٢٦ — الجد والهزل (مخطوطومطبوع) . المزح والجد (ياقوت) .

اذا كنا وقفنا حَيْرى أمام السابقين فاننا لن نقف امام هذين . فالمخطوطات الثلاثة التي لدينا كلها تشير الى التسمية الاولى . وعلى هذا لا يسعنا الا ان نتهم ياقوت بعدم الدقة في الترتيب كلمات العنوان لاسيما وان هذه ليست اول مرة . والرسالة معروفة ومطبوعة طبعا انيقا وقد كتبها لابن الزيات .

٢٧ — الحجاب (طراز) . الحجاب وذمه (سندوبي) . الحجاب (سيندوبي) .

كنا نظن انه في هذا سيتكلم عن حجاب المراة المسلمة لكنا قراناه في "الطراز" فاذا به يتكلم عن حجاب الملوك ورجال الدولة فعرفنا المبهم . وقد ذم الحجاب عامة وذكر من ذُم به . وعلى هذا نقول ان تسمية السندوبي الاولى ليست سوى توضيح للمادة . ثم اخذنا نفتش لعله الف في " الحجات" بمعنى الحُجَج او النساء اللواتي ذهبن للحج او ما يشابه ذلك . لكننا لم نجد سوى "حجج النبوة" . ولذا عدنا نتهم السندوبي بالتحريف وزيادة نقطة معكوسة على الحرف الاخير لا سيما وانه يقول (هكذا قال الطراز) والطراز لم يقل . وعلى هذا تكون الثلاثة كتب كتابا واحدا في الحجاب .

٢٨ — الحنين (فهرس) . الحنين الى الاوطان (مطبوع) .

كتاب واحد بلا شك . لان الاول ورد في الفهرست على انه لغير الجاحظ . يبقى الثاني المطبوع . هو كتاب بلا شك . شك في صحة نسبته السندوبي واما نحن فلنا في الموضوع راى اخر سنبينه في مكانه .

٢٩ - العثمانية (مروج) . مقالة العثمانية (ابن قتيبه) . ملحق . مطبوعه) . مسائل العثمانية (مروج) . الرد على العثمانيه (ياقوت) . حكاية سِرّ قَوْل العثمانيه/ والضرارية (حيوان) .

اما الاول والثالث فقد اثبتهما له وتكلم عنهما المسعودى في مروجه ثم عاد فنفاهما عنه . على كل لا يهمنا هذا في هذا الصدد بقدر ما تهمنا وحدتهما . اما بروكلمان فيقول ان الثاني سمي بهذا لانه دافع فيه عن نظر العثمانية في الامامة ضد وجهة نظر علي وجماعته فيها . وقد قرأنا المطبوع في "رسائل السندوبي" فوجدناه كما قال . بهذا يتفق بروكلمان مع المسعودى مع ابن قتيبه مع ملحق البريطاني مع المطبوع في رسائل السندوبي . وعليه يكون الاول والثاني والثالث اسماء لكتاب واحد . اما الرابع فنعتقد انه كتاب جديد عارض فيه الجاحظ اقواله فيما سبق . والدليل على هذا قول المسعودى (ثم عاد فنقض اقواله في الكتاب الاول) . اما الاخير فلا علم لنا بشيء عنه البتة . فعنوانه مبهم ومخطوطته مفقودة . ولم يأتنا عنه اىّ شي ء فنثبته كتابا قائما بذاته او نضمه الى احد الكتابين السابقين . ولذا نقول ان هذه المجموعة تنقشع عن كتابين او ثلاثة . احدهما مع العثمانية . وثانيهما ضدها . وثالثها نحن في حيرة من امره .

٣٠ - حكاية عثمان في اللصوص ووصاياه (مخطوط) . كتاب اللصوص (ياقوت) . حيل اللصوص (حيوان) . حيل سراق الليل (بخلاء) . حيل لصوص النهار (بخلاء) .

مما لا شك فيه ان كل هذه عناوين مختلفة لمعنون واحد في اللصوص . والدليل على هذا وصف الجاحظ بذاته هذا المعنون في اول كتاب البخلاء بقوله (ذكرت حفظك الله انك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل) . مما يدل دلالة واضحة على ان الاسماء هذه ليست اكثر من اوصاف مختلفة لنواحي متعددة من محتويات الكتاب . فقد تكلم عن اللصوص وقد استفاد من عثمان وقد أُسهب في لصوص الليل ومما لا شك فيه انه لم يَغْفُل عن لصوص النهار . وقد عثرنا على فقرة من هذا الكتاب جميلة سندونها عند وصف الكتاب . انما يهمنا ان نقول ان الجاحظ لم يكتب سوى واحد في هذا الموضوع . وان وصفه

لكتبه ببعض فصولها أو ببعض مظاهرها لم يعد علينا جديدا .

٣١ ـ حكاية قول اصناف الزيدية (يافوت) . ذكر ما بين الزيدية والرافضة (يافوت) . مقالة الزيدية والرافضة (ملحق ـ هامش) . معارضة الزيدية (حيوان) .

لا شك ان الثاني والثالث واحد . واذا ذكرنا ان الثالث مطبوع وان فيه حكاية اقوال الزيديين للدفاع عن مذهبهم ، عرفنا ان الثلاثة الاولى واحد . الا ان الشك يحوم حول الاخير . ونحن نميل الى القول بانه معارضة للسابقات على عادة الجاحظ . وعلى هذا فتنجلي هذه المجموعة عن اثنين فقط .

٣٢ ـ الحلية (ياقوت) . الحلبة (سندوبي) . الحلبة (سندوبي) .

مع اننا لم نتاكد من وجود واحد من هاته . الا اننا نفترض وجود الاول ثم ضياعه مع جملة ما ضاع . لكن الثاني والثالث ، ما القول فيهما ؟ القول فيهما ما داما لم يُذكرا من قبل انهما ليسا اكثر من تصحيف إما من السندوبي وإما ممن نقل عنهم السندوبي ، واننا نأسف لان الرجل عند سرده كتب الجاحظ لم يذكر المصادر التي استعان بها فنستطيع الرجوع اليها والتحقيق في صحة سرده . لكن إغراء النسخ بالقراءة في الاول والسماع في الثاني ـ يشجعاننا على الاخذ بما قلنا والقول بغلط السندوبي وتصحيفه لا سيما وان هذا ليس عليه بجديد . وعلى هذا بالاضافة الى اقتناعنا من ان الجاحظ لم يكتب في النباتات (الحلبة) نقول انه لم يؤلف في هذا الا واحدا ضاع .

٣٣ ـ المعارف (بغدادى) . المعرفة (ياقوت) . مسائل المعرفة (ياقوت) . مسائل وجوابات في المعرفة (ملحق المسائل (بخلاء) . فنون شتى مستحسنة (داماد) .

أما ان الاول والثاني والثالث واحد ، فلا شك عندنا في ذلك بعد كل ما خبرنا . يبقى الرابع الذى ذكره الجاحظ في البخلاء ومن ضوء ما قال يلوح لنا ان ضمه الى الزمرة السابقة اقرب للمعقول بالرغم من افتقارنا للمصادر الصريحة . بقي الخامس والاخير الذى وجدت مخطوطته في داماد . وهو في فنون شتى مستحسنة . ترى الا تكون هذه الفنون الشتى المستحسنة الوانا من المعرفة الواسعة الاطراف . قد تكون وقد لا تكون . بنا ميل لتوحيده مع سابقاته . لكن الحدس والتخمين لا يُعتمدا . ولذا نتركه وفي النفس شك من انفراده حتى يُطبع .

٣٤ - خلق القران (حيوان ملحق) . المسائل في القران (ياقوت) . مسائل القران (فهرس) . آي القران (ياقوت) . نظم القران (فهرس) . الاحتجاج لنظم القران (حيوان) . البلاغة والاعجاز وقيل الايجاز (ملحق) .

لقد آمن الجاحظ بخلق القران ودعى له . فلا عجب ان يكون قد كتب كتابا او كتبا وضح فيه أو فيها موقفه . ولهذا نقول إنه من الثابت الاكيد ان الرجل كتب بالعنوان الاول . لكن الشك في الثاني والثالث اللذين يكاد لا يساورنا شك في وحدتهما من اول نظرة . بقي الرابع والخامس والسادس والسابع. هاته التي نرى فيها واحدا ايضا . اما "الاحتجاج" فمطبوع وقرأناه في هامش الكامل الثاني . وفيه وردت تعابير "نظم القران وبلاغة القران واعجاز القران" - وفيه وَرَدَ تحليلٌ طريف وتعليق لطيف على جملة من آي القران . اذا ذكرنا هذا وذكرنا قول السندوبي عن الآي من حيث أن الجاحظ جمع فيه نخبةً طريفة . وأضفنا الى هذا القول قول احدهم انه من ادلة اعجاز القران ايمان الجاحظ به - تَكَوَّنَ لدينا شبهُ يقين بأن هذه الاربعة كلها اسماء لواحد . وتنتهي الأزمة عن كتابين او ثلاثة = الاول في خلقه . والثاني في مسائله . والثالث في اعجاز القران .

٣٥ - النبل (ملحق) . النبل والتنبل وذم الكبر (سندوبي) . الكبر المستحسن والمستقبح (سندوبي)

قرانا الاول مطبوعا فوجدناه يتكلم عن النبل ويقول إن الطبيعي منه جميل لكن المتكلف رذيل لان النبيل لا يتنبل وكل تَنَبُّلٍ دلالة على نقص او انعدام نبل في نفس المُتَنَبِّل . هذا بالاضافة الى مروره على الكِبْر وتفريقه الى نوعين = مستحسن ومستقبح . وكلامه على كل منهما في ذات الرسالة. وعلى هذا فالاسمين لكتاب واحد إنما كان الاسم الثاني من صنع السندوبي تاثرا بقسم بارز من الموضوع . وهذا لم يعد غريبا علينا بعد كل ما راينا من الفوضى وعدم الدقة ومما ضربنا عليه الامثال من قبلُ .

٣٦ - فخر القحطانية والعدنانية (المجموعة) . القحطانية والعدنانية في الرد على القحطانية (حيوان وبغدادى) . مفاخرة القحطانية على الكنانية وسائر العدنانية (البغدادى) .

كلها ضاعت . ولكن كيف ضاعت. لستُ أدري . وليتها او ليت بعضها بقي لنعرف شيئا عنها يُمَكِّننا من المقارنة بينها بالفعل . لكن ما الحيلة ! على كلٍ يلوح ان الاول والثاني واحد ذَكَرَهما الجاحظ نفسُه . الاول في رسالة السودان والبيضان والثاني في الحيوان . في حين انفرد البغدادى بالثالث مما يُعَدُّ معارضة للكتاب السابق . ففي الاول تفخر العدنانية على القحطانية وفي الثاني تنعكس

الاية فتفخر القحطانية على العدنانية . وتكون النتيجة ان كتابيق برزا من هذه المجموعة متناقضي الموضوع .

٣٧ - النبي والمتنبي (ياقوت) . الفرق ما بين النبي والمتنبي (الحيوان) .

مما لا شك فيه انهما واحد . فقد ذكره الجاحظ باسمه المطول عند تعداد كتبه واوقف بضعة اسطر على مدحه والاشادة باهميته في حين راح ياقوت يسرد حكاية ابن الاخشاد كاملة مما يدل على مقدار علو قيمته .

٣٨ - كتمان السر (ياقوت) . كتمان السر وحفظ اللسان (داماد) .

لا يهمنا اى الاسمين هو الاصيل بقدر ما يهمنا الاشارة الى انهما إسمان لمسمى واحد . هو هذا الذى نشره كرواس والحاجرى في مجموعتهما التي حوت اربع رسائل للجاحظ . ولعل الثاني الذى عُنْوِنَ به المنشور في حين يكون الاول ليس اكثر من اختصار له .

٣٩ - ما بين الملائكة والجن . فرق ما بين الملائكة والجن (حيوان)

كتاب واحد لا شك بذلك . انما التغيير نسخي بحذف او اضافة كلمة .

٤٠ - الزرع والنخل (بيان ٣) . الزرع والنخل والزيتون والاعناب (بيان ١) .

ذكرهما الجاحظ ونعتقد انهما واحد ورد اسمه مفصلا في البيان الاول . وعند الاشارة اليه في الثالث اكتفى "بما قلّ ودلّ".

٤١ - المغنين (ياقوت) . طبقات المغنين (ملحق ومنشور) . المغنين والغناء والصنعة (ياقوت) .

مما لا شك فيه ان كل هاته لمسمى واحد . والادلة على هذا ما يلي = اولا إنه لا يُعْقَل ان يكون العنوان منصوبا او مجرورا دون مسبب . ولذا يجب تقدير مسبب . واقرب مسبب هو اضافة " طبقات " قبل " المغنين " . فاذا كان ذلك وجدنا ان الاول والثاني اتحدا وان كليهما انضم تحت لواء الثالث وظهر ان الجميع اسماء لمسمى واحد . ثانيا ان ما نشر منه (اى الثاني) لم يَعْدُ فصولا مقطعة مشوشة يُستنتج منها انه مقدمة لكتاب سيتكلم فيه صاحبه عن المغنين والغناء والصنعة وكل ما يتعلق بذلك . وعلى هذا فالكل واحد

٨٤

٤٢ - صياغة الكلام (ياقوت) . صناعة الكلام (هامش) . تفضيل صناعة الكلام (فهرس) . فضيلة الكلام (فهرس) . الهاشمية (مسعودى) .

مما لا شك فيه ان الاول والثاني واحد . وان الثالث والرابع واحد وقد قال المسعودى ان الاخيرة والرابع واحد . اذن بقي ربط الاولين بالباقيات وهذا صعب. لان الاولين يتضمنان وصفا حياديا للكلام في حين يحاول الكاتب في الاخريات تفضيل هذه الصناعة . على كلٍ اذا روعيت الدقة في التسمية كان لنا من هذه المجموعة كتابان . الاول حيادى والثاني تفضيل . والا فالجميع كتاب واحد .

٤٣ - العباسية (حيوان) . امامة بني العباس (سندوبي) . امامة وُلد العباس (مروج) .

قال ابن النقيه ان الجاحظ قدّم العباسية للمامون وفيها يحتج لوُلد العباس في الامامة . وعلى هذا فالاول والثالث واحد واما الثاني فليس الا ذات الشيء بحكاية المعنى دون التقيد بالاصل لا سيما ~~وانه~~ وانه من محدث لم تؤيده الاصول القديمة . وحتى ~~لو ايدته فانه لن يكون هناك اى فرق~~ .

٤٤ - الاستطاعة وخلق الافعال (ياقوت) . الطبائع (ياقوت) . افعال الطبائع (سندوبي) . احالة القُدرة على الظلم (ياقوت) .

نظرة بسيطة ترينا ان الاول والثالث واحد . وان الثاني قد ينضم اليهما اذا فكرنا بالأفعال . لكن اذا فكرنا بطبائع الحيوان التي كتب فيها انتكث لنا كل غزل . اما الاخير فقد يكون رسالة دينية حرة لوحدها وقد يكون ذات الكتاب . على كل نستنتج من هذه المجموعة اولا اما ان الجميع كتاب واحد او انها على الاكثر ثلاثة كتب .

٤٥- فخر السودان والبيضان (. مفاخرة السودان والبيضان . فخر السودان والحمران

كلها اسماء لواحد. لان النبي في حديث استعمل الاحمر بمعنى الابيض فقال ارسلت للاحمر والاسود ولان الجاحظ نفسه وضح ذلك وفسر غامضه وازال الشبهة فيه في الرسالة المطبوعة .

٤٦ - مفاخرة الجوارى (داماد) . مفاخرة الجوارى والغلمان (موصل)

كلاهما واحد وقد اشار الى ذلك بروكلمن . ولا بد ان يكون قد اطلع على المخطوطتين

٤٧ – المعلمين . نوادر المعلمين .

كذلك . لا يمكن إلا ان يكون قبل "المعلمين" شيء . واقرب شيء للمعقول هو "نوادر" . فاذا كان ذلك فان الكتابين كتاب واحد .

٤٨ – فخر هاشم وعبد شمس . فضل هاشم على عبد شمس .

٤٩ – فخر عبد شمس ومخزوم . الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم .

٥٠ – مناقب جند الخلافة . مناقب الترك وعامة جند الخلافة .

٥١ – الوعيد . الوعد والوعيد .

٥٢ – الناشي والمتلاشي . المتلاشي والناشي .

٥٣ – الوكلاء . الوكلاء المتوكلين .

كل مجموعة من هاته يجب ان تكون مقتصرة على واحد . والسبب واضح على كلٍ – هذا ما توصلنا اليه عن طريق الشك العقلي اولا والمنطق الشكلي ثانيا والتحقيق العلمي ثالثا فكان مارأينا . ونتيجة له يجب ان نَطْرَحَها من قائمة كتبه المذكورة في الفهرس ١١٤ الى ١٢٧ كتابا . لكي نقرب من الحقيقة وان كنا لا ندعي أننا وصلنا اليها .

ثالثا – الكتب التي نسبت اليه –

x-x-x-x-x-x-x-x

هذه هي الظاهرة الثالثة التي فعلت فعلها في الاضطراب الكبير مما انتج كل هذه الفوضى في الاعداد التي أُعطيت لكتب الجاحظ .نعني ظاهرة كتابة غيره باسمه . كما قد كتب هو باسم غيره . ولا غريب في هذا اى ان يكتب غيره باسمه بعد ان ذاع صيته وانتشر اسمه وعرفه القاصي والداني . وشاهِدُنا على هذا اقتباسات من "العداوة والحسد" بقلمه[1] . لقد تحرينا كثيرا ودققنا طويلا في كل ما وصل الينا من كتبه ، فوجدنا ان الشك في صحة نسبة الكتب التالية الى الجاحظ – اغلب من اليقين في صحة نسبتها . واليكها مع بيان الاسباب .

٨٥

اولا ـ كتاب الابل = بالرغم انه لم يصلنا منه شيء لكننا اعتمادا على ملاحظة ياقوت (انه من الكتب التي نسبت اليه قديما) نقول انه ليس له وانما كتب باسمه.

ثانيا ـ التاج = لقد قرأنا كتاب التاج اولى وثانية . وقرأنا مقدمتة الطويلة التي سهر عليها احمد زكي باشا وحاول ان يورد فيها كلَّ ما يمكن ايراده من الحجج والادلة والبراهين لاثبات نسبته للجاحظ . لكننا لم نستطع ان نطمئن الى صحة نسبته البته . ولسنا الوحيدين في موقفنا الشكي من نسبة الكتاب ، بل يؤيدنا ممن عرفنا الاساتذةُ بروكلمان وكُرْد والسندوبي وغيرهم كثيرون . لكنهم لسوء الحظ لم يوردوا ادلة قاطعة تؤيد شكهم او نفيهم لهذه النسبة . ولهذا اخذنا على عاتقنا هذه المهمة .

نحن نشك في صحة نسبة كتاب التاج للجاحظ . وذلك لما يلي =

اولا ـ لان واحدا من المصادر الاولى لم يذكره البتة . انما كل ما وقع له من ذكر كان في موضعين . الاول في العقد الفريد ،لكن على انه ليس للجاحظ بل لاخر غيره . والثاني في فهرس العقد حيث قال السيد شفيع معلقا في الهامش عند ذكره (وهذا الكتاب للجاحظ) . لكن بما ان شفيعا متأخرٌ ولم يَسْتَنِد الى اصل موثوق به ، لذا لا نستطيع ان نأخذ قوله بعين الاعتبار .

ثانيا ـ اسلوب الكتاب التاليفي ليس من اسلوب الجاحظ البتة . فمن ناحيةٍ إنعدم الاستطراد والتكرار والاستشهاد وروح الدعابة التي اتصف بها اسلوب الجاحظ . ومن ثانية برزت ظاهرةٌ لم يعرفها الجاحظ نعني ظاهرةَ الترتيب الدقيق جدا . فالرجل قَسَّم كتابه لابواب . والابواب لفصول . والفصول لمواقف منسجمة كل الانسجام . ولهذا ـ اى لانعدام صفات اسلوب الجاحظ التاليفي وليروز اخرى لم يُعرف بها ـ لا يسعنا الا ان نشك في صحة نسبته .

ثالثا ـ لأن اسلوب الكتاب الانشائي ليس من اسلوب الجاحظ بشيء . فالجاحظ عودنا على التوازن او خلطه بالاسترسال ، وعودنا كذلك على قصر الجملة وطول النفس وايراد تعابير خاصة مما لا يمكن لباحث مهما كان مدققا ان يجد لها اثرا في الكتاب كله . ولهذا ايضا نشك في نسبته .

رابعا ـ لان نوع مادة الكتاب ليست مما يمكن نسبته للجاحظ . قد يقال ان الجاحظ خالط الخلفاء كالمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . وقد يقال ايضا انه لازم ابن الزيات وابن ابي دؤاد وصحب الفتح ابن خاقان ، فباستطاعته ان يكتب عن اداب السلطان . نقول كل هذا صحيح

ومن اجله يستطيع ان يكتب عن اخلاق السلطان . لكن السلطان العربي فقط . ولهذا سلمنا بصحة كتابه ــ السلطان واخلاق اهله ــ أما ان يكتب عن السلطان الفارسي فمما يصعب علينا التسليم به . ثم اية كتابة كتب . كتابةُ مدقق مطلع قريب عاش اكثر حياته في بلاط الفرس.والجاحظ لم يقل واحد من المؤرخين انه ذهب لبلاط الفرس . قد يقال ربما جاءته المادة بالدرس والسماع . فنقول قد يكون ويستطيع ان يكتب . لكن حديثه لن يكون بالدقة والضبط اللذين برزا في الكتاب . خذ مثلا قوله في صفحة ٧ في باب الدخول على الملوك وفيما يجب على الملك اذا دخل الرجل عليه ان يفعل (اذا كان الداخل من الاشخاص والطبقة العالية ، فمن حق الملك ان يقف منه بالموضع الذى لا ينأى عنه ولا يقرب منه . وان يسلم عليه قائماً . فان استدناه قَرُب منه فاكب على اطرافه يقبلها . ثم تنحى عنه حتى يقف في مرتبة مثله . فان اومأ اليه بالقعود قعد . فان كلمه اجابه بانخفاض الصوت وقلة حركة . وان سكت نهض من ساعته قبل ان يتمكن به مجلسه بغير تسليم ثان ولا انتظار امر . وان كان الداخل من الطبقة الوسطى فمن حق الملك اذا راه ان يقف . وان كان نائيا عنه ، فان استدناه دنا وخطا ثلاثا أونحوها ثم وقف ايضا . فان استدناه دنا نحوا من دنوه الاول ولا ينظر الى تعب الملك في اشارة او تحريك جارحة فان ذلك وان كان فيه على الملك معاناة فهو من حقه وتعظيمه . وان كان دخوله عليه من الباب الاول يقابل وجه الملك ويحاذيه ــ وكان له طريق عن يمينه او شماله ــ عدل نحو الطريق الذى لا يقابله فيه بوجهه ثم انحرف نحو مجلس الملك فسلم قائما ملاحظا للملك . فان سكت ... فان استدناه .... فان اوما اليه ... فان كلمه ... فان قطع كلامه ...) الى اخر ما هنالك مما لم نجده حتى الان في اى اثر من اثار الجاحظ . نقول هذه المادة غير الجاحظية وهذه الدقة في سردها والاطلاع على ثناياها ــ مما لم يُعرف به الجاحظ او يُذكر عنه ــ تضطرنا بان نشك في نسبة الكتاب .

خامسا ــ واخيرا لان الرجل ذكر في كتابه " الاغاني " وكتاب الاغاني هذا ألّف بعد موت الجاحظ بقرن تقريبا. لقد دافع عنه "الباشا" عن هذا بقوله ان هناك اغاني كثيرة جاءت قبل الجاحظ . فربما كانت الاشارة الى واحد منها . لكن القصة التي وردت في صفحة ١٢٤ منه ، وورودها بنصها وفصها في اغاني ابي الفرج بذاته ، مما لا يمكن نكرانه ولا جحده ولا حتى الاغضاء عليه ،واستحالة استعانة متقدم بمتاخر تضطرنا لان نشك في صحة نسبة الكتاب .

لهذا ــ نعني لعدم ورود اى ذكر له في المصادر الاولى ، ولعدم مطابقة اسلوبه التاليفي لما عرف عن الجاحظ ، ولعدم اتفاق اسلوبه الانشائي مع ما عرف عنه ايضا ، ولعدم امكانية الصاق مادته

بالجاحظ ، واخيرا لذكره اشياء جاءت بعده = لا يمكننا الا ان نشك في صحة نسب كتاب التاج لابي عثمان الجاحظ .

ثالثا تنبيه الملوك والمكايد – لسوء الحظ لما يطبع الكتاب . ولهذا لم نطلع عليه . ولهذا لا نستطيع ان نبدى فيه رايا خاصا . انما كل اعتمادنا في موقفنا الشكي منه على قول السندوبي ص ١٥٢ (اذا علمت ان هذا الكتاب مصدر بفاتحة يقول فيها " الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتابا . وفتح للعبد اذا وافى اليه بابا ... " لم تتردد لحظة في انه لغير الجاحظ . وانما نسبه من نسبه اليه جهلا وغباء . توجد منه نسخة ماخوذة بالتصوير الشمسي في دار الكتب المصرية تحت نمرة ٢١٥٤) هذا ما قال السندوبي . وهذا كل ما يمكننا ايراده بخصوص الكتاب . ومنه يُلاحظ ان الرجل شَكَّ في صحة نسبته لورود السجع المتكلف في عبارته . ونحن الى ما قال به اميل .

رابعا الحنين الى الاوطان – قال السندوبي معلقا ص ١٥٣ . (مَن قرأ هذا الكتاب وقرنه بشيء من كتب الجاحظ او وازن بينه وبين طريقته بالتاليف " لا يشك مطلقا في ان الجاحظ منه براء وانه من تلفيقات الوراقين الذين يجمعون شتى العبارات الى بعضها في كتاب ثم ينسبونه الى موءلف مشهور ليلقى الرواج عند الناس) .

هذا ما قال السندوبي . اما نحن فنقول ان هذا قد يكون . لكن اسلوبه التاليفي بكثرة استشهاداته نثرا وشعرا ، واسلوبه الانشائي توازنا وارسالا ، ومصادره التي استقى منها كتبا واشخاصا – لم تخرج في كثير ولا قليل عما عرف عن الجاحظ .

لهذا نقول ان ما اورد السندوبي كان اتهاماتٍ غير علمية وليست معتمدة على حقائق او شواهد يمكن الرجوع اليها . انما كانت الحقيقة في الامر عكس ما ذهب اليه مما اوردناه في الفقرة السابقة .

الا ان هناك نقطة مهمة يجب ان لا نغفلها هي مسألة التسمية . فالكتاب مطبوع بهذا الاسم . لكنه لم يردله ذكر في المصادر . وكل ما ورد كان في الفهرس . ووروده هناك كان على انه لغير الجاحظ . . . وامام هذا لا نستطيع ان نقول ان الكتاب للجاحظ لما في باطنه من تاييدات ايجابية . ولا ان نقول انه ليس له بالمرة كما راى السندوبي . انما نقول اننا في حيرة من امره . فالى ان نقع على ذكر اصيل بخصوص تسميته ، نُبقي علامة الاستفهام بعد اسمه .

خامسا الدلائل والاعتبار ـ تبرز في هذا الكتاب فكرة معتزل متطرف في مذهبه يهاجم غيره مثل المنانية والمعطلة . ويظهر فيه واضحا اطلاع صاحبه الكثير على فلسفة اليونان هذا بالاضافة الى اسلوب جاحظي قوى في الانشاء والتاليف . وكل هذا يؤيد ان الكتاب للجاحظ .

لكن صبغة الترتيب المنطقي الطويل وترداد كلمتي " أنظر وَفَكِّر " كثيرا وانعدام الشواهد ~~وكذلك الاستشهاد~~ بالمرة تثير شكوكنا وهواجسنا من حيث صحة نسبته .

لقد جزم السندوبي بخلط نسبته اليه وايده في ذلك كرد علي ومال اليه بروكلمان . الا اننا لا نرى ما راوا . لان القسم الاول مما اوردناه عنه بالاضافة الى وجود امثال ما انكرناه عليه في رسائله (ولنذكر ان ما بين يدينا رسالة) تاخذ بيدنا في اتجاه وسط بين من ينكر نسبته ومن يؤيدها هذا ان لم نؤيد نسبته على خط مستقيم .

سادسا سلوة الحريف ـ لقد انكر السندوبي صحة نسبته . وانكرها غيره . وننكرها نحن بدورنا . وذلك لاسباب كثيرة ناخذها من بين دفتيه اليك اشهرها .

(١) ـ لهذا السجع المتكلف المطرد الذى لم يعرفه الجاحظ .

(٢) ـ لهذه الالقاب التي استعملها الكاتب عند الكلام على عظيم مما لم يعرف الا ايام السلاجقة اى بعد الجاحظ بقرنين مثل = قوام الملك . ونظام الدين . وحجة الاسلام . ونور الممالك . وجمال السلطنة . وبهاء الدولة . وغيرها كثير .

(٣) ـ لاخذه عن ابن المعتز وابن الرومي وغيرهما من شعراء القرن الرابع . وللتمثيل لابن المعتز = اشرب على طيب الزمان فقد حدا . ...

ولابن الرومي = اصبحت الدنيا تروق من نظر ...

واظن ان في هذا الكفاية لنفي نسبة الكتاب عن الجاحظ .

سابعا المحاسن والاضداد ـ لقد خُدع الكثيرون بنسبته . واذكر من بينهم محيي الدين ابن العربي الذى نقل عنه في " محاضرات الابرار ومسامرات الاخيار " ونسخ عنه بل نسخه البيهقي في " المحاسن والمساوى " . اما نحن فلا نرى فيه اكثر من جَمْع لاحد ورّاقي القرن الرابع غلبت عليه نزعة دينية رجعيه خصوصا لموقفه المتزمت من اكثر المسائل الخلقية التي تَعَرَّضَ لها . ولموقفه السلبي من النساء وادلتنا على عدم صحة نسبته ما يلي =

(١) — نقله عن ابن المعتز خصوصا تلك القطعة التي قالها ابن المعتز في سجنه . مما لا يُعقل ان يكون قالها والجاحظ على قيد الحياة . نعني = تعلمت في السجن نسج التكك ...

(٢) — تحديثه عن ثعلب . وثعلب تلميذه . والجاحظ لم يحدث مرة عن ثعلب . فقد جاء قوله = حدثنا ثعلب عن الفتح ابن خاقان ص ١٣٥ .

(٣) — تلميحه لقصة القرطي والحجاج . وهذه الحكاية وقعت سنة ٢٩٤ اى بعد موت الجاحظ بحوالي اربعين سنة . فكيف يَروى ما لم يقع؟ وملخص القصة كما جاء في السندوبي صفحة ١٤٤ ان "ذكرويه" زعيم القرامطة هاجم الحجاج بجيوشه سنة ٢٩٤ وفتك بهم فتكا ذريعا حتى قالوا ان عدد القتلى كان عشرين الفا .

لكل هذا نميل الى الاخذ بالقول بعدم صحة نسبة المحاسن والاضداد للجاحظ .

ثامنا كتاب الهدايا — لقد قال ياقوت انه مما نسب الى الرجل قديما . وبما ان الكتاب ضاع وليس لدينا منه ما يمكننا من نقاش هذا الحكم، لذا نضطر للموافقة عليه او للوقوف على الحياد من امره .

رابعا — الكتب التي ضاعت

xxxxx

بقيت ظاهرة اخرى هي ظاهرة ضياع الكتب . إما باتيان اعدائها عليها . او بحرق المكاتب الذى تعدد وقوعه خصوصا عند اختلال الامن او بعوامل اخرى كثيرة . وانه لمن المؤسف ان لا نستطيع ان نعرف كتابا واحدا قد ضاع بتاكيد . كما لم نستطع ان نعرف كتابا واحدا من تلك التي نَحَلَها اسماءَ غيره في اول عهده . لهذا نقول ان علينا ان ننتظر الاكتشافات القادمة فلعلها تزيل بعضا من النقاب .

والخلاصة والخلاصة التي وصلنا اليها لحد الان هي =

اولا — ان سرد كتبه الموضوعي وصل بنا الى	٢٨٥
ثانيا — ان سرد كتبه التحقيقي اسقط من هذا العدد	١٢١ — ١٣٤
ثالثا — ان اقرب عدد من الحقيقة هو ————	١٥٢ — ١٦٤

———====———

المقالة الثالثة في وصف كتبه

في هذا المقال سنحاول ان ناتي على وصف كتبه المطبوعة التي وصلت الى ايدينا وقراناها . حاولين ان نصفها وصفا موضوعيا دقيقا نتوخى فيه الايجاز مع حُسن الدلالة ، والتَّعريف جُهد الاستطاعة . لعلنا بهذا نخدم او نرشد او ناخذ بيد من يحب الاطلاع على ادب ابي عثمان . — وللوصول الى هذه الغاية سنتكلم اولا عن كتبه الثلاثة الرئيسية بشيء من الاسهاب ثم نتحول لنتكلم عن رسائله ضمن مجموعاتها التي نشرت فيها . ثم ننتقل لنتكلم عن المتفرقات منها .

١ — الحيوان

في سبعة اجزاء . وقعت في ١٠٨٩ صفحة . من الورق الاصفر الذى تقسم صفحته لثلاثة وعشرين سطرا . وفي مطبعتي السعادة والتقدم . وبين سنتي ١٩٠٥ — ١٩٠٧ . وباشراف الساسي وتصحيح النعساني ... طُبع كتابُ الحيوان لابي عثمان عمروبن بحر الجاحظ .

وقد لفت نظرنا قولُ الناشر بعد تسمية الكتاب "بالحيوان" — وهذا الكتاب هو " البارع في الادب والجامع في حكم العرب " . مما لم نسمع به من قبل في مصادرنا التي اطلعنا عليها لحد الان . أمّامِن أين اتى به الاستاذ الساسي فلا نعرف .

ويحسن بنا أن نقول إن الكتاب لم يُطبع سوى هذه الطبعة. ويجدر بنا ايضا ان نقول انها ملأى بالاغلاط والتشويشات . نكتفي للتمثيل عليها بايراد ما يلي من الجزء الرابع . [ففي ص ٤٩ وُضِعَتْ كلمة وَسِعَتْ بدل سَمِعَتْ . وفي صفحة ١٢٩ كلمة تعرق بدل تعرف بزيادة نقطة على اخر حرف . لم يكن التصحيف هو الغلط الوحيد بل ورد هناك بياض كثير كما في ص ٥٢ ووردت أبياتٌ ناقصة كما في ص ٦٢ و ١٠٩ . ووردت اغلاط نحوية كما في ص ٦٨ . وكذلك اغلاط إملائية كما في ص ٩٧ . اما التحريف وما اليه فحدث عنه ولا حرج . فالمكثي بدل المكي مستساغ في ص٩٨ . وابن يعقر بدل ابن يعفر موجود في ص ١١٢ . والقمة بدل القيامة مما لم يضق به صدرالناشر في ص ١٥٤ . — كل هذا بالاضافة الى عدم فصل الجُمل عن بعضها . وخَلْط الفقرات دون ترتيب . وخلو كل الكتاب من أية صبغة تُريح القارئ . مثل التنقيط والتشكيل و تفسير الصعب . حتى انه بكل سهولة يقال ان الخلاص من كل صفحة لا يكون الا بعد الف حساب . —

نوهنا بهذا لا لننقد نقدا هداما وانما لنشير الى ضرورة قيام ذوى الامر بطبع الكتاب من جديد لا سيما وان قيمته مما لا تفي بها سطور .

هذا عن طبعاته . اما مخطوطاته فلما نعرف منها اكثر من اثنتين . كلاهما في مكتبة عاشر افندى في اسطنبول . الاولى تحت نمرة ٨٨٤ والثانية تحت نمرة ٨٧٦ .

أَلَّفَ الجاحظ هذا الكتاب في شيخوخته بدليل ما ذَكَرَ من أَثَرِ العِلَّة التي كان يعانيها في الجزء الرابع[١] . أَنَّه لغرض من أَجَلِّ الاعراض ونعني به الكلام على جميع الحيوانات صغيرها وكبيرها لاثبات وحدة الكون كما صرح بذلك اكثر من مرة في ذات الكتاب[٢] . وبعد ان فرغ منه اهداه لولي امره انذاك الوزير محمد بن عبدالملك بن الزيات . ونال عليه خمسة الاف دينار[٣] .

لقد كتب عنه الكثيرون من قدماء ومحدثين . مدحه الجرجاني في "اساس البلاغة" بعدم تكلفه باسلوبه[٤] . وهاجمه البغدادى في "الفرق بين الفرق" بقوله انه سلخ فيه معاني اريسطو وضم اليه ما ذكره المدائني من حكم العرب واشعارها في منافع الحيوان[٥] . ثم جاء عبد اللطيف البغدادى فاختصره في كتاب اسماه " اختصار كتاب الحيوان " . ثم لخصه ابن سناء الملك الشاعر المصرى في كتاب اسماه "روح الحيوان " . وانه لمن الجميل ان نقول ان كل من جاء بعده وحاول ان يكتب عن الحيوان قد تطفل عليه إما بالنسخ او بالاستشهاد . ونذكر من بين هذه الجمهرة الدميرى في " حياة الحيوان الكبرى " . والقزويني في " عجائب المخلوقات " . واخوان الصفا في "رسالة الحيوان" وحتى الا بشيهي في "المستطرف" . وغيرهم كثيرون .

اما المحدثون فقد كتب منهم عنه الاستاذ بلاتسيوس في مجلة "ايزيس" . ج ١٤ ص ٢٠-٥٤ محللا ومقرظا . وكتب عن ناحيته الحيوانية الاستاذ مصطفى الشهابي في مجلة المجمع العلمي في دمشق ص ٥٠١ سنة ١٩٣١ فاحسن الوصف والنقد . وكتب عنه كذلك الاستاذ فؤاد افرام البستاني في مجلة المشرق ج ٢٩ ص ٦٢٨ فاجاد الوصف والتلخيص . هذا الى ارشادات كثيرة اخرى وردت في اماكن متعددة لا ضرورة لذكرها .

وليست قيمة الكتاب وقفت عند حد العلم الحيواني اذن لاكتفى صاحبه فخرا . فما القول — وما من اديب الا تطفل عليه . بل ما من فقيه الا وانتهبه . بل ما من عالم نفس جاء بعده الا واشار اليه . كثيرة نواحيه . ومتعددة قيمه . وكم كنا نود لو كان وحده موضوع الاطروحة . لركزنا عليه وحاولنا ان نخدم العلم اولا والعلماء ثانيا وابا عثمان اولا واخيرا .

٩٥

هذا عن نواحي كثيرة من الكتاب . اما عن مادته فالأحسن ان ناخذها متفرقة في كل جزء
الجزء الاول - بالرغم من انه من الصعب وضع اى فهرس لاى كتاب من كتب الجاحظ دون تكرار ، فقد حاولنا جهدنا ان نقرب من المطلوب فكان لنا ما يلي = نستطيع ان نقسم مادة هذا الجزء الى اربعة اقسام . القسم الاول مقدمه استغرقت الخمسين صفحة الاولى . تكلم فيها عن سبب وضع الكتاب . فقال انه اولا مجاراة للمنافسة التي كانت بين الشيخين في الكلب والذئب وثانيا لاستقصاء البحث فيهما[١] . ثم تكلم عن عائبي كتبه فسرد اكثر ما الف الى ذلك الحين ورد على عائبي كل منها[٢] . ثم دافع عن موضوع كتابه بقوله ان كل مخلوق مهم وله محله من الخليقة مهما تفه ولذا يجب علينا ان نعطيه نصيبه من الدرس[٣] . وبعدها دافع عن اسلوبه الذى يخلط به الجد والهزل فقال انه لا يستعمل الهزل للهزل وانما لمساعدة الضعاف ومن لم يعطهم الله الجلد على متابعة القراءة[٤] اى انه يستعمل الهزل طريقا موصلا للجد . القسم الثاني في الخصاء استغرق بين ص ٥٠ - ٨٠ . تكلم فيه عن تاثير الخصاء في المخصى وعن انواع الخصاء وعن اغراضه ثم عن حكمه في الدين وقال بعدم الاخذ به وهاجم الروم من اجله . القسم الثالث في محاورة بين صاحبي الكلب والديك استغرقت ما بين ٨٠ - ١٥٦ اى الى اخر الكتاب . هذا يذكر مفخرة لصاحبه وذاك ينقضها . وذا يعيب صاحب الاخر والاخر يدافع . وهكذا . ولقد خُدع بعضهم بحسن هذا الحوار ومقدرة الجاحظ على اتقان تسيير دفته حتى راح يكتب في "الرسالة" ان الجاحظ عرف التمثيلية . وبهذا البعض نعني الاستاذ توفيق الحكيم . القسم الرابع في استطرادات متنوعة . وهذا في الحق ليس بابا انما هو مجموع لاستطرادات كثيرة وقعت متفرقة احببنا ان نُفرد لها هذا القسم لنجمعها فيه لانها قيمة . اشهر هذه الاستطرادات التي تكاد تكون فصولا كاملة .

١ . تعداد كتبه ص ٩ والرد على تنقص اعدائه لها ص ٩ - ١٣ .
٢ . في فضائل الكتاب ص ١٩-٣٢ والكتابة ص ٣٢-٤٤ والقلم ص ٢٢ والتأليف ص ٤٢ .
٣ . في انواع البيان والدلالات ص ٢٣ .
٤ . في الشعر وترجمته ص ٣٧ - ٤٠ .
٥ . في تقسيم مخلوقات العالم ص ١٣-١٩ .
٦ . في الهجين ص ٦٣ والتهجين ص ٦٨ وملكية الخصي ص ٧٥ .
٧ . في النساء ص ٥٧ ، ٦٠ وطلب الولد ص ٤٩ وقرب الخصي من النساء ص ٧٧-٨٢ .
٨ . في التسميه والاسماء ص ١٥٧ الى ١٥٩ .
٩ . في اللغة: مفردات متروكه ، مستحدثه ، امثال ، فقه اللغه ، خفايا اللغه ، اداب القول ، .
١٠ . طرائف اخرى لا حصر لها .

الجـزء الثاني – لكن اللبكه او " العبكه " على حـد تعبير [illegible] والتي قابلناها في الجزء الاول تخـف في الثاني كثيرا . ويظهر ان لجلاء الموضوع ووضوحه امام الرجل نصيبا كبيرا في ذلك . فما الجزء الثاني بكليته الا متابعة لمحاورة الكلب والديك مع استطرادات بسيطة في مسائل كلاميه وبيان علاقة الحيوانات مع بعضها من ألفة أونفرة . وحـديث عن الشـهرة والخمول والسعادة هو للفلسـفة اقرب منه للادب ثم كلام في اصابة العين .الى قصص وخرافات واشعار ونواد ر متنوعة لا حـصر لها ولا كبير فائدة في الاتيان حتى على مجملها .

لكن الذى يهمنا هو ان الرجل خصص جـزئين من سبعة لدرا سة الكلب والديك . فكيف درسـهما . وكيف تكلم عليهما . والى اى حـد نستطيع ان نسـمي كتابه " في الحيوان " . ——
الحـق ان الجاحـظ لم يكتب في الحيوان تخصصا وانما اتخـذ هذه الحـيوانات التي تَعَرَّض لها مدارا ومثارا لكثير من الاراء الدينية والحكايات القديمة والاشعار المشهورة والاقوال الماثورة وغيرها كثير . ولهذا كان بَحْثُه في هذه الحيوانات بحـثا ادبيا اكثر منه علميا . واليك نموذج بحـثه في الكلب مثلا وجـميع الباقيات تنطبق عليه . وَصْفُه الجسـمي ثم الخُلُقي ثم ما قيل فيه من امثال واشعار . ثم ما يتعلق به من لغويات وادبيات . ثم ما حضر عن طعامه وشرابه ومنامه وكثير من عاداته . ثم ما جاء عنه في الدّين . ثم لمامة بامراضه وفوائده واخلاقه . واخيرا قُربه او بُعده من الانسان وشَرَفُه بذلك . نحن نقر بالعجز عن إعطاء فكرة واضحة عما قال أولا لكثرة ما قال وثانيا لتباينه وثالثا لعدم ترتيبه . وانما نـظن ان في هذا كفاية .

الجـزء الثالث – بعد مقدمة استـغرقت بين ص ١–٤٥ تكلم فيها عن مادة الكتاب مجملا ودافع فيها عن اسلوبه الاسـتطرادى وادبه المكشوف بكل اختصار اورد نُكتاً ونوادر متفرقة ثم اخذ في الكلام على الحمام ومعه الرخم والعقاب وطيور اخرى مع اعطاء لمحة سريعة في السمك والضفادع بين صفحـتي ٤٥–٩٢ . وبعد هذا راح يتكلم عن الذبان فقال في اهمية صغار الخلق وفي اخلاقيات الذبان ولم يَنْـسَ أن يذكر معه النمل والنحل والبعوض ويُطيل الاسـتطراد في النار وانواعها ثم في كثير من الحيوانات ونومها ص ٩٢ – ١٢٧ . ثم انتـقل ليقول بسـرعة في الغربان بين صفحـتي ١٢٧ – ١٥٦ وفي الجعلان بين ١٥٦–١٦٠ وفي الهدهد بين ١٦٠–١٦٣ والرخم ١٦٣–٦٥ ثم الخفاش ١٦٥–١٦٨ وبهذا انتهى الجـزء الثالث .

الجـزء الرابع – تكلم فيه عن الذرة وما يمكن اقتباسـه من اخلاقياتها ص ٢–١٢
ثم عن الخـنزير والقرد وخاض في حكايات المسخ واكل اللحم ص ١٢–٣٨ .

ثم عن الحيات وخرافات كثيرة عنها وعن الوزغ ص ٣٨ – ١٠٢ .
وانتهى بالكلام على النعام مع استطرادات في اللغة والادب ص ١٠٢ ـ الاخــر .

الجــزء الخامس – في المقدمة تكلم عن النار ١–٤٥ وعن الماء ٤٥–٤٩ وشرح منهجه ٤٩–٥٢ ثم اورد طائفة من الشعر في الذم ٥٢–٦٦ والاماني كذلك .

ثم تكلم عن العصفور ٦٦–٧٧ والفار ٧٧–٨٨ والسنور ٨٨–١٠١ والعقارب ١٠٧–١١٢ والحيات بين ٦٦–١١٢ . ثم افاض في القمل والبراغيث والبق والعنكبوت ودود القز والنحل والقراد بين ١١٢–١٣٣ . ثم في الحبارى والضان والماعز والضفدع والانسان والجراد والجندب والقطا بين ١٣٣–١٧٠ . ثم اخذ بنوادر متفرقة انهى بها الجــزء واستغرقت بين ١٧٠–١٧٥ .

الجــزء السادس – بعد مقدمة في انواع الحيوان تكلم في الضـب ص ١١ واعاجيبه ص ١٦ واكل لحمه ص ٢٤ وعميره ص ٣٥ . ثم اعطى بضع صفحات لالعاب الاعراب مما يندر وجوده في غيره ص ٤٣ . ثم انتقل ليفسـر قصيدتين احدهما للبهراني استغرقت بين ٤٤–٩٢ والثانية لبشر بن المعتمر استغرقت بين ٩٢–١٥٠ . وقد حشـا بينهما استطرادات في عزيف الجان ٥٣–٦٩ وفي نوادر وحكايات واشعار يصعب حصرها تحت عنوان واحد . واخيرا تنبه الى ضرورة الكتابة في الحيوان فراح يتكلم على الضبع ص ١٥١ ثم الورل ١٥٦ ثم القنفذ ص ١٥٧ واخيرا النهد ١٦٠ وبهذا انتهى الجــزء .

الجــزء الســابــع – لقد اعطى كل المجلد للكلام على حيوانات مختلفة فحرمنا من استطراداته . بعد مقدمة قصيرة في الدفاع عن الكتابة في مختلف الحيوانات اخــذ في مقارنتها من نواحي السـمع والشم والبصـر والفِطَن والحيل كذلك . ثم تكلم عن الفيل والجاموس والكركدن والأسد وغيرها كثير حتى اتى الى اخر الجــزء .

٢ – البيــــــــان

قيل « البيان والتبيين » كما هو مشهور ، وقيل « البيان والتَّبَيُّن » كما في ترجمة دى سلان لوفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٠٥ وكما في مجلة اسـلاميكا ج ٤ ص ٢٧٧ س ٣ . وقيل « البيان والتبيان » كما جاء في مخطوطة باريس على رواية بروكلمان . ومما لا حاجة للافاضـة فيه اننا ناخذ بالتسمية الاولى لاشـتهارها ولذكر الجاحـظ اياها اكثر من مرة في ذات الكتاب .

ذكره ياقوت ٦/ ٧٦ فقال ان منه نسختين اوله وثانيه . ولا ندرى ماذا عنى ياقوت من هذا . أترى ان منه نسختين مختلفتين في التحرير ام انهما نسختان لكتاب واحد في الخط وذكره صاحب المروج ٨/ ٣٤ وذكره ايضا بن خلكان ١/ ٥٥٤ وكذلك السيوطي ص ٢٩ وكلهم مدحوه .

يوجد منه خمس مخطوطات . الاولى في الاسكوريال نمرة ٢/ ٧٢٨ . والثانية في لنينغراد من فهرس رون نمرة ١٥٨ . والثالثة في دامادزاد في اسطنبول نمرة ١٥١٤ . والرابعة في فاس نمرة ١٢٥٢ . والخامسة في الموصل نمرة ٢٠٨/ ١٥/ ١ . وللاطلاع على تفاصيل ضافيه عن هذه المخطوطات راجع " الجاحظ " من المجلة الاسيويه الالمانية .

طبع اربع مرات . الاولى في القاهرة في مجلدين . الاول منهما وقع في ٢٢٢ صفحة في كل صفحة ٢٩ سطرا في المطبعة العلمية سنة ١٣١١ واخره (وخطب الوليد فقال ان امير المؤمنين عبد الملك كان يقول ان الحجاج جلدة ما بين عيني الا وانه جلدة وجهي كله) . نسر غريب الفاظه لغاية المنزلة السابعة السيد حسن افندى الفاكهاني ثم اكمل ذلك الشيخ محمد الزهرى الغمراوى . اما الجزء الثاني فقد طبع سنة ١٣١٣ في ١٩١ صفحة . بدا بكتاب اللحن وانتهى باخر الكتاب الكامل وقد نقص منه الشرح الذى وجد في الاول .

الطبعة الثانية كانت في ثلاثة اجزاء اذ انتبه الناشر الى تقسيم الجاحظ الاصلي للكتاب وقع الجزء الاول منها في ٢١٨ صفحة ووقف على طبعه محب الدين الخطيب المحرر بجريدة المؤيد والمؤيد وانفق عليه محمود توفيق الكتبي في القاهرة في مطبعة الفتوح سنة ١٣٢٢ . الا انه لسوء الحظ محشو بالاخطاء المطبعية . اما الجزء الثاني فوقع في ٢٩٦ صفحة . انفق على طبعه السيدان الخطيب وعارف المحايرى . وتم طبعه في مطبعة الجمالية بحارة الروم من ذات السنة . اما الجزء الثالث فوقع في ٢٣٦ صفحة على نفقة المذكورين لكن في مطبعة الفتوح الادبيه .

الطبعة الثالثة كانت باشراف السندوبي الذى اهتم اهتماما كافيا باخراجه في احسن حلة . فشرح بعض غريبه وترجم لكثير من الاسماء التي وردت فيه . طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٢٦ في المطبعة التجارية ووقع في ٢٥٧ صفحة . اخره " فالبسوا جلد النمور " . وطبع الجزء الثاني سنة ١٩٢٧ في المطبعة الرحمانية في ٢٤٨ صفحة . اخره قول سعيد حفيد حسان بن ثابت .

وان امرا يمسي ويصبح سالما   من الناس الا ما جنى لسعيد .

في حين طبع الجزء الثالث في المطبعة الرحمانية ايضا سنة ١٩٢٧ في ٢٧٢ صفحة واخره خطبه للحجاج انتهي بها الكتاب .

٩٦

الطبعة الرابعة للسندوبي ايضا في ثلاثة اجزاء على النسق السابق . وقد فرغ منه سنة ١٩٣٦ . وهذه الطبعة وان كانت اكثر اناقة من سابقتها الا اننا اعتمدنا السابقة لقلة اخطائها بالنسبة لاخطاء هذه .

الا ان الكتاب مع كل هذه العناية لم يخل من اثار التشويش واليك بعض الامثلة اولا تشويش في اللفظ مثل سفار بدل صفار ج ١ ص ٩ وتلخص بدل تخلص ج ١ ص ٣٣ . ثانيا اضطراب في الاسماء مثل "ابو الصمت" بن ابي الجنوب بن مروان بن ابي حفصه بدل "ابي الصلط" ١/ ٢٩ كما يرى في الاغاني ج ٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٦٥ . ثم "الاسود ابن الكذاب العسلي" ١٣٧/١ بدل "الاسود الكذاب ابن كعب العنسي" كما يرى في تاريخ الطبرى ١/ ٦٧١ وفهرست ابن النديم ص ٩ ثالثا تزوير في الجمل وقد انتدينا الى واحدة وردت في المجلد الاول صفحة ٣٢ هذا نصها (وهكذا وقع في جميع نسخ الكتاب) . وهذه الجملة مما لا شك فيه دخيله . لكن ترى هل دسها النساخ ام غيرهم فلم نستطع ان نعرف لانعدام المخطوطات . وهي تخوفنا من وجود اخريات كثيرات غيرها لم نستطع التحقيق فيها لضيق الوقت . واخيرا تحوير في بعض المقاطع . وللتاكد من ذالك قارن بين ج ١ ص ١٧٠ من البيان ب ج ١ ص ٩٢ من نهج البلاغة .

كثير الذى قيل في الكتاب مما يدل على عظم اهميته . فالمسعودى قال (وللجاحظ كتب حسان منها كتاب البيان) . وياقوت قال (ان الاندلسي قال ان شهرة البيان وصلت الاندلس وعليه تتلمذ الكثيرون) . اما ابن خلدون فقد قال (سمعنا عن مشايخنا في مجالسهم ان اعمدة الادب اربعة احدها البيان والتبيين) . هؤلاء مدحوه لما راوا من قيم فيه . اما بن شهيد فقد ذمه اذ قال (انه ليس اكثر من جمع مشوش) . هذا من القدماء . اما المحدثون فقد اهتموا به اهتماما زائدا فكتبوا عنه كثيرا ودرسوه اكثر واخذوا منه فصولا خاصة بسطوها ونشروها لتعم قراءتها كما فعل الاستاذان النشاشيبي وبيدس في "مختار البيان" الذى نشرته مطبعة بيت المقدس سنة ١٩٣٤ في ٢٤٨ صفحة . وكما فعل قبلهما احدهم في مخطوطة وجدت في الاستانة قيل ان الجاحظ كتبها تلخيصا للكتاب وسماها "المختار من كلام ابي عثمان" طبعتها مطبعة الجوائب سنة ١٣٠١ وطبعتها القاهرة ثانية سنة ١٩١٠ . ونحن نعتقد ان الجاحظ من هذا التلخيص براء .

هذه نظرات عابرة في مخطوطات الكتاب ومطبوعاته وما قيل في اهميته نحب ان نلحقها باخرى في مادته لتتم للقارئ شبه صورة متكامله عنه ـ وان كنا لا ندعي الكمال لان ذلك يحتاج لكتاب قائم بذاته .

٩٧

الجزء الاول — الفكرة التي يدور عليها الحديث في جميع الكتاب هي " البيان والفصاحه واللسن" لا كما قيل من ان لا فكرة معينة فيه — وكل ما عداها هو تبين لها وتمثيل عليها . ولهذا اورد الرجل كثيرا من مستحسن اقوال الخطباء والشعراء والنساك والزهاد وغيرهم . كما اورد كثرا من مستقبح اقوالهم للتوضيح عن طريق المقابلة . ثم راح بعدها يسرد كثيرا مما قيل في مدح البيان واللسان الى جانب الكثير الاخر الذى قيل في ذمهما . وهذا قاده الى كثير من المسائل النقدية التي سنذكر جانبا منها في باب النقد .

ومن هذا نرى ان الرجل اولا حدد غايته وهي الكلام على البيان وما اليه . وثانيا وصف هذه الغاية بالكثير من الاقوال وثالثا راح يمثل عليها بكل ما وسعت جعبته من سلب وايجاب متجانس وغير متجانس حتى خيل لقصيرى الخيال الذين لم تتسع افاقهم سعة افاق الجاحظ — ان كلامه مقطع لا رابطة بينه . وللتدليل على ما نقول سنذكر فيما يلي فهرسا لما جاء في هذا الجزء

١ . عن البيان تعريفا وتحديدا وما اليه ص ١—٣٠ ثم ٦٨—٨٢ .

٢ . عن اللثغه وباقي عيوب اللسان ص ٣٠—٥٠

٣ . عن الخطابة والشعر واللسان ص ٥٠—٦٨ ثم ١١٨—١٤٣ .

٤ . في اقوال مختلفة من نساك ١٥٢ لنوكى ١٧١ لخطباء ١٧٧ لغيرهم ١٤٣—١٩٢ .

هذه صورة عامة مجملة تساعد القارئ على تفهم الفكرة التي نحن بصددها . وان كنا لا ننكر انه كان يخلط بين الفصول فيدمج جزئياتها بعضها ببعض .

الجزء الثاني — اذا كانت فكرة تعريف الناس بالبيان هي التي شغلت الجزء الاول فان فكرة التمثيل عليها من كل ما حفظ وسمع وعرف — هي التي طغت على الجزء الثاني . ولهذا سرد الرجل علينا فيه طائفة من اقوال الرسول والسلف الصالح ثم وقف طويلا على الخطابة والخطباء . وبعدها انتقل الى مختارات مختلفة من الصعب وضعها تحت عنوان واحد يكفي بالغرض لعدم تجانسها . فللزهاد نصيب كما للحمقا ولاقوال الخلفاء باب كما للنوكى . ولغيرهم وغيرهم كثير . وعلى كل فاننا نعتقد ان فيما يلي كفاية لتنوير السبيل امام القارئ المستجد . فالجاحظ اتى على ما يلي في هذا الجزء .

١ . طائفة من اقوال الرسول وهناته واقوال اصحابه وتابعيه ص ١—٩٧ .

٢ . طائفة اخرى من الخطب المنسوبه وغير المنسوبه الطويلة وغير الطويلة ص ٩٧—١١٦ .

٣ . ثم بمقطعات لا حصر لها ركز فيها على الالغاز ١١٦ و صفة الرائد ١٢١ واخبار قصيرة ١٢٧ واشعار متفرقة ١٣٢ وخطب مجزوءة ١٣٤ وحكم متنوعة ١٤٧ ونوادر طريفة ١٥٣ ولحون ظريفة ١٥٥ ونوكيات مضحكة ١٦٤ وضروب من العي ١٦٩

واخرى من الحمق ١٧٥ وثالثة من النوك ١٨٣ ورابعة من كلام العقلاء ٢٠٤ والخطباء ٢١٢ . تثير الضحكة تارة وتلهب عصب الفلسفة العميقة في النفس تارة اخرى استغرقت جميعها ما بين صفحتي ١١٦ -٢٤٨ .

الجزء الثالث - نستطيع ان نقسم هذا الجزء الى ثلاثة فصول متباينة في موضوعاتها موحدة في غرضها ونعني به التمثيل على البيان وما اليه . الاول كتاب العصا والثاني كتاب الزهد والثالث كتاب متفرقات في اقوال مختلفة .

١ - اراد الرجل ان يرد على الشعوبية فبدأ بسرد مطاعنها على العرب مثل القتال بالليل ومعرفة الكمين واستعمال الركب والمفاخرة بالرماح وما اليها . ثم ما زال حتى استطرد من الرماح الى العصا لقرب الشبه ثم اخذ في كلام مطول مقطع عن كل ما يمكن ان يورد في باب العصا . فتكلم عن مَن حمل العصا . ومَن قاتل بالعصا . واى الخيل سُميت بالعصا . ثم راح يطنب في استعمالاتها وفي اصلها وفي امثالها وفي انواعها وفي كثير من امثال ذلك متذرعا تارة بمَثل سائر او شعر دائر او قصة سمعها ،حتى اتى على اخر الكتاب اى ص ٧٢ .

٢ - اما كتاب الزهد فاقصر من الاول واقل تنوعا منه . ففي حوالي ٣٠ صفحة سرد علينا جانبا عظيما من اسماء واقوال زهاد كثيرين . ويُلاحظ على مختاراته انه لم يكن متعصبا زميتا بل كان حرا معتدلا . تارة ينقل ما يحث على الزهد وترك الدنيا واخرى ينقل ما ينفر من الزهد ويُحسّن طلب الحياة . وفي كلا النقلين يحس القارئ بذات الحرارة .

٣ - هذا من حيث الاولان اما الثالث والاخير اى كتاب المتفرقات فهو مجموعة اقوال واشعار وخطب وقصص ونوادر لا يمكن ان يجمعها عنوان غير " متفرقات " . الا انه يبرز من بين هذه المتفرقات فصل في الادعية واخر في بني امية وثالث في بني العباس ورابع في الشعر . ولكي تكتمل صورة الجزء الثالث واضحة نقول ان مادته تتلخص في ثلاثة كتب وقعت كما يلي =

اولا - في العصا بين ١-٧٢
ثانيا - في الزهد بين ٧٢-١٢١
ثالثا - في متفرقات بين ١٢١-٢٧٢ .

اذا كانت قيم "الحيوان" اكثر من ان تحصر لتنوعها وسعة افاقها ، فان للبيان قيما محدودة محصورة واضحة لكثرة ما ركز عليها صاحبنا . اولها القيمة الادبيه وذلك لما جاء فيه من

نصوص نثرية من خطب وقصص وامثال واقوال . ولما جاء فيه من نصوص شعرية من قصائد مطولة ومقطعات مختصرة . ولما ورد فيه من لمحات نقدية متفرقة سنحاول جمعها والكلام عليها في باب النقد . واخيرا شذرات لغوية تسربت بالتضاعيف سنجمعها عند الكلام على لغة الرجل . وثانيها القيمة الدينية وتظهر بارزة جلية في كثرة الاقوال الزهدية والفكرية والفقهية والتفسيرات القرانية التي اوردها في الكتاب خصوصا في الباب الذى خصصه للزهد . مما سنتكلم عليه في ببعض التفصيل عند كلامنا على دين الرجل ونزعاته وميوله الخاصة به . وثالثها القيمة التاريخية لما ذكر مطولا عن بني امية وسرد مفصلا عن بني العباس وترجم مختصرا لكثير من الشعراء والادباء . واخيرا لما نقل من كتب ومكاتبات وتواصي تعد بحق نعم الاصول التاريخية .

٣ ـ البخـــــــــلاء

اطـرف كتبه واخفها روحا وادقها وصفا واعمقها موضوعا . قصد فيه الى البخلاء يعالج مشكلتهم ويورد ارائهم ويرد عليهم ويتهكم بهم حتى لا ينتهي قارؤه منه الا وعلى لسانه قاتلك الله يا ابا عثمان ما اظرفك ولعن الله البخل واخزى الحرص وجنبنا الطمع .

طُبع الكتاب لحد الان اربع طبعات اطلعت عليها جميعا . الاولى في مطبعة لايدين سنة ١٣١٩ . اشرف عليها السيد نون فلوتين . وقد جاء مضبوطا ومدققا فيه على عادة المستشرقين لولا نقصان الشرح والارشاد . والثانية في مطبعة الجمهور بمصر سنة ١٣٢٣ على ورق اصفر في ٢٠٥ صفحات . التزم طبعها السيد ساسي والحقها بفهرستين للقوافي والاسماء السيد محمد مسعود المحرر بجريدة المؤيد . اما عن اغلاطها وتشويهاتها فلا تسل . والثالثة في مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٣٥٧ في ٣٧٥ صفحة . اشرف على طبعه نخبة مختارة من اعضاء المجمع العلمي هناك . وهذه الطبعة جاءت احسن من سابقتها اذ قدم لها الاستاذ احمد امين بمقدمة تلقي ضوءا كبيرا على مادة الكتاب وتساعد القارئ على تفهم روحه ، هذا بالاضافة الى اهتمام الناشرين بتحقيق كثير من المفردات ومقارنتها حسب ورودها في شتى المخطوطات . كما اعطوا عناية خاصة بتفسير اكثر الغريب . ووضع عناوين صغيرة في الهامش تمكن المطالع من فهم ما يريد ان يقول الكاتب بسرعة . هذا الى فهارس كثيرة الحقت باخره واستغرقت بين ص ٣٧٩-٤١٣ جاء فيها فهرس بالموضوعات ص ٣٧٩ واخر بالايات الكريمة ٣٨٩ وثاني وثالث بالاحاديث الشريفة ٣٩٠ ورابع بالامثال ص ٣٩٢ وخامس باسماء الاطعمه والاشربه ص ٣٩٥ وسادس باسماء الاعلام ص ٣٩٦ واخير بالكتب ص ٤١٢-٤١٣ .

نقول لقد اهتم القوم اهتماما كبيرا لاخراج الكتاب على احسن صورة ولكن " العين بصيرة واليد قصيرة " كما يقول المثل . فكثير من المفردات الصعبة لم يُفَسَّر . وكثير من الاسماء الغريبة لم يستعرض له . كما ان كثيرا من العناوين كانت مضللة ، عدمها خير منها . لهذا قام الاستاذ الجارم وصديقه العوامرى بطبعه طبعة رابعة في دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ . وقد تم لهما ذلك في جزئين كل منهما في حوالى ١٥٠ صفحة . ولا يسعنا الا ان نقول ان هذه كانت احسن طبعاته بالرغم من اننا اعتمدنا الطبعة الثالثة في ترتيبنا لان هذه الاخيرة وقعت بايدينا متاخرة . وقد ترجم السيد فون ريشر منه قسما كبيرا في سلسلة تراجمه لكبار ادباء العربية بين صفحتي ٢٦٧ – ٤٨٨ .

والان لماذا الف الجاحظ هذا الكتاب . ومتى الفه . وما هي موضوعاته .

اما لماذا الفه . فجوابا على سائل ارسل له يذكر انه قرا كتابيه في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل وانه اعجب بهما ص ٣ . وطلب منه ان يحدثه ساخرا مستهزئا عن البخلاء وان " وان يبين له ما الشيء الذى خبل عقولهم وافسد اذهانهم ... ص فعرفوا عيوب الناس ولم يعرفوا عيوب انفسهم ص ٧ ويرجوه ان يذكر له من احتجاج الاشحاء ونوادر البخلاء ما يطيب به الحال ص ١٠ ." فاجابة على ذلك كتب الكتاب .

اما متى الفه ففيه اختلاف . فقد قال الاستاذ احمد امين في ضحى الاسلام ص١١٤ " انه الفه ايام المهدى الكريم لينوه بايام المنصور البخيل ". وعلى هذا فالكتاب قد كتب في ايام المهدى على راى الاستاذ احمد امين . الا اننا نرى ان الرجل كتب كتابه في تاريخ متاخر . فالجاحظ لم يذكره في الحيوان ولا في البيان ولهذا فمن المرجح ان يكون قد كتبه بعدهما. ويؤكد هذا قوله في ص ١٩٦ من الكتاب نفسه على لسان بخيل اوقعته الايسام المنحوسة ذات ليلة في داره وعاقه المطر عن الخروج ، يحاوره هذا البخيل لئلا ياكل مما اتى به من جام اللبا وطبق التمر (فلما مددت قال = يا ابا عثمان انه لبا وغلظه وهو الليل وركوده . ثم ليلة مطر ورطوبه . وانت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج وما زال الغليل يسرع اليك ...) والطعن في السن والشكوى من الفالج لا تكون (خصوصا وان ذكر الكتاب لم يرد في الحيوان ولا في البيان) الا بعد سنة ٢٤٧ اى في الوقت الذى تراجع فيه الجاحظ للبصرة يشكو المرض وكبر السن . وعلى هذا يكون قد كتبه بعد سنة ٢٤٧ لا كما خيل للاستاذ احمد امين .

هذا عن وصفه العام وطبعاته ومخطوطاته والدافع لكتابته ووقتها . اما عن مادته فاليك

شبه فهرس بها . ولنذكر ان فهرست البخلاء من اسهل الامور لقلة استطراد الجاحظ فيه

(١) — مقدمه في الدافع للتاليف وفائدته وقصده منه ونظرة في الضحك والبكاء ٣—١٥ .

(٢) — ثلاث رسائل في البخل . الاولى لسهل بن هارون بين ١٥—٣١ . والثانية لابي العاص بين ٢٤٣—٢٦٦ . والثالثة لابن التوام بين ٢٦٦—٣٢١ .

(٣) — قصص متفرقة في البخل اشهرها قصص المسجديين واهل خراسان وغيرهم ٣١—٢٤٢

(٤) — فيل فصل في اطعمه العرب بين ٣٣١ —٣٧٥ . وهو اخر الكتاب .

اما قيمه فاحرى بالذكر بينها الا اولا تلك المقدره على تحليل النفس البشرية ومعرفة دخائلها . ثانيا تلك المهارة في الغمز واللمز والسخرية من الكثيرين وخصوصا من الاصدقاء دون ان يثير حفيظتهم . واخيرا تلك الغاية النبيلة في معالجة مشكلة خلقية او مشكل اجتماعية طالما أثّرت في سير المجتمع . بالاضافة الى نواحي اخرى اقل من هذه اهمية برزت اوضح في باقي كتبه فلا داعي لاعادتها.

لحد الان استعرضنا بشبه تفصيل كتبه الرئيسية الثلاثة . نعني الحيوان والبيان والبخلاء . والان ننتقل للكلام على رسائله الثانوية مما استطعنا الوصول اليه . هذه الرسائل طالعناها اولا في هامش الجزء الثاني من كامل المبرد طبع القاهرة سنة ١٣٢٤ . وثانيا في مجموعة رسائل احتوت احدى عشرة رسالة من طبع القاهرة سنة ١٣٢٤ ايضا . وثالثا من مجموعة رسائل اخرى احتوت على ثلاث رسائل نشرها في القاهرة السيد يوشع نونكل سنة ١٣٤٤ . ورابعا من مجموعة رسائل ثالثة احتوت ثلاثا نشرها السيد فون فلوتن في لايدن سنة ١٩٠٣ . وخامسا من طراز الخفاجي الذى نشر في القاهرة سنة ١٣٢٢ . وسادسا من مجموعة رسائل نشرها السندوبي في القاهرة سنة ١٩٣٩ . وسابعا من مراجع اخرى متفرقة تجدها عند وصف كل كتاب مثل صبح الاعشى ومجلة المجمع العلمي العربي في الشام ورسائل اخرى نشرت كل على انفراد مثل الحنين الى الاوطان والدلائل والاعتبار وسلوة الحريف والعرافة والزجر على مذهب الفرس وغيرها كثير . رتبناها على حروف الهجاء ليسهل الرجوع اليها عند المراجعة .

. . .

١٠٢

١ - استنجاز الوعد = رسالة قصيرة منشور منها فصول في المجموعة بين ١٧٣ ـ ١٧٧ وفي هامش الكامل الثاني بين ٢٢٠ - ٢٢٧ . مخطوطتها موجودة في الملحق البريطاني نمرة ١١٢٩ / ٢.١ وجهها الى ابن ابي الفضل بقوله (كان ابو الفضل اعزه الله على ما قد بلغك من البر بالوعد وسرعة الانجاز ... وتقول العرب من اشبه اباه فما ظلم [1]) يستجزه وعدا يظهر انه كان قد قطعه له . ولا قيمة خاصة للرسالة .

٢ - استحقاق الامامة = منشورة في هامش الكامل الثاني مرتين . الاولى بين ٢١٢ - ٢٢٠ والثانية بين ٢٦٩ - ٢٩١ . ومنشورة في رسائل السندوبي بين ٢٤١ - ٢٦٠ ومترجمة في ريشر بين ١٦٨ - ١٧٩ . ومخطوطتها موجودة في الملحق البريطاني نمرة ١١٢٩/ ٢٠ . ومن المنشور نلاحظ ان الرسالة هي ذاتها التي سترد بعنوان "بيان مذاهب الشيعة".

٣ - استطالة الفهم = منشور قسم منها في طراز الخفاجي في ص١٠٤ . ولم نقع على ذكر لمخطوطتها ... جعلها الخفاجي محور كلامه في مجلسه السادس في جملة كلام من كلام الحكماء والشعراء . وقال (صنف الجاحظ في هذا " اى في موضوع المجلس" كتابا اسماه استطالة الفهم . ولهوشنج الحكيم كتاب يسمى "جودان - خرد" مدحه الجاحظ وفيه كلام جليل . ولابن مسكويه كتاب مثله . وقفت عليها جميعا واخترت منها نبذا جميلة وحكما رفيعة لهذا المجلس [2]) .

٤ - بني اميّة = نشرها السندوبي في رسائله بين ٢٩٢ - ٣٠٠ . ولم نقع لها على مخطوطة ... انما المنشور منها يشير الى شدة كره الرجل لبني امية . حتى ان اقل ما توصف به انها شواظ من نار سلّطه الجاحظ عليهم . فما ترك لهم مكرمة الا انتقصها ولا نقيصة الا ارسلها في البوق .

٥ - بيان مذاهب الشيعة = منشورة في المجموعة بين ١٧٨ - ١٨٥ ومترجمة في ريشر بين ١٩٧-٢٠٢ . ولم نقف لها على مخطوطة . وقبل الكلام عليها نحب ان نشير الى ان هذه واستحقاق الامامة التي تكلمنا عليها تحت نمرة ٢ رسالة واحدة تعدد عنوانها .

... قسّم فيها الشيعة لثلاثة = روافض وشيعة واخرون لا قيمة لهم ص١٧٨ . ثم تكلم عن سبب إجماعهم على تأميم علي ص١٧٨ . وابدى رايه في ضرورة وجود الامام ص ١٨٤ . ووضّح موقفه من العلاقة بين الامامة والنسب ص ١٨١ ... ومنها يُشتم ان الجاحظ يرى بضرورة الامامة

على حد القول (لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم) وثانيا انه يُقر بضرورة وجود الطبقات على حد التعبير (ولا سراة اذا جهالهم سادوا) . وقبل ان نتركها نحب ان نشير الى انها فصول مختاره وليست رسالة كاملة .

٦ - التبصر بالتجارة = رسالة قصيرة منشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بالشام مجلد ١٢ بين صفحتي ٣٢٦-٣٥١ . ولم نقع لها على مخطوطة . . . كتبها الجاحظ ردا على سائل ساله ذلك . فذكر له فيها (كيف يمكنه ان يميز الغث من السمين والذهب الخالص والفضة المغشوشة لئلا يخدع ص ٣٢٧ . وغيرها من الجواهر ص ٣٢٨. ثم انتقل ليحدثه عن معرفة احسن الطيب والعطر والروائح الطيبه ص ٣٣٢. ثم تطرق الى احسن ما يُجلب من البلدان المختلفة مثل السلع والجوارى ص ٣٤٠. ثم احسن ما ينتقى من الطيور والجوارح ص ٣٤٨. وأنهى الرسالة بحكمة جميلة هي (وزعم سابور الملك انه ليس ينبغي لعاقل ان يعتمد بقول سبعة من الناس = بقول السكران والدلال والمضحك والعليل والعراف والنمام والنساء ص ٣٥١) . وقيمة الرسالة في نصائحها الاقتصادية والتجارية . اما ما يستنتج منها فهو ان الجاحظ اذا صحت نسبتها اليه كان على جانب كبير من المهارة والحذق بالتجارة . ولعل ة ولعل "لبيع السمك والخبز بسيحان" اثر في هذه الدربه .

٧ - التربيع والتدوير = منشورة اولا في المجموعه بين ٨٢-١٤٢. وثانيا في فلوتن بين ٨٦-١٥٧ وثالثا في رسائل السندوبي بين ١٨٧-٢٤١ . ورابعا في هامش الكامل الاول بين ٤٠-٩٧ واخيرا مترجمة في ريشر بين ٢١٢-٢٥٥. اما مخطوطاتها فلم نعثر منها الا على واحده موجودة في ملحق المتحف البريطاني تحت نمرة ١١٢٩/٣ ... في هذه الرسالة يقول الجاحظ ان ابن عبدالوهاب لا يفهم نفسه ولا يعرف حدوده وقد ازعج الناس منه ذلك . فعلينا تقع تبعة افهامه نفسه وايقافه عند حده ص ٨٢. والطريقة الى ذلك بسؤاله اسئلة من كل ما هب ودب يعجز الفلم عن الاحاطة بها ص ٩٠ وما بعدها . لكن يظهر ان تعجيزه بهذه الاسئلة لم يكفِ ولذا بدلاً من السخرية راح يكيل له بالصاع الكبير ص ١٠٠ وما بعدها . لكنه عاد يعتذر له عن شدته في حملته ويقول له ان النية في كل ما قال كانت صافيه ص ١١٢ ثم اخذ في تمجيده وتمليس اهابه كما يقولون ص ١١٣ . وهنا استطرد في المزاح مبينا ضرورته وحدوده ص ١١٠ -١٢٢ وفي المراء كذلك ص ٨٤ ثم اخذ يحذره وينذره فكانه يقول له " ان نيتي صافيه فحذار ان تغضب والا ... ص ١٢٦ وما بعدها " .

وميزة الرسالة اولا بدلالتها على سعة افاق الجاحظ . ولو لم يكن له الا هذه الاسئلة

الكثيرة لكفاه مقدرة . ثانيا بدلالتها على قوته وعمق قدمه في السخرية وحسن التصرف بها .
واخيرا بانها قطعة كاملة تُستنتج منها كل صفات اسلوبه الانشائي لانها تعبير روحي عاطفي .

اما متى كتبها . فنظن ان ذلك كان منه في طور الشيخوخة لقوله (وقد تعجب اناس من اطالتي ومن كثرة مسالتي وتعجبي من تعجبهم اشد والذى كان من افكارهم اعظم ولو رغبوا في العلم رغبتي وراوا فيه مثل رايي وكانوا قرءوا كتابي اليك في شبيبتي وايام شباب رغبتي لاستقلوا ما استكثروا ... ص – ١٣٦ .) واذا كان يستنتج من هذا شيء فهو اولا ان التربيع ليست الاولى التي يكتبها لابن عبد الوهاب بل الثانية . وثانيا ان الاولى كانت في عهد الشباب وان هذه في عهد الشيخوخة

٧ – تفضيل النطق على الصمت = نشرت في المجموعة بين ١٤٨ – ١٥٤ . وفي هامش الكامل الثاني بين ٢٢٧–٢٣٧ ومترجمة في ريشر ١٨٢–١٨٦. ومخطوطتها موجودة في ملحق المتحف البريطاني نمرة ١١٢٩/ ٢٢.... كتبها ردا على من ارسل اليه يفضل الصمت . وبراهينه على تفضيل النطق هي اولا انه واسطة التعبير عن الخاطر ص١٤٩ وثانيا ان لولاه لما وصلت البشر رسالة الاله ص ١٤٩ واخيرا المدح الكثير له ممن سبق ص ١٥٢. لا ميزة خاصة للرسالة اللهم الا ظهور روح منطقية قوية فيها ص ١٥٠ .

٨ – الجد والهزل = منشورة في مجموعة بول كراوس والحاجرى بين ٦١–٩٩. ومن مخطوطاتها ثلاث الاولى في المتحف البريطاني نمرة ١١٢٩/ ١٣ والثانية في داماد ابراهيم نمرة ٩٤٩/ ٦ والثالثة في الموصل نمرة ٢٦٥/ ٩ ... (يظهر) ان الجاحظ تشاجر وابن الزيات فهضم الاخير بعض حقه وجفاه . فاستثار هذا عاطفته واستشاط غضبه فكتب الرسالة تارة يهزل بما فعل ابن الزيات وتارة يجد في تانيبه . وعلى كل فملخص ما قال اولا ان لا حق لك يابن الزيات في كل هذا الجفاء ص ٨٨ لان ذنبي ابسط من ان يذكر ص ٨٧ . انما والحق يقال انت رجل اهوج تثور لطيران ذبابة ص ٦٩. وجميع الرسالة على هذا المنوال بزيادة عنصر الهزل ... وعلى هذا فمن الطبيعي ان يكون قد كتبها ايام التحاقه بابن الزيات لهذا الغرض الذى ذكرنا ... اما ميزتها الخاصة فهي قدرة الرجل على خلط الجد بالهزل في قالب يستسيغه ابن الزيات ويرضى من بعده عليه .

٩ – الحاسد والمحسود = منشورة في المجموعة بين ٢–١٣ وفي هامش الكامل الاول بين ٢–١٦ ومترجمة في ريشر بين ١٨٠–١٨٢ ويوجد لها مخطوطة في ملحق البريطاني نمرة ١١٢٩ / ١ .

بعد ان عَرَّف الحسد ص ٥ مثل عليه ص ٧ ثم ذكر ان الكبر والغل وانكماش الحاسد من مرافقاته ص ٧-١٢ . وانتهى بنصائح لسائله ان لا يامن الحسود ص ١٠ وان لا يخالطه عندما يعرف منه ذلك ص ٩ ... ولا ميزة خاصة للرسالة اللهم الا في الوصف الدقيق للتغير الخلقي الذى يصيب الحسود . ولعل لكثرة روئيته ذلك في احساده اثرا . نهر

١٨٧

١٠ - الحجاب = منشورة في طراز الخفاجي بين ٧٣-٩٧ وفي رسائل السندوبي بين ١٥٥- غرضه جمع ما قيل في الحجاب ص ٧٣. والحجاب يعني حجاب القصور لا النساء . ويستنتج منه انه ضده . اما المادة التي اتى عليها ناليكها = ما قيل في النهى عنه ص ٧٣ . من عُهد الى حاجبه ص ٧٤ . سبب الحجاب ص ٧٦. من ينبغي ان يُتَّخَذ للحجاب ص ٧٦ مَحل الحاجب وموقفه ممن يحجبه ص ٧٧. من عُوتب على تحجابه او هجي به ص ٧٨. من عاتب على خجابه والاذن لغيره ص ٩٣. من مُدح برفع الحجاب ص ٩٥. من أمل حجابه ولم يُضَمْ عليه ص ٩٦. وآخيره " وهذا اخر كتاب الحجاب " ص ٩٧. .. لقد شك السندوبي في صحة نسبته الى الجاحظ . اما نحن فلا نشك . اولا لان كثيرا من مادته قد ورد في البيان والتبيين . وثانيا لان اسلوبه وكل ما جاء فيه جاحظي صرف . ولا نعرف السبب الذى دعا السندوبي لمثل ذلك ... اما قيمة "الحجاب" فاجتماعيه اخلاقيه كما يظهر من البحث . ولا نعرف لا متى ولا لماذا كتبها .

١١ - حجج النبوه = منشورة في هامش الكامل الاول بين ٢٧٥-٢٩٦ ثم في هامش الكامل الثاني بين ١-٥٦. ثم في رسائل السندوبي بين ١١٧-١٥٤. واخيرا مترجمة في ريشر بين ١١٢-١٥٩. اما من مخطوطاتها فلم نجد الا التي ذكرت في ملحق المتحف البريطاني تحت نمرة ١١٢٩/٨. . جمع هذه الحجج لتنوير الجاهل وافهام العالم على حد تعبيره ص ٧ . ثم اخذ يتكلم عن ضرورة اختلاف طباع البشر لضرورة صلاحهم وليبان فضل العقل ص ٢٣ فقال (سبحان من حبب الى احدهم ان يسمي ابنه محمدا وحبب الى اخر ان يسميه شيطانا وحبب الى اخر ان يسميه عبد الله وحبب الى اخر ان يسميه حمارا ... لان الناس لو لم يخالِف بين عللهم اختيارُ الاسماء وجاز ان يجتمعوا على شيء واحد كان في ذلك بطلان العلامات وفساد المعاملات ص ٣١). الا انه يرى ان هناك امورا يجب ✱ ان يتفق الكل فيها مثل الاقرار بنبوه محمد ص ٤٥ كما ان هنالك امورا اجمع على الخطا بالايمان بها مثل تاليه عيسى ص ٤٨... والكتاب كما ترى قيمته دينية صرف ومنطقية كلامية بالدرجة الثانية ... ويلاحظ على صاحبه شبه تقرب من الحق لا يقال عنه تزمت او انقفال .

١٣ - الحنين الى الاوطان = منشورة لوحدها في رسالة كاملة نشرها وراجعها الاستاذ طاهر الجزائري ووقف على طبعها عبد الفتاح قتلان في مطبعة المنار في القاهرة سنة ١٣٣٣ . والرسالة في مجموعها عبارة عن مجموعة ماثورات شعرا ونثرا في الحنين الى الاوطان . اما الدافع الى كتابتها فهو ملاحظة الجاحظ ان الانسان مهما تظاهر بالاستغناء عن الوطن فانه يحن اليه حنين الابل الى اعطانها ص ٧ .

١٤ - الدلائل والاعتبار = نشرها في رسالة كاملة الاستاذ محمد راغب الطباخ سنة ١٣١٦ في المطبعة العلمية بحلب في ٧٨ صفحة . والرسالة بكاملها عبارة عن نظرات في كل ما يحيط المرء من ماء وهواء ومخلوقات حية وغير حية والاستنتاج منها انها صنع خالق واحد مدبر يسير هذا الكون لغاية عاقلة .

١٥ - ذم اخلاق الكتاب = نشرت ضمن رسائل فنكل بين ٤٠-٥٢ ثم في ريشر بين ٦٧-٧٨ . وقد عثرنا من مخطوطاتها على اثنتين الاولى داماد ابراهيم نمرة ٩٤٩/ ٣ والثانية في الموصل نمرة ٢٦٥/ ١٣٠٠٠ . كتبها ردا على من ارسل له يمدح اخلاق الكتاب . وذلك من قوله " حفظك الله وابقاك وامتع بك . قرات كتابك ومدحتك اخلاق الكتاب وفعالهم ووصفك فضائلهم . وفهمته" ثم ياخذ في الهجوم المر والنقد اللاذع . فيذكر كثيرا منهم ويمثل على عيوب كل من ناحية . قال ان العظام لم يكونوا كتابا ص ٤٢ ثم راح يرميهم بكل خلق صغير مثل الذل . ومن امثلة ذلك قوله (سعد ابن ابي سرح كان اول مرتد . ومعاوية بن ابي سفيان كان اول ثائر . وعثمان ابن عفان ذمه من ذمه من اولائائه . وزياد بن ابيه ظهرت الجبرية في ايامه ص ٤٠ . وابن المدبر كان مثلا في الخب والمكابرة ص ٤٥ . وسالم كان اشد الناس غلطا واضعفهم رايا . وعبد الحميد بتحامله على نصر بن سيار انفضت عليه خراسان . وعبد الله بن المقفع اغرى ببني العباس. وعبدالله بن علي كان جزاؤه القتل . اما يونس بن ابي فروة فقد كان زنديقا . ويزد ابعادان كان ~~ثلنويا~~ ثنويا . والطوسي انتشرت معه السعاية ضد المامون في العراق . وابو عباد كان سخيفا حديدا . في حين كان رجاء بن ابي الضحاك اظلمهم واغشهم ص ٤٧ . وابن يزدان كان اشقاهم . اما ابراهيم بن اسماعيل بن داود واحمد بن يوسف فقد امتحنهم المامون فعسا واستنهضهما في الاعمال ففشلا ولم يعملا على شيء حتى هلكا . واحمد في نفسه كان مافونا في حين ان ابراهيم كان حاسبا فقط . والحسن ابن ابي شرف بهدله غروره ص ٤٨ . والان أنتقل الى غيرهم

تجد حميد بن عبد الحميد تسامح نافسد ومحمود بن عبد الكريم تملك نظلم فاكتسب السبة اما زيد بن ايوب فقد عمل في ديوان الجند اربعين سنة صار في اخر ايامه قوادا ليحيي بن اكثم ص ٥٠) . الى هذه الدرجة وصل به التنقص والى هذا الحد امتد به الهجوم على الكتاب . . . والان لماذا كتبها . لا نعرف . اللهم الا انها جواب لذلك السائل . الا اننا نضيف ان الدافع النفسي كان كرهه وحقده عليهم بعد الخروج من الديوان . .. اما قيمتها فتشعبة . فهي جميلة لاظهار طول نفس الجاحظ في الهجوم ودقته في النقد وبراعته في السخرية خصوصا في قوله (يتوهم الواحد منهم اذا عرّض جبته وطوّل ذيله وعقص على خدعه صدغه وتحدف الشابورتين على وجهه ، انه المتبوع ليس التابع وانه المليك فوق المالك . ص ٤١)

١٦ ـ الرد على النصارى = نشرت في مجموعة فنكل بين ١٠ ـ ٣٨ وفي هامش الكامل الثاني بين ١٤٨ ـ ١١٩ ١٢١ . اما مخطوطاتها فلسوء الحظ لم نقع منها الا على واحدة في ملحق المتحف البريطاني تحت نمره ١١٢٩ / ٢٨ ... قال الجاحظ "(اما بعد فقد قرات كتابكم . وفهمت ما ذكرت من مسا ئل النصارى قبلكم . وما دخل على قلوب احداثكم وضعفائكم من اللبس . والذ ى ختمتوه على جواباتهم من العجز . وذكرتم انهم قالوا ــ ــ وانهم زعموا ــ ــ . اما نحن فستقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم وفيما لا يقع اليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة والحجج القوية والادلة الاضطرارية ... ونسأله تعالى القصد في القول والعمل وان يكون ذلك لوجهه ولنصرة دينه . انه قريب مجيب ص ١٠ ثم ١٣) . هذا هو غرضه . رجل كاتبه يشكو صعوبة اسئلة النصارى لقومه ويستعين به عليهم . فيعده بالاجابة لكن كيف ذلك .

اولا = اورد مسائل النصارى من حيث انكارهم تَكَلُّمَ عيسى في المهد ص ١٢ وانهم لم يتخذوه الها ص ١٠ ومن حيث تهكمهم بالمسلمين اذ قالوا ان فرعون خاطب هامان قبلاً وهو غير ممكن ص ١١ ومن حيث ان كثيرين قبل ذكريا سموا باسمه ص ١١ وغيرها كثير .

ثانيا = اورد فصلا في انخداع العامة وقال ان سبب ذلك كره الناس لليهود لطول جيرتهم ص ١٣ ثم لغلط هاته الناس في تاويل اية ابوة الله ص ١٤ ثم لان المسيحيين ذوو حضارة قديمة ص ١٥ واخيرا لضيق افاق اليهود ص ١٦ .

ثالثا = اتبع هذا الفصل بطعن ايجابي في النصارى . فقال ان دينهم غامض وفاسد ص ١٨ كيف لا ولم يتفقوا على صيغة واحدة للانجيل ص ٢٠ وقال هم قليلوا رحمة لانهم اقروا الخصاء ص ٢١ ثم انهم يستعملون الحِيَل لافساد ديننا على عامتنا فلنحذر فسادهم ص ١٨

رابعا = بدأ بالرد المقصود . فدار حول حكاية إحياء الموتى التي يدعيها

١٠٨

النصارى ونقدها ص ٢٣ . ثم افاض في مسألة خلق الله للناس وأبانَ فسادها ص ٢٥ ثم اطال في ابوه الله واجاد وابدع في دحضها ونقدها ص ٢٥-٣٣.

خامسا = بعد ان فرغ من حساب النصارى مال على اليهود فذكر افتئاتاتهم على المسلمين خصوصا في قولهم ان الله يستقرض من الناس (ومن يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له) وفي قولهم يد الله مغلوله وفي قولهم ان عزير ابن الله .

سادسا = وبعد هذا اورد فصلا جميلا حشاه باسئلة طريفة طلب من النصارى واليهود الاجابة عليها ان كانوا حقا على حق . تذكرنا باسئلته لابن عبد الوهاب .

هذه هي الرسالة . ولنذكر انها فصول مقطعة وليست كاملة . وكم كنا نود لو كانت كاملة لانها ذات قيم خاصة . اولها استعمال المنطق الصرف في الحجاج . وثانيها اجابة دقيقة على غمزات الكفار للدين الاسلامي . وثالثها ايراد غمزات الجاحظ لاديانهم . مما يشير الى قوة الحجاج الديني في تلك الايام . لكن يا ليت ...

١٧ - الزيدية والرافضة = منشورة في هامش الكامل الثاني بين ٢٩١-٣٠١ . وهي ذاتها المنشورة في مجموعة فنسكل بعنوان " بيان مذاهب الشيعه " .

١٨ - سلوة الحريف = وعنوانها الكامل هو سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف . نشرتها مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ مع رسالة اخرى في الشيب والشباب . وقد استغرقت بين صفحتي ١٠٢-١٣١. اما موضوعها مناظرة بين صاحب الربيع وصاحب الخريف لتبيان محاسن وفضائل كل منهما على حدة .

١٩ - الشارب والمشروب = منشورة اولا في هامش الكامل الثاني بين ٢٥١-٢٦٩ وثانيا في رسائل السندوبي بين ٢٧٦ و ٢٩٦... هذه الرسالة نشرة بهذا العنوان وهي تحوى كل ما قيل له من كتب في السكر . واليك السبب . قال في المقدمة =(ساتكلم لك عن الشارب والمشروب وما فيهما من المدح والعيوب وساميز لك بين الانبذة والخمر وان اوقفك على حد السكر . وان اعرفك السبب الذى يرغب من اجله في شرب الانبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبيذ الاوعية) ... ومن مجموعها يستنتج اولا انه يحرم الخمر ص ٢٦٢ . لكنه يحلل النبيذ ص٢٦٣ وان له اطلاعا واسعا على كل الاشربة لانه عدد كثيرا منها . كما ان له نفسا محللة مدققة

نفذت الى اعماق نفس الشارب فوصفتها باسلوبه الشيق الجميل . في الرسالة كثير من السجع لم يعودنا اياه الجاحظ. وفيها تبرز ناحيته الدينية الحرة واعتماده على العقل دون غيره في حل قضايا الدين .

٢٠ – رسالة الشكر = منشورة في صبح الاعشى جزء ١٤ ص ١٧٣–١٨١. قدم لها بمقدمه في ماهيه الشكر ثم اخذ في سرد اربعة اركانه . وهي على رايه العلم بموقع النعمة من المنعم اليه ثم الحرية الباعثة على حب المكافاة واستحسان المجاراة ثم الديانة بالشكر والاخلاص للمنعم واخيرا وصف ذلك الاحسان باللسان البين . اخرها " وبقلة العجب هيبة". وقد وجهها لو زيرالمتوكل كما قال موءلف الكتاب. اما من هو ذلك الوزير فلا نعرف .

٢١ – صناعات القواد = منشورة في الطراز بين ٦٧–٧١ ثم في رسائل السندوبي بين ٢٦٠–٢٦٦ ومترجمة في ريشر في ص ٥٢٧ وما بعدها .

٢٢ – صناعة الكلام = منشورة في هامش الكامل الثاني بين ٢٣٨–٢٤٦ ومترجمة في ريشر بين ١٥٩– ١٦٣+ والمنشور منها لسوء الحظ نبذ مشوشة من مجموعها نستنتج ان " صناعة الكلام علق نفيس" له محاسنه المفيده في حين ان له افاته القاتلة . والمهارة كل المهارة في حسن استعماله ولاستفادة . وليس بغريب على الجاحظ ان يكتب لا رسالة كاملة في مدح الكلام فقد درسه على النظام وتمرس به في دكاكين الوراقين ثم كان هو نفسه متكلما من الدرجة الاولى .

٢٣ – طبقات المغنين = منشورة في المجموعة بين ١٨٦–١٩٠ وفي هامش الكامل الاول بين ١٢٠–١٣٠ وفي ريشر بين ٢٠٤–٢٠٦. وقد بقيت منها مخطوطة في الملحق ١١٢٩/٥ لا بد ان يكون ما بين ايدينا منها نتف اقتطعت من كتاب قد ضاع . لانه يريد ان يتكلم عن المغنين وعن طباقتهم وعن الاتهم وعن اشياء كثيرة اخرى لهم كما جاء في المقدمة. ولانه قال في ص ١٨٨ (ولم نقصد في وصفنا من وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم الا من ادركنا من اهل زماننا) . في حين انه لم يتكلم لا عن مفردين ولا عن طبقات . اما لماذا كتبها . فلأداء حق لهم عليه كما قال ص ١٨٦ . اما متى كتبها ففي سنة ٢٥٥ كما ذكر في ذات الصفحة . وعلى كل فما بين يدينا من الرسالة لا قيمة له لانه مبتور مشوه .

٢٤ – العباسية = نشرت في رسائل السندوبي بين ٣٠٠–٣٠٣ . لا جديد فيها

الا اتخاذه كل الذرائع واستعماله كل ما عرف من المعلومات اولا لافهام المامون ان بني العباس هم احق بالامامة وثانيا انهم اهل حسب ونسب في القديم والحديث . وقيمتها في هذا اى في اثبات احقية العباسيين واهليتهم للخلافة .

٢٥ - العثمانية = منشورة في رسائل السندوبي بين ١-١٣ . تكلم فيها عن افضلية ابي بكر على علي في الخلافة . وفيها ذكر اكثر اقوال العلويين وفندها مقارنا اياها بفضائل جماعة عثمان . قيمتها امامية تاريخية اكثر من سواها مثل العباسية مثلا التي مر ذكرها . وكلاهما تدلان على كثرة الحجاج واللجاج في مثل هذه المسائل ايام الجاحظ . فهما صورة صادقة في هذه الناحية . وقد كتب الاسكافي رسالة في الرد عليها نشرها السندوبي في مجموعته بين ١٣-٦٧ /

٢٦ - العداوة والحسد = نشرها كراوس في مجموعته بين ٩٩-١٢٤ . ولا مخطوطات . لا ميزة للرسالة الا ببراعة الرجل في تحليل النزعات الموءدية للحسد وتبيان انه نفسه كان محسودا جدا خصوصا لتفوقه في الادب ص ١٠٩ .

٢٧ - العشق والنساء = منشورة في المجموعة بين ١٦١-١٧٠ وفي هامش الكامل الثاني ٣٠-١٦٦ وفي رسائل السندوبي ٢٦١-٢٧٥ ومترجمة في ريشر ١٨٨-١٩٤ وتوجد منها مخطوطة في ملحق المتحف البريطاني رقم ١١٢٩/٦ . بعد مقدمة عرف فيها العشق عامة مر على عشق النساء خاصة وقال انه اللذة الكبرى ص ١٦٠ وان رباط الهوى اقوى رباط بين اثنين ص ١٦٦ ثم انتقل ليفضل المراة على الرجل في مواطن ص ١٦٥ وليقول شيئا في جمالها ص ١٦٩ . والى كل هذا ضم شيئا لي/ من القول في الغناء وموقفه النيّر منه ص ١٦٥ . والرسالة التي بين ايدينا ليست كاملة لانه في مطلعها يقول (انا لما ذكرنا في كتابنا هذا الحب الذى هو اصل الهوى والهوى الذى يتفرع منه العشق والعشق الذى يهيم به الانسان على وجهه او يموت كمدا على فراشه ص ١٦١) . في حين انه لم يكن قد بدأ بعد . ولذا لا نستطيع ان نستنتج منها ذا قيمة .

٢٨ - فخر السودان على البيضان = منشورة في المجموعة بين ٥٤-٨٢ وفي مجموعة فلوتن بين ٥٧-٨٥ وفي ريشر بين ٢١٠-٢١٢ . ومنها مخطوطتان الاولى في داماد ابراهيم نمرة ٩٤٩/٥ والثانية في الموصل نمرة ٢٦٥/٦ اهم نقاط فخر السودان التي اوردها هي ما يلي . اولا ان منهم رجالا مبرزين . ثانيا انهم قدموا للحضارة اشياء كثيرة مفيدة مثل الغالية والنعش والمصحف ص ٦٧ . ثالثا انهم حكموا العرب ايام الاحباش ص ٦٣ . رابعا انهم اكثر عددا من البيض ص٧٢/

واخيرا ان السواد ليس بعيب بل على العكس هو شرف وقوة حيث وجد ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٦
واذا كان للكتاب من قيمة فهي في محاولة الرجل الرد على نقاط فخر البيضان . لا نصرة للسودان وانما لجمع الشمل . وهذه صفة غلبت عليه في كل ما تكلم نعني صفة العدل .

٢٩ – فضل هاشم = منشورة في رسائل السندوبي ٦٧–١١٦ . ولم نقع لها على مخطوطة . فيها يفضل هاشما قوم النبي على عبد شمس قوم معاوية . اولا بماضيهم التليد في الجاهلية وثانيا بحاضرهم المجيد بالاسلام . فيتعرض لنزعات الخير والشر وللصفات الكريمة والقبيحة مقارنا ومفضلا . وليس بغريب عليه وهو الذى كان في كل كتاباته يغتنم كل فرصة لمدح الرسول وقومه

٣٠ – القيان = منشورة في رسائل فنكل بين ٥٣–٧٥ . ولا مخطوطات . طرق فيها الجاحظ موضوعات جميلة مثل المراة . والحب . والغناء . وقدم فيها اراء اجتماعية فدينية وفوق كل شيء جاحظية قيمة كم كنا بغاية الشوق للوقوف عليها . ولاهميتها نلخصها فيما يلي .

١ – في المراة = تكلم عن الحجاب ص ٥٦–٦٢ فقال انه لا يرى به قط لانه لم يكن في الجاهلية ص ٥٦ ولانه ضُرب في الاسلام على نساء النبي فقط ص ٥٦ ولان الكثيرات من المشهورات في العباسية لم يضعنه ص ٦١ هذا بالاضافة الى انه غير طبيعي انما كان الدافع اليه غيرة الرجل على المراة وحب الاثرة بها ص ٦١ ← ولم يكتف بهذا بل ذهب الى ما هو ابعد منه فتناول بعض الاحاديث التي يردها القوم بهذا الصدد مثل = فرّقوا بين انفاس الرجال والنساء . ومثل لا يخلو رجل بامراة في بيت وان قيل حموها الا ان حموها الموت ص ٦٥ وراح يفندها بقوله = فان قال قائل بهذا . قلنا إن الاحكام انما تقع على ظاهر الامور ولم يكلف الله العباد الحكم على الباطن والعمل على النيات . فيقضى للرجل بالاسلام لما يظهر منه ولعله ملحد فيه . ويقضى انه لابيه ولعله لم يلده الاب الذى ادعي اليه قط ص ٦٦ ————
وتكلم بعد هذا عن مشكلة في الاختلاط . فقال انها لا باس بها بل هي الطبيعية لولا الخوف من الفساد ص ٥٧ . ———— ثم تطرق الى موضوع الزوجيه فتكلم بما يشتم منه انه يفضل الاباحيه او الشيوعيه النسائية لولا ان الدين منع منها ص ٥١ ولولا ان صلاح الاجتماع ينكرها ص ٥٥ ، ٦١ ———— الا ان الجاحظ بعد كل هذه الحرية في التفكير الشخصي والثورة على التقاليد بخصوص هذه المسائل لم يستطع الا ان يطاطيء راسه امامها بخصوص النظرة العامة للمراة . فهو لم ير فيها اكثر من دمية خلقت لمتعة الرجل لا اكثر ولا اقل ص ٥٥

ب ـ الغناء = يقره ولا ينكره بل لا يرى به باسا ص ٦٣ ذلك لانه في غالبه شعر والشعر غير محرم بحد ذاته ص ٦٣ . واما اذا قيل انه لم اداة لهو فاننا نقول والصلاة ايضا اداة لهو ص ٦٣ . هذا بالاضافة الى انه كان معروفا في الجاهلية وفي قصور جميع الخلفاء ص ٦٢ ع .

ج ـ الحب = بعد ان حاول إلقاء ضوء على ماهيته ص ٦٧ انتقل ليعرف العشق خاصة بقوله .(انه داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ص ٦٦) . ثم وصفه بقوله (انه داء لا يملك صاحبه دفعه س ٦٦) . اما الحُسن في نظره فهو التمام والاعتدال فقط ص ٦٤ . وبعد هذا راح يلقي نظرة على القيان وحبهن خاصة ليطلق لقلمه العنان يعبر باسلوبه المعروف عن سوء رايه في كليهما . واذا سئل لماذا كل هذا . قال (وكيف تسلم القينة من فساد الاخلاق وهي تقضي حياتها في بؤرته ص ٧٢ هذا عن القينة اما عن حبها فقد قال انه من النوع الرخيص الذى لا يكاد يعرف للاخلاص معنى ص ٦٩) . هذه رسالة القيان . وهذه موضوعاتها . وهذه اراؤه فيها . اختصرناها هنا لنشرحها فيما بعد . وهي في نظرى مع "الرد على النصارى" اقيم رسالتين في بابي الدين الاجتماعي والتفكير المبني على المنطق .

٣١ ـ كتمان السر = منشورة في مجموعة كراوس ولم والحاجرى بين ٣٧-٦١ . غرضها الحض على هذه الفضيلة والتنفير من عكسها . وقد تكلم فيها عن الاسرار التي تُفشى (الخبر النادر وما يوصى بكتمانه) وعن الذين يُفشون الاسرار (الخدم وضعاف الناس) وعن اسباب الافشاء (الفضول وحب الممنوع) واخيرا شواهد كثيرة في التنفير من الافشاء والحض على الكتمان . وهي في مجموعها رسالة اخلاقية صرف .

٣٢ ـ المعاد والمعاش = نشرها كراوس بين ١-٣٧ من مجموعته . وقد عثرنا لها على ثلاث مخطوطات الاولى في ملحق المتحف البريطاني نمرة ١١٢٩/ ١٢ والثانية في داماد ابراهيم نمرة ٩٤٩/ ٤ والثالثة في الموصل نمرة ٢٦٥/ ٥ . كتبها لابن ابي دؤاد وفاء بحقه عليه ص ٥ وقد ملأها نصائح ووصايا باخلاق جميلة كثيرة . قال لاحمد ان صلاحه في معاشه ومعاده متوقف على التمسك بها جهد طاقته .. وليس في الرسالة من ميزة سوى هذه الاخلاقيات العديدة.

٣٣ ـ مناقب الترك = منشورة في المجموعة ١٣-٥٤ وفي هامش الكامل الثاني ١٦٦-٢٧٥ وفي مجموعة فلوتن ١-٥٦ ومترجمة في ريشر ٢٠٧-٢١٠ . ومن مخطوطاتها واحدة في الملحق

نمرة ٧/١١٢٩ وثانية في داماد ابراهيم نمرة ٦/٩٤٩ وثالثة في الموصل نمرة ٢/٢٦٤ ورابعة في باريس نمرة ٦٠١٨ . كتبها ردا على هجوم لاحدهم على الترك الذين اد خلهم المعتصم في الجيش . ولكنه تحفظ من اتهامه بالتحيز . فقال انما غرضنا الاصلي هو تبيان حقوق الاتراك المهضومة ليتساووا مع باقي جند الخلافة فيعمل الكل معا لخدمة الامام . لهذا كانت مادته في الرسالة اولا ذكر مفاخر جميع الجند وثانيا ذكر مفاخر الترك خاصة من شجاعة واقدام واخيرا الدعوة للعمل معا على طاعة السلطان وخدمته وقيمتها في انها تعكس لنا بعض الشيء من الاتجاهات السياسية والمناقشات الحادة التي كانت تدور بين ظهراني القوم .

٣٤ – مدح التجار = وعنوانها الكامل (مدح التجارة وذم عمل السلطان) . منشورة في المجموعة ص ١٥٥ – ١٦١ ثم هامش الكامل الثاني ٢٤٦–٢٥١ ثم في ريشر ١٨٦–١٨٨ ولها مخطوطة في الملحق نمرة ٢٤/١١٢٩ . فيها ذمّ عمل السلطان لانه قرين الذل والخوف والملق . ص ١٥٥ . ثم ذكر كثيرا من اكابر العلماء الذين كانوا تجارا مثل ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما ص ١٥٧ . ثم قال ان قريشا والرسول والخلفاء الراشدين كلهم كانوا تجارا ص ١٥٧ وما بعدها وقيمة الرسالة في انها دعوة مخلصة للعمل الحر . ويظهر انها كانت "اى مشكلة العمل الحر" مشكلة ايام العباسيين كما لا تزال الى اليوم . ونلاحظ على الرسالة اولا انها مختارات وليست كاملة . ثانيا ان القسم الاخير منها الذى تطرق للتربية مشكوك في نسبته الا ان يكون استطرادا وفي هذه الحالة هو استطراد غريب . وان كان تزويرا فتجب الاشارة اليه .

٣٥ – المودة والخلطة = منشورة في هامش الكامل الثاني ١٩٩–٢١٢ ولم نقع لها على مخطوطات . من دواعيهما اى المودة والخلطة = القبول من اول نظرة ص ٢٠٤ وان لم يكن ذلك فبالتقرب المتعمد ص ٢٠٥ . وبعد هذا اخذ في الكلام على اقسام المودة الثلاثة ص ٢٠٨ . وانتهى بمدح ابي الفرج الكاتب الذى اهدى الرسالة اليه . لا قيمة للرسالة الا من الناحية الفلسفية الكلامية خصوصا في النظر الى ، والتفريق بين ، اقسام المودة . وكل ما عداه فكلام عادى

٣٦ – النساء = منشورة في رسائل السندوبي ص ٢٦٦–٢٧٦ ومنها مخطوطة في الملحق نمرة ٥/١١٢٩ وموضوعها لم يخرج عن موضوع رسالة (العشق والنساء) المنشورة في المجموعة والتي تكلمنا عنها في هذه السلسلة نمرة ٢٧ . ولهذا يساورنا شك في كون كل منهما رسالة مستقلة . اما فهرس البريطاني فقد وضع رسالة العشق نمرة ٦ في حين وضع هذه

تحت نمرة ٥ .

١١٤

٣٧ – النبل والتنبل = منشورة في هامش الكامل الثاني بين ١٨٤–١٩٩ . ومنها مخطوطة في المتحف نمرة ١١٢٩/١٨ . واهم ما جاء فيها اولا ان النبيل لا يتنبل لعدم حاجته الى ذلك ص ١٨٤ وان هناك اماكن يُستساغ فيها التكبر ص١٨٥ هذا بالاضافة الى فصول في ذم الكبر والتنبل . وقيمة الرسالة في انها اخلاقية فقط .

٣٨ – الوكلاء = منشورة في المجموعة ١٧٠–١٧٣ وفي هامش الكامل الثاني ٢٢٠–٢٢٧ وفي ريشر ١٩٤–١٩٩ . مختارات من المقدمة هي التي نشرت في المجموعة ولذا لم نستطع ان نستفيد منها كثيرا . حتى ان اسم الوكلاء لم يظهر لنا معناه بوضوح .

٣٩ – في الاخبار = منشورة في هامش الكامل الثاني ٥٦–١١٧ . قال ان الناس مولعون بالغريب منها ص ٦٣ . ثم تكلم عن كيف تصح وان ذلك يكون بالتصادق وكثرة السماع والعلم بالاصول ص ٨٣. ثم راح يدفع قول من اتهم الرسول بالتنجيم ص ٧٨ .

٤٠ – عن النبي = منشورة في هامش الكامل الثاني ١١٧–١٢١. وهي فصول مختارة ذكر فيها النبي . وتكلم عن معجزة القران. وان القوم لم يستطيعوا ان ياتوا بمثله وبعدها انقطع الحبل ليتكلم في خلق القران . والاحتجاج لنظمه ما بين ١٢٢–١٤٨ . وفي هذا القسم اكثر من النقاش والاستنتاجات المشوهة لتقطع الفصول وقصرها . حتى كنا تارة نسميها حجج النبوة وتارة خلق القران وثالثة الاحتجاج لنظم القران وهكذا .. وهكذا ... وكم كنا نود لو انها كانت صريحة وواضحة لنقف بعض الشيء على هذه النقاط المهمة التي تعرضها لها الجاحظ .

لحد الان تكلمنا عن كتبه الثلاث الرئيسية ومن رسائله المطبوعة الثانوية والان ننتقل لنتكلم باختصار عن الكتب والرسائل المنسوبة اليه

(١) – التاج تكلم فيه عن اخلاق السلطان وما يتعلق بصحبه وآداب قصره .وقد ركز فيه على اداب سلاطين الساسانيين بالرغم من انه لم يغفل خلفاء العرب .

(٢) – المحاسن والاضداد كتاب نُشر في مصر اولا وفي لايدن ثانيا . وهو عبارة عن فصول في مواضيع مختلفة قُصد منها المقارنة واظهار مقدرة الكاتب على الكلام في الشيء وضده مثل الشجاعة والجبن . محاسن النساء ومعايبهن . الكرم والبخل . الخ .

١١٥

المقالة الرابعة تقدير كتبه

لقد راينا من قبل المقدار الضخم والعدد العظيم من التراث الادبي الذى خلفه الجاحظ . والان نحب ان نلقي نظرة ولو عجلى على اثر هذا التراث في محيطه ثم في من جاء بعده مقابلين وجهة السلب بوجهة الايجاب لنخلص الى راينا الخاص في الموضوع .

اولا – سعة انتشارها واهتمام الناس بها = مثل هذا لا نستطيع توضيحه الا بامثلة ماخوذة من مصادر موثوق بها . وطبعا لا نستطيع ايراد كل شيء ولذا نقتصر على الاهم

ا – قال الاندلسي كان طالب العلم في المشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء ابي عثمان فوقع الينا كتاب التربيع والتدوير له . فاشاروا اليه . ثم اردفه عندنا كتاب البيان والتبين فبلغ الرجل السماك بهذين الكتابين. فخرجت لا اعرج لا شيء حتى قصدت بغداد وسالت عنه . واقمت عليه عشرين سنة . ماخوذة من يافوت /٦/ ٧٤ / ١٩–٦/ ٧٥/ ١٣ .

ب – قال علي بن عيسى النحوى سمعت ابن الاخشاد شيخنا ابا بكر يقول = ذكر ابو عثمان في اول كتاب الحيوان اسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست . ومر بي في جملتها الفرق بين النبي والمتنبي . وكتاب دلائل النبوة . وقد ذكرهما هكذا على التفرقة . واعاد ذكر الفرق في الجزء الرابع لشيء دعاه اليه . فاحببت ان ارى الكتابين . ولم اقدر الا على واحد منهما وهو دلائل النبوة . وربما لقب بالفرق خطأ . فهمني ذلك و سائني سوء ظفرى به . فلما شخصت من مصر ودخلت مكة كرمها الله تعالى حاجا ، اقمت مناديا بعرفات ينادى والناس حضور من الافاق على اختلاف بلدانهم وتنائي اوطانهم وتباين قبائلهم واجناسهم من المشرق الى المغرب ومن مهب الشمال الى مهب الجنوب وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر " رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لابي عثمان الجاحظ على اى وجه كان " . قال فطاف المنادى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال = حجب الناس مني ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترنوا به . قال ابن اخشاد = وانما اردت بهذا ان ابلغ نفسي حذرها) . وتعليقا على هذا قال ياقوت (وحسبك بها فضيلة لابي عثمان ان يكون مثل ابن الاخشاد وهو ما هو في معرفة علوم الحكمة وهو راس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهان بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام) . ماخوذ من ياقوت ٦/ ٧٣/ ١–٦/ ٧٣/ ١٦ .

ج – أما الجاحظ نفسه فقد سرد قائمة طويلة باعتياب الناس لكتبه وشدة حرصهم على الاطلاع عليها . وفي العداوة والحسد تكلم عن مبادرة الملوك لانتقاص كتابه في تحليل النبيذ ص ١٠٣ . وفي ذات الرسالة قال وربما الفت الكتاب السخيف باسم غيرى من كبار الكتاب

فيتحول القادح مادحا وذو الموقف السلبي ايجابيا ص ١٠٩ وغيرها كثير .

د ــ حدث ابن مقسم فقال = بعد ان طال سؤال الناس لابي عثمان (لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك واخذ بمخنقك . قال = امثلي يخدع عن عقله . فوالله لو وضع رسالة في ارنبة انفي لما امست الا بالصين شهرة . ولو قلت فيه الف بيت لما ظن منها بيت واحد في الف سنة). ماخوذ من ياقوت ٦/ ٧١/ ١٦-٦/ ٧١/ ١٩ .

هذه اربعة اقتباسات تدل دلالة واضحة على ترقب الغير صدور كتبه لياخذوها بما تستحق أولا تستحق من التقريض والتقريظ . وعلى اهتمامهم بما سيجيء فيها . وعلى تتلمذهم عليها واخيرا على سعة انتشارها اذ وصلت بالفعل الى الاندلس واوصلها ابو عثمان للصين مبالغة .

<u>ثانيا ــ ما قاله اعداؤها =</u> قال ابن شهيد = لم يكن الجاحظ مخلصا في كتبه ولهذا جاءت مقطعة مشوشة . والسبب في ذلك انه لم يرد ان يعطي قارئه كل ما عنده . وقال ابن قتيبه لقد قصد الجاحظ الى المضاعيف والعبث في كتبه فافسد الكثيرين . وقال البغدادى اذ مر على طائفة من كتبه مشيرا الى نواقصها ــ واما كتبه المزخرفة فاصناف . منها كتاب في حيل اللصوص وقد علّم بها الفسقة وجوه السرقة. ومنها كتابه في غش الصناعات وقد افسد به على التجار سلعهم . ومنها ... ومنها كتبه في القحاب والكلام واللاطة وفي حيل المكدين . وانتهى بقوله ومعاني هذه الكتب لائقة به وبصفته واسرته .

واذا كنا لنستنتج من هذا شيئا فليس الا ان اعداءه تنكروا له وما رأوا في كتبه الا الجانب الاسود الذى اتخذه ~~غاية~~ واسطة وظنوه غاية . فتنقصوا قيمتها . وظلموا الجاحظ .

<u>ثالثا ــ ما قاله انصارها =</u> قال ابن العميد كُتُب الجاحظ تُعلم العقل اولا والادب ثانيا ــ وقال ابن دريد وقد ذكرت بين يديه اجمل بقاع الارض = هذه متنزهات العيون فاين انتم من متنزهات القلوب . وعندما سئل ما هي = قال كتب الجاحظ . وقال الاندلسي رضيت في الجنة بكتب ابي عثمان . وقال القاضي الفاضل ما منا معشر الكتاب الا اعتمد عليه واغترف من ادبه إنْ في كثير او قليل .

وهذا يرينا بوضوح وجهة نظر اخرى مغايرة للاولى تمام المغايرة . لكن بما ان الحق

واحد وانه لا بد من ان يُكشف نقـابه نيبان مع اى الفريقين ، نورد الفقرة التالية .

رابعا – النتيجـــــة = النتيجة هي ان كتب الجاحظ قد اتسعت لمواد كثيرة وطرقت موضوعات متعددة من ادب لعلم لدين . واصطبغت بالوان متباينة من هزل لجد لما بينهما . ولهذا فمن الطبيعي ان تُعجـب اناسا ولا تعجب اخرين . لان رجـل الجد لا يعجبه الهزل ورجل الهزل لا يقبل بالجـد . وقد اشار الى هذا في الحيوان فقال = وهذا كتاب احتوى على اشياء كثيرة متغايرة . فخـذ منها ما يعجبك واترك مالا يعجبك . فقد يعجب غيرك . أوّلاً لان الناس متباينون وثانيا لاني لم اؤلفه لواحد منهم بالذات .

ومن هذا نرى ان جماعة السـلب ليسـوا على حـق لانهم اخذوا ما ارضاهم ونقموا على ما لم . في حين ان جماعة الايجاب اخذوا ما ارضاهم ايضا وسكتوا عن ما لم . ولعمرى ان الحـق لفي جانبهم او بالاحـرى هم اقرب اليه .

واما نحن فقد راينا محاسن الجاحظ كما راينا مساوئه . وعند تصـفية الحساب وجدنا انه دُنيا من المعرفة وان كتبه بسـتان حافل بكل شـيء . وان الحكم على رجل مثله "عظيم" ، او على ادب مثل ادبه "ضخم" ، بكلمة او بسـطر ، حرام وظلم ودليل غباء . ولهذا سـنحاول ان نتوسع في تحليل هذا التراث تحليلا دقيقا بقـدر ما تسـمح لنا به الظـروف في الفصول الاتية نعني في فن الجاحظ ثم في علمه ثم في دينه . وبعدها نسـتطيع ان نحكم عليه في فصـل الختام .

المقالة الاولى ــ اسلوبه في التاليف عامة

×-×-×-×-×

ان رجلا كالجاحظ عارك الحياة وعاركته حوالي القرن ، وانغمس في بحر القراءة والكتابة والتاليف اكثر من خمسين سنة لحرى بان يكون له اسلوب واسلوب خاص به . سواء في كيف كان يهاجم موضوعه مما يقابل " بلان " . او في كيف كان يصوغ عبارته مما يقابل " ستايل " او في كيف كان يقف من مادة ادبه ويعاملها مما يقابل " ساينتيفك ميتود " . ولهذا ــ خصصنا هذا الفصل ــ بكامله ــ لنتكلم عن كل منها بقدر ما تسمح لنا به الظروف .

اما اسلوبه في التأليف فنستطيع ان نقسمه لشقين الاول اسلوبه النظري اي ما كان يطلب من قارئه ان يتبعه في كتاباته . والثاني اسلوبه العملي اى ما كان يتبعه هو بذاته حين كان يكتب . ولنذكر الى جانب هذا ان الجاحظ كثيرا ما كان يحاول ان يقرب بين النظري المثالي والعملي الناقص . الا انه كان يعجز وكان يقر بعجزه . لكنه رغم ذلك كان يدون هذه التواصي المثالية في التاليف ليطلع عليها الخلف فيستفيدوا منها ما دامت الفائدة قد فاتته .

اولا ــ اسلوبه النظري في التاليف

اما تواصيه في التاليف فاليك اهمها . اولا جمعناها وثانيا نثرناها ثم عدنا فرتبناها ليكون منها شبه قائمة تامة ننسبها للجاحظ . اذا ما اتبعها الكاتب نجح في كتابته واصاب الهدف المقصود ...

اولا اعرف كفاءتك ــ يقول الجاحظ ان الناس ذوو مواهب مختلفة فمنهم من يحب التجارة . ومنهم من يحب عمل السلطان . منهم من يحب العلم ومنهم من يحب اللهو . هذه طباع الناس متفرقة . قد فطرهم الله عليها . لان في ذاك صلاحهم . ولا يني حتى يردف فيقول = تصور جميع الناس ذوى عقلية واحدة يحبون الطب مثلا . وتصور مجتمعا كله اطباء . باية حالة من التعاسة

يكون افراده . الطب بذاته صنعة جميلة ولكن لا قيمة له اذا لم يوجد المرض . ثم تصور ان جميع الناس ذوو ميول واحدة وان هاته الميول اتفقت على حب تسمية الابناء بمحمد . وان نتيجة لهذا كان لدينا مجتمع كل افراده يسمون بمحمد . كيف يمكن التفريق بين اعضائه . ان في التفرقة سعادة البشر . وعلى هذا، فلا الناس متفقين في طباعهم ولا الاتفاق مفيد . انما هم مختلفون . فعليك ان تعرف نفسك وتعرف كفاءتك وتعرف الى اى الكفاءات انت اميل . فتميل اليها . وتمشي معها لتبرز فيها . قال في البيان (تحول الى اشهى الصناعات اليك . واخفها عليك . فانك لم تشتهها ولم تنازع اليها الا وبينكما نسب والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله[1])

ثانيا وضح فكرتك = يقول بعد أن تعرف ميلك . ولنفرض انه الكتابة . وتعرف شهوتك منها ولنفرض كتابة الرسائل . اجلس الى تلك الشهوة واكتب فيما تريد . لكن حذار ان تكتب شيئا الا بعد ان تفكر فيه وتقلبه على وجوهه وتعمل النظر في ثناياه . اخبر مقدماته . وانظر في نتائجه . ودقق كل التدقيق فيما بين يديك منه . فخير شعراء الجاهلية الحوليون . وخير كتاب كل عصر المدققون . اما الرأى الفطير . او أدب المناسبات كما تعود بعضهم ان يسميه ، فلا قيمة له ولا وزن عند الجاحظ . قال في البيان (وما انا والراى الفطير[2]) ونقل على لسان احدهم بهذه المناسبة قوله (والله ما اشتهي الخبز الا بائتا[3]) . وفي "تفضيل النطق على الصمت" قال في المجموعة (فالوجه النافع ان يدور (المعنى) في مسامعه (الكاتب) ويغيب في قلبه ويختم في صدره . فاذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها اكرم نتيجة وثمرتها اطيب ثمرة[4]) .

الا انه يجب ان لا يفهم من هذا ان الجاحظ لا يحب ان يكتب قارؤه الا بعد اعمال صبر أيوب . وينام نوم اهل الكهف . فلا يسطر الا لب اللباب ولا يدون الا مختار المختار . كلا . فالجاحظ في الحقيقة كان على عكس هذا على خط مستقيم كما يقولون . ولم يفته ان يصرح به عندما قال (وليس الكتاب الى شيء احوج منه الى افهام معانيه . حتى لا يحتاج السامع لما فيه الى روية . ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة والحشوة . ويحطه من غريب الاعراب ووحشي الكلام . وليس له ان يهذبه جدا ، وينقحه ويصفيه ويروقه . حتى لا ينطق الا بلب اللب . وباللفظ الذى قد حذف فضوله وتعرقه واسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه . فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بان يجد لهم انهاما مرارا وتكرارا لان الناس كلهم

---

(١) ب ١٠٦/١ (٢) ب ١٤٩/١ (٣) ب ١٤٩/١ (٤) مج ١٦٠

قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لا تزيد عن عاداتهم . الا ان يعكس عليها ويؤخذ بها[1]) .

ومن هذا نرى ان الرجل لم يحب التدقيق للتدقيق . ولا التفكير للتفكير . ولا التوضيح للتوضيح . وترك التكلف لترك التكلف . انما أرادها وشدد عليها اولا لتوضيح الفكرة في راس القارئ . ومن ثم لتوضيحها امام عقل السامع . وكل هذا حرصاً على عدم إجهاد الاخير . ولعمري لا اعرف بعد هذا الى اى حد سيظل فضل نظرية الاقتصاد على جهد القارئ التي قال بها سبينسر لسبنسر . والجاحظ سبقه اليها بقرون .

لكنه يقول ان المادة المنوي الكتابة فيها لن تتضح ما لم يكن الكاتب اولا ميالا اليها بطبيعة كما مر .وثانيا قد سعى اليها بقصده كما سيأتي . الجاحظ يؤمن بأن للفطرة وللمواهب الطبيعية دخلاً كبيراً في نجاح الاديب . الا انه يقول ان على الاديب ان لا يركن للطبيعة . بل عليه ان يدرس ويطالع ولا يترك شاردة ولا واردة الا اطلع عليها ان لم يدرسها ويهضمها. إطَّلع على الاصول . واطلع على الفروع[2].
إجمع هاته الى تلك . وادخلها في عقلك واصهرهما في اتونه وقولبهما في قالبه . ومن ثّم يصح ان يقال ان الفكرة قد وَضُحَتْ لك وانه من السهل عليك بعد هذا ان توضحها لغيرك .... الان الكتب .

ثالثا – اختر الساعة = ليست كل اوقات المرء صالحة للكتابة . بل ان هناك ساعات معينة . وهذه الساعات اوما تقابل بالانكليزية " مودس " تختلف باختلاف الاشخاص . فمنهم من لا تواتيه الا في السكون ومنهم من لا تواتيه الا وسط الصخب . في حين ان كثيرين لا تاتيهم الا وبنت الكاس قد لعبت . يقول الجاحظ اعرف نفسك من اي الناس ، واعرف ساعتك الخاصة بك متى تكون . اعرفها جيدا وحاول ان لا تكتب الا فيها ، لانك فيها تكون مثمرا وفي غيرها لا . قال في البيان (خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك . فان قليل تلك الساعة اكرم جوهرا . واشرف حسبا . واحسن في الاسماع . واحلى في الصدور . واسلم من فاحش القول . واجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعني بديع . واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك

---

(١) ح ١/ ٤٤ (٢) معاد ٨

الاطـول بالكد والمطاولـة والمجاهـدة . وبالتكلـف والمعاودة ....[١])

رابعـا ـ الان ابدأ الكتابـة = على شرط ان لا تخط كلمة قبل ان تـذكر اسـم اللـه وتحمده على ما آتاك من نعم و وهبك من مساعدات . وبمثل هـذا أنهـما . قال الجاحـظ. (واجب كل ذى مقالة ان يبتدئ بالحمد قبل استفتاحـها . كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها.[٢])

ونحن نعتقد ان هـذه روح العصر ومملياته اكثر منها روح الجاحـظ واختراعاته . فهو في كثير من الاحيان شـذ عنها . وفي كثير غيرها تركـها . وعلى العكس بدأ بالدعاء للمرسِل كقوله في اول رسالة "الحاسد والمحسود" = (وهب اللـه لك السلامة . وادام لك الكرامة . ورزقك الاستقامة ...[٣] الخ .) وكقولـه في آخر "السودان والبيضان" = (فهذه جملة ما حضرنا من مفاخر السودان[٤] .)

خامسا ـ وفي الاثناء = في أثناء الكتابة يقول الجاحـظ . عليك = أولا ان لا تنخدع بالظروف العارضة ، وثانيا ان لا تيأس اذا ما عصاك القلم ، وثالثا ان تكون على حذر من نقدات قرائك واخيرا وليس آخرا اياك اياك ان تغتر بمقدرتك ولتفصيل جملة هـذا نورد الامثلة التالية مقتبسة من اقواله التي وردت متناثرة في مواطن مختلفة من كتبه .

١ ـ قال الجاحظ في الحيوان = (وليس في الارض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ويعتريه الغلط في شعره وفي نثره . الا ان الناس في ذلك على طبقات من الغلط . فمنهم المغرور المغمور ومنهم ... ومنهم ... ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي ومن اعادة النظر الى اضعاف ما يحتاج اليه في سائر ذلك .) ثم يفصل اجمال هـذا بقوله ـ فما اكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة .... ثم يضيف (واعلم ان العاقل ان لم يكن بالمتتبع ، فكثيرا ما يعتريه ما يعتريه من ولده ، أن يَحْسُن في عينه منه ، المقبح في عين غيره . فليعلم ان لفظة أقرب نسبا منه من ابنه . وحركته امس به رحما من ابنه .... ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنة بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته[٥]).

---

(١) ب ١/ ١٠٤ (٢) ب ٢/ ٨٨ (٣) ج ٢ (٤) ج ٨١ (٥) ح ١/ ٤٤

فكأنه منه يريد ان يقول بعد ان تعد كل ما سبق من التحضيرات وتقعد للكتابة لا تترك للعواطف الحبل فتضل بك سواء السبيل . بل حكّم العقل واكتب .

٢ — الا انك حتى لو حكمت عقلك ووفيت بالعدة فانك في كثير من الاحيان تمل وتسأم وتضجر . تريد ان تكتب وكل شيء جاهز . لكن القلم لا يطاوع . فما تعمل به؟ يقول الجاحظ عليك اولا بالصبر والاناة وطول البال . حاول ثم حاول . لكن اذا بان واضحا ان كل محاولة معناها ضياع الوقت فاياك تضييع الوقت . بل حالا اترك الموضوع وتحول الى غيره فلعل في التحول الفائدة المطلوبة . قال (فان كانت المنزلة الاولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك ، وفي اول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل من مركزها ومن نصابها ولم تصل بشكلها وكانت قلقة من مكانها نافرة في موضعها — فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير أوطانها . فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك احد . وان أنت تكلفتها ولم تكن صادقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك او مالك ، عابك منه انت اقل عيبا منه . ورأى من هو دونك أنه فوقك . فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في اول وهلة وتعصّى عليك بعد اجالة الفكرة (فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك أو سواد ليلك . وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كان هناك طبيعه او جريت من الصناعة على عرق . فان تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادثِ شُغْلٍ عَرَضَ ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك[1]) . هكذا يريد الجاحظ . فكرّ ، ثم جرّب ، وان لم تر في الأمر بصيص نور فتحول .

٣ — في اثناء الكتابة لا تكن انانيا ، لا يفكر الا بنفسه . فانت لا تكتب لنفسك إنما تكتب للناس . فراع حقهم . ولكن هذا لا يعني تغيير المبدأ الذى من اجله تكتب . إنما يعني ان لنشاطهم حدا لا يمكنهم ان يتجاوزوه فلا تحملهم مالا طاقة لهم به . وان لصبرهم كذلك معيارا فساعدهم على ان لا يفقدوه . وان لهم اراء ومذاهب اعتنقوها منذ القدم فلا تحاول ان تبدلها بكلمة او تغيرها بسطر فان ذلك من غير المعقول . حاورهم تارة . وداورهم اخرى . إمش معهم الى آخر الشوط . لكن حرّنهم قليلا قليلا اثناءه . اضحك معهم فانهم ينسون ما بدوءا به . اهزل واياهم فانهم يتسلون بذلك عن قصدك . وفي الاثناء سر الى هدفك دون خوف او وجل .

---

(١) ب ١٠٦/١

ولهذا استعمل الجاحظ الهزل ودافع عنه . واستعمل النادرة وحسنها. وقَصَّرَ الجملة واستخدم اشياء كثيرة لهذا الغرض ، مما سياتي شرحه فيما بعد . إنما الذي نحب ان نشير اليه هنا بتخصيص قوله يوصي من يريد ان يكتب كتابا (أن لا يكتبه الا على ان الناس كلهم له اعداء. وكلهم عالم بالامور . وكلهم متفرغ له[1]) . الحيطة والحذر . سوء النية بالناس وعدم الاطمئنان الى ايجابهم. هو ما يوصي الكاتب ان يتخذه دستورا لينجح . وجميل منه هذا خصوصا بعد ان قدَّم قبل هذا بضرورة عدم الاغترار . اما ان يكتب على أنه الكل في الكل ولا يهتم باي كان غيره ، فان ذلك لا بد وان يوقعه في المزالق . والسبب في كل هذا عند الجاحظ هو (لأن عقل المنشيء مشغول وعقل المتصفح فارغ[2]) . ولعمري إن هذه لقاعدة ذهبية يجب ان يضعها نصب عينيه كل كاتب لانها تريحه من اشياء كثيرة مزعجة وتباعده كثيرا عن مزالق لم يقصدها . خذ مثلا طالبا يكتب رسالة فصلية. ويستعد لها الاستعداد الكلي . ويجمع لها المعلومات من كل ما وصلت اليه يده . ويسهر على كتابتها الليالي . ويصرف على تنقيحها الايام . ويطبعها. ويجلدها . ثم يقدمها للاستاذ وحرارته مرتفعة . ودمه يغلي .ودماغه بكل حرف من حروفها مشغول - ياخذ الاستاذ الرسالة وعلى طاولة بسيطة .أو في كرسي وثير.أو بجانب نافذة تطل على مناظر بديعة ، بيده سيجارة وامامه قدح شاي يحاول استاذنا ان يقرأ الرسالة . بفكر هادئ وعقل متزن ودم " ابرد من دم الانكليز " يأخذ ينتقد ، ويخط هنا وهناك خطوطا حمراء = هذا غلط . وهذا لا بأس به . وهذا نسيتَ فيه نقطة . وهذا جمع نادر . وهذا ... وهذا .... الطالب لم يفكر بالنقطة لانه إما ان يكون قد سها ، ولو ذكرها لما وضعها لقلة قيمتها بالنسبة لما هو بصدده (نقطة) . وإما ان يكون احسن النية بالاستاذ . لكن هيهات للقارئ ان يضع نفسه موضع الكاتب فيسامحه بالنقطة ويتساهل معه بخطأ كتابة همزة حتى ولو كان يكتب في اعوص الموضوعات .

الى هذه المسائل نبه الجاحظُ الكاتبَ من القارئِ . واوصاه بان يكون منه على حذر .

ضاربا - والان لنفرض ان الطبيعة واتتك . وان القلم طاوعك . وان الملل ملك ولم يقرب جانبك . وانك اتخذت كل الاحتياطات التي اوصاك بها ابو عثمان . وكتبت كتابا . ترى هل تنشره في الناس وتقول = سينال رضاهم . وسانجح فيه . كيف لا وقد طبَّقتُ عليه كلَّ ما قال الجاحظ !

اما الجاحظ فيقول انتظر قليلا. فلي وصية اخيرة احب ان اسمعك اياها . اياك اياك

---

(١) ح ١/ ٤٠   (٢) ح ١/ ٤١

والغرور حتى في اخر لحظة . فبعد ان تكتبما تريد اذهب به الى من عركوا موضوعه وشاورهم في الامر بأن تعرضه عليهم في جملة كتابات لآخرين . فان نال استحسانهم فانشره . والا فعاوده ونقحه . واذا تم لك كل شيء فانشره . والا فاقذف به دون ما تردد . قال في البيان (اياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك الى ان تنتحله وتدعيه . لكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل واشعار وخطب . فان رأيت الاسماع تصغي اليه .والعيون تحدج اليه. ورأيت من يطلبه ويستحسنه ـ فانتحله . فان كان ذلك في ابتداء امرك وفي اول تكلفك فلم تر له طالبا ولا مستحسنا فلعله ان يكون ـ ما دام ريضا قضيبا ـ تعنيسا ان يحل عندهم محل المتروك . فان عاودت أمثال ذلك مرارا فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية .فخذ في غيرهذه الصناعة واجعل رائدك الذى لا يكذبك حرصهم عليه او زهدهم فيه[1]) . إقبال الناس على منتوجك او نفورهم منه ، اجعلهما الرائد الذى يسيرك في كل ما تكتب . وهذا جميل . فالجاحظ يرى أن قيمة الأدب متوقفة على الكاتب والقارئ . ولا ياخذ " الادب" محله اللائق به من حيث علو الدرجة وسفلها إلا باتفاق رأييهما .

هذه أهم الوصايا التي جاء بها ابو عثمان من حيث الفكرةالعامة عن التاليف. اما المسائل الأخرى الخاصة بالمعنى مثلا وباللفظ كذلك وفي كليهما بعده ، فسيجيء شرحه في بحث النقد من باب " فن الجاحظ " . فكّر حتى تنضج الفكرة وتتضح في عقلك . ثم اكتب تحت شروط معينة . لأن الغرض من الكتابة هو ايصال ما في عقلك الى عقل قارئك . وهذا لا يكون بوضوح ما لم يكن قد وضح عندك اولا . وبعد ان تنتهي ، فكر في مسائل ثانوية كالرواج في السوق وعدمه . وهذا لا يكون الا بالاستفادة من اراء من سبقوك الى هذا الميدان .

---

(١) ب ١٤٨/١

ثانيا ـ اسلوبه العملي في التاليف

لقد طالعنا كل ما وصلنا اليه لحد الان من أدب الجاحظ ثلاث مرات . وفي كل مرة كنا نجد نَفَساً جديدا يقربنا من روح الجاحظ الأصلية . واخيرا قفلنا الكتب وقد ادركنا الوقت وقلنا لعل فيما حصلنا عليه الكفاية فلندونه بقدر ما ظهر لنا وبقدر ما سنقدر على اظهاره للناس .

يقولون ان الاسلوب هو الرجل . ويقولون ان الكاتب الكبير والاديب الذى يستحق بجدارة ذلك اللقب ، هو الذى اذا قرأت او سمعت له قطعة عرفت أنها له . وتكون قدمه راسخة بنسبة مضطردة مع عدم تحريك او قلة تحريك في تلك المعرفة . نقول اذا صح هذا القول * وهو في الحق صحيح ـ فان الجاحظ اكبر اديب عرفته العربية . فهو نسيج وحده وفريد دهره . إقرأ له اينما تقرأ تعرف نَفَسَهُ . وطالع له اينما تطالع تعرف ان ما بين يديك للجاحظ . وما ذلك الا لانه اول واقدر كاتب عرفته العربية استطاع ان يصوغ شخصيته كلمات ، وأن يفرض ذاتيته على كل معنى من معانيه او صورة من صوره . واليك الان بعض القول في هذه الصفات الخاصة التي تتجلى لنا من درس اولى نواحي اسلوبه وهي : كيف كان يهاجم موضوعه بعد أن جمع معلوماته . وما رائده الذى كان يسيره فيه .

اولا كان يختصر لئلا يمل . وثانيا كان يلخص لكي يجمع المتباعد . وثالثا كان يكرر لكي ترسخ الفكرة . ورابعا كان يطيل لكي يبان الغامض . وخامسا كان يستطرد لينوع . وسادسا كان يهزل ليرطب الجد . وسابعا كان يتساءل لان في التساؤل اثارة . واخيرا كان يخاطب القارئ لان في الخطاب ابقاء على انتباهه . ـ كل هذه مسائل خاصة كان يحرص عليها الجاحظ كل الحرص لغرض واحد فقط ، وارضاء لناحية واحدة من ناحيتي بناء الادب نعني "القارئ" . كان الجاحظ جدا حريصاً على قارئه . وجدا مشغوفاً بالابقاء على نشاطه ليسايره في كل المفازة . وقد تطرف في ذلك حتى "خلط له السم بالدسم" كما يرى بعضهم عندما يقرا استطراداته في الادب المكشوف ان كان من " الاخلاقيين " او تندره برجال الدين ان كان من جماعة " لا اله الا هو " .

الا ان هذه ، اذا كان الجاحظ حرص عليها من اجل القارئ ، فان هناك غيرها حرص عليها لان طَبْعَهُ هكذا أراد . مثل المحافظة على ذكر غرض الكتاب في اوله مقدمته .

وثانيا ذكر مادته اما في اوله كأنه فهرس اليوم أو في غير ذلك ، مبعثرا هنا وهناك كيفما اتفق .
واخيرا إحجامه عن التصريح بارائه الخاصة بكلماته الخاصة في اكثر كتبه الكبيرة نعني الحيوان والبيان والبخلاء . فالذى يطالع هذه الثلاثة ، وهي طبعاً عمدة أدبه ، يجد اقوالاً واقوالا واستشهاداتٍ واستشهاداتٍ من كل ما يمكن الاستعانة به في موضوع واحد . لكن رأيَ الجاحظ الخاص فيه بكلماته الخاصة به ، قلما تعثر عليه . وهذا ما لاحظه الكثيرون عليه وعابوه به وما ألاحِظُه انا بدوري واسميه " الجبن الادبي " . – ولتفصيل مجمل هذا ، نورد ما يلي من الامثال ، مقتبسة من حيث استطعنا اقتباسها من كتبه .

اولا كان يختصر لئلا يمل = اذ ان الملل في رأى الجاحظ آفةُ القارئ وعدو الكاتب . فعلى الكاتب نفسه ان ينفي عنصره من ادبه لا ان يركن الى سعة بال القارئ. فالناس كما عرفنا ليسوا كلهم سواء . والاختصار عند الجاحظ كان إما بايراد قسم من قصة طويلة ثم بترها والاكتفاء بما ورد . او بايراد قسم قليل من شواهد عديدة كان يمكن ايرادها كلها . اما الأسباب التي ذكرها لهذا الاختصار فكثيرة ومتنوعة اهمها الابقاء على نشاط القارئ . ثم الخوف من الخروج عن مقدار شهوة الناس . ثم كثرة المادة واستحالة ايرادها كلها. ثم مسايرة القاعدة الذهبية " خير الكلام ما قل ودل " ~~بتدوين الأحسن فالاحسن~~ . واخيرا الاعتماد على فهم القارئ .

١- قال في البخلاء (ولولا ان يخرج الكتاب من مقدار شهوة الناس ، لكان الخبر عن الاعراب اكثر من جميع هذا الكتاب[1]) . وقال في الحيوان (ولولا ان يطول الكتاب لذكرت لك الجميع " اى جميع الشواهد " [2]) . وهذان القولان ان كانا ليدلا على شيء فانما على خوفٍ من التطويل وحرصٍ على ابقاء شهوة القارئ واستئناسه متقدين .

٢- وقال في البيان الثالث (واما العصا فلو شئت ان اشغل مجلسي كله بها وبخصالها لفعلت ولكن ذلك لا يفيد[3]) . وفي " العداوة والحسد " قال (ولم نستقص الابواب كلها المعارضة في هذا الباب ولو استقصيناها لطالت بنا الايام . وانما ذكرنا من كل باب عرض ما دل على معناه الذى اليه قصد[4]) . وهذان القولان ان ~~كانا ليعطيا مغزى ايضا فانما~~ كان لهما مغزى فما هو ان جعبة الرجل ملأى . لكن ليس المقصود افراغها بقدر ما هو اصابة الهدف الاصلي .

---

(١) بخ ٣٢٢ (٢) ح ٣ / ٨٣ (٣) ب ٣ / ٢٣ (٤) كراوس ١٢٠

٢. وقال بعد هذا في " مناقب الترك " (ولكن رأينا القليل الذي يجمع خير من الكثير الذي يفرق . ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب[1]) . اما في " كتمان السر " نقد كان ابين اذ قال (وهذا باب لولا ان نشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا اليه وعزمنا عليه لاتينا عليه وهو كثير وموجود لمن طلبه . (لكن) — جملة واحدة فيها كفاية[2]) .
وفي " الحنين " قال = (ولو جمعنا اخبار العرب واشعارها في هذا المعنى لطال اقتصاصه — ولكن توخينا تدوين أحسن ما سنح من اخبارهم واشعارهم وبالله التوفيق[3]) . واظن ان في هذا كفاية للتمثيل على مقدار قصد الرجل الى الاختصار ومقدار تمسكه بما قل ودل واستخدام الاحسن في الاحسن طريقا لذلك .

٤. أما في البخلاء فقد ذكر سببا يدل على مقدار اتصاله بقارئه واعتماده على مفهومه لدرجة يختصر معها لا ليبقي على نشاطه فقط انما لانه يُحسِن الظن به . قال (وليس يمنعني من تفسير كل ما مر إلا الاتكال على معرفتك[4]) .-قد يخيل للقارئ ان الجاحظ قد وقع في الفخ كما يقولون . والا كيف قال يوصي غيره قبل مدة بأن لا يكتب إلا على أن كل الناس له اعداء، ثم يأتي هنا ليركن على "اعدائه"؟ لتخليص أبي عثمان من هذه الورطة عندي رأي بسيط وهو انه في هذا الموضوع كان يكتب لخاصة الناس وليس لعامتهم . ويدل على ذلك قوله مردفا (وليس هذا الكتاب نفعه الا لمن روى الشعر والكلام وذهب مذاهب القوم او يكون قد شدا منه شدوا حسنا[5]) . والخاصة كما يعلم الجميع يفهم بعضهم بعضا ويعتمدون على مفهوماتهم . ولولا هذه القاعدة لتعذر على الراسخين في العلم ان يكتبوا كلَّ شيء . ولو حاولوا ذلك لعافهم عن الشيء الكثير . وبروكلمان الذي طالعناه مَثَلٌ واضح على ما نقول . نعم إنه مغمز ومطعن . لكن غامزه وطاعنه لن يكون من الخاصة بل من العامة الذين لم يصلوا الى مستواه . وهذا المغمز لا يكون كذلك في الحق إلا اذا كان الرجل يكتب للعامة ولم ينزل لمستواهم او كان يكتب للخاصة ولم يشر الى ذلك . لكنه اذا أشار (كما اشار الجاحظ) فليس لغير المقصودين ان ينتقدوه لانهم ليسوا من الناس الذين كان يكتب لهم .

ثانيا كان يلخص لكي يجمع المتباعد — والفرق بين الاختصار والتلخيص كالفرق بين ذكر الشيء ناقصا وذكر اجزائه متباعدة ثم جمعها في قصير . وقد قصد اليه الجاحظ لذات القاعدة الذهبية العامة نعني الاقتصاد على الطرف الثاني . واليك امثلة مختصرة على ذلك لاننا لا نستطيع ان نوردها مطولة . والسبب في ذلك هو انها كانت تستغرق صفحات من كتبه .

---

(١) مع ٥٣ (٢) كراوس ٥٩ (٣) الحنين ٩ (٤) بخ ٢٧٤ (٥) بخ ٢٧٤

قال في البيان (قد ذكرنا في صدر هذا الكتاب من الجزء الاول وفي بعض الجزء الثاني كلاما من كلام العقلاء والبلغاء ومذاهب من مذاهب الحكماء والعلماء . وقد روينا نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الاعراب . ونوادر كثيرة من كلام المجانين واهل المرة من الموسوسين . ومن كلام اهل الغفلة من النوكى واصحاب التكلف من الحمقى . فجعلنا بعضها في باب الهزل والفكاهة . ولكل جنس من هذا موضع يصلح له . ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل[1]) وانا اقول معلقا على هذا ان لولا هذه الفقرة لصعب علي أن أُجْمِلَ ما قال الرجل في الجزئين لحد هذه الصفحة . وذلك لكثرة ما قال من ناحية ولضعف الصلة بين اجزاء ما قال من اخرى " التشويش " . وهكذا يُقَصِّر ابو عثمان من ناحية لكنه سرعان ما يعود يداويها من اخرى " التلخيص " . وتكون النتيجة ان تستقيم له الامور .

وفي البيان الثالث قال (قد قلنا في صدر هذا الجزء الثالث في ذكرنا العصا ووجوه تصرفها ، وذكرنا من مقطعات كلام النساك ، ومن قصار مواعظ الزهاد وغير ذلك مما يجوز في نوادر المعاني وقصار الخطب[2] ...) ومن هنا يفهم القارئ العلاقة بين اجزاء ما قال وهي أن لا علاقة مباشرة قوية انما علاقة ضعيفة نستطيع بشق النفس ان نسميها علاقة .

وفي الحيوان السادس قال بعد التحميد (قد قلنا في الخطوط ومرافقها وفي عموم منافعها وكيف كانت الحاجة الى استخراجها وكيف اختلفت صورها ... وذكرنا جملة القول في الكلب والديك ... وذكرنا جملة القول في الحمام والذباب والغربان و .... وذكرنا جملة القول في الذرة والنملة وفي القرد ... ثم ذكرنا بقية القول في العصافير والجرذان ... وقد بقيت بقيه[3] ...) واذا علمنا ان ما جاء في الاقتباس الاول هو ملخص مادة الجزء الاول . والثاني ملخص الثاني . والثالث ملخص الثالث . والرابع ملخص الرابع . والخامس ملخص الخامس . وما جاء في السادس هو نظرة عامة على ما سيجيء في السادس ، واذا عرفنا انه من الصعب على قارئ كتابه ان يعرف الحيوانات التي تكلم عنها لتباعد الكلام على كل منها وخلط اجزائه ببعضها ـ واذا اضفنا أني شخصيا سررت وفرحت وكأني على كنز وقعت عندما اتضحت لي اسماء الحيوانات التي تكلم عنها وقد كانت نكرتها لدي مشوشة ـ عرفنا او بالاحرى قدرنا حق قدرها ، قيمة هذا التلخيص الذى كان يتبعه الجاحظ هنا وهناك . ولثاني مرة نقول إن الجاحظ كان من أُحكم الناس . كان يعرف نَفْسَه وكان متأكدا من عيوبه . لكنه لم يستطع التغلب عليها بالمرة . ولذا راح يداريها بشتى الطرق .

---

(١) ب ٢/ ١٦٣ (٢) ب ٣/ ١٥٦ (٣) ح ٦/ ٢

ثالثا كان يكرر لكي ترسخ الفكرة – يقولون ان في الاعادة افادة وان التكرار يعلم الحمار . ولقد انتبه ابو عثمان الى هذه النكتة وحاول ان يطبقها في أدبه . فكرر كثيرا من الاحاديث والاقوال والحكايات . واعاد جانبا عظيما من المشاهدات ومثلها الاراء الخاصة . الا ان الذى يجب ان لا نغفل عنه هو ان تكرار الجاحظ ليس من النوع الممل – لانه كان ابعد الناس عنه واشدهم نفورا منه – انما كان من النوع الذى يقارب بين الخطو ويقرب بين المتباعد فيساعد على توضيح وتقرير الفكرة . وقد كان منه ذلك في كتاب واحد اى ان يعيد الشيء مرتين او اكثر في ذات الكتاب . أو أن يذكره في كتاب ويعيده في آخر . وكثيرا ما كان يشير الى تلك الاعادة الا انه في كثير غيرها كان يتغاضى عن ذلك وعلى القارئ ان يستنتجه . وكذلك نحب أن نذكر انه في كثير من المرات كان يعيد الشيء بلفظه وفي غيرها كان يبقى على المعنى ويغير اللفظ واليك بعض الشواهد تؤيد كل ما مر .

١ – حكاية ضمرة مع ابن النعمان – قال الجاحظ في البيان الاول (ولما دخل ضمرة على النعمان ابن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمامته وقصره وقلته . فقال النعمان : تسمع بالمعيدى لا ان تراه . فقال ابيت اللعن . ان الرجال لا تكال بالقفزان ، ولا توزن بميزان . وليست بمسوك يستقى بها ، وانما المرء باصغريه بقلبه ولسانه . ان صال صال بجنان وان قال قال ببيان[1]) . ثم اعادها في ذات الكتاب بل في ذات الجزء فقال . (ونظر النعمان ابن المنذر الى ضمرة ابن ضمرة فلما راى دمامته وقلته قال : تسمع بالمعيدي لا ان تراه . هكذا تقول العرب . فقال ضمرة ابيت اللعن ان الرجال لا تكال بالقفزان وانما المرء باصغريه لسانه وقلبه[2]) . وكل ما نرجوه من ايراد هذه الرواية المكررة هو اولا ملاحظة انها متقاربة اي في جزء واحد وثانيا ان الرجل لم يتقيد بالحرفية بقدر ما تقيد بالمعنى .

٢ – حكاية الأعمى – قال ابو عثمان في الحيوان الثالث (دخل ابو عتاب على عمر ابن هداب وقد كف بصره والناس يعزونه . فمثل بين يديه وكان كالجمل المحجم له صوت جهير . فقال يا أبا أسيد لا يسوءك ذهابهما . فلو رايت ثوابهما في ميزانك تمنيت ان الله تعالى قد قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وادمى صلعك[3]) . وفي الجزء الخامس من ذات الكتاب اعادها بقوله (ثم رجع الحديث الى ابن العطاف وضحكه . قال واما اليوم الاخر فان عمرا لما ذهب بصره ودخل عليه الناس يعزونه ، دخل عليه ابراهيم ابن جامع وهو ابن عتاب من آل مصاد وكان كالجمل المحجم

---

(١) ب ١٢٨/١ (٢) ب ١٦٨/١ (٣) ح ١٠/٣

١٢٠

فقام بين يدي عمرو فقال = يا أبا أُسيد لا تجزعن من ذهاب بصرك وان كانتا كريمتين فانك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت ان يكون الله عز وجل قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمى ضلعك .

قال فصاح به القوم وضحك بعضهم فقال عمرو: معناه صحيح ونيته حسنة . وإن كان قد اخطأُ في اللفظ ١.) والمرجو في هذه الاعادة اولا ملاحظة عدم الدقة في الاسماء فهو في الاولى 'ابو عتاب' وفي الثانية "ابن عتاب". ثانيا ـ ملاحظة التطويل والتقصير فهو من الاولى يسرد سردا موضوعيا لكنه في الثانية يضيف الحواشي في الاول وفي الاخر .

٣ ـ حكاية أُبوة الله وخلقته = قال في النصارى بتطويل وشرح وتعليق استغرق ما بين ٢٥ ـ ٣٢ في مسألة ابُوة الله وخُلَتِه واورد اقوالا كثيرة قالتها النصارى لاثبات الاول واخرى مثلها قالتها بعض فرق المسلمين لاثبات صحة الثاني مما يصعب علينا نقله لطوله . ثم تطرق لذات المسألة في الحيوان الثاني ص ٩ فقال =(كما قالوا عيسى بن الله وابراهيم خليل الرحمن)، هكذا فقط بالاشارة . ومن هذا يجب ان نبرز نقطتين اولاهما تكراره مادته في كتب مختلفة . وثانيهما تكراره لا باللفظ ذاته ولا بتحويره انما بالأشارة اليه . وهذا دأب الجاحظ في التنويع حتى مع التكرار .

رابعا كان يطول او يشرح لكي ينجلي الغامض = وفي هذا اكثر الجاحظ حتى رماه الكثيرون بالاسفاف . واذكر من بين هؤلاء البغدادي الذي قال عن كتاب الحيوان انه ليس اكثر من سلخ لمعاني كتاب ارسطو فيه، بالاضافة الى ما جمعه الجاحظ من احاديث العجائز وغيرهن . واذكر ابن قتيبة الذي قال انه كان يقصد الى المضاحيك او العبث . واذكر الاستاذ سلوم الذي قال " he was a sausage machine ".وما درى هؤلاء ان الجاحظ لم يكن الا عالما نفسانيا واقفا على خفايا الامور . وما دروا ان شرحه وتطويله انما كان هدفهما الافهام والتوضيح لا الثرثرة والسفسطة كما ظنوا . وغرتهم كثرة امثلته وخدعهم

---

(١) ح ٥٥/٥

.../...

طول الاستشهاده . ونسوا انه ان كان هنا اطال فهو فى اماكن كثيرة ثم اختصر . وان رائده لم يكن هذا ولا ذاك انما كان فائدة القارئ قبلهما . وما هما مع غيرهما الا وسائط لتلك الغاية النبيلة .

اما امثلة شرحه فكثيرة نذكر منها مثلاً تاليفه البيان والتبيين لفكرة بسيطة واضحة كان يمكنه ان يقول كل ما عنده بخصوصها فى قسم من الجزء الاول لكنه راح يملأ ثلاثة مجلدات . ونذكر أيضا كتاب الحيوان الذى راح يتخذ فيه من الحيوان البسيط مطية يقول عن طريقها كل ما يجول بصدره من معلومات مما كان يمكن طرحه دون اى اخلال بموضوع الكتاب . ونذكر الى جانب هذا مثلا قريبا وهو البلاغة . هذه التى ملأ صفحات وصفحات لا فى التمثيل عليها وغير ذلك مما قد يُعذَر عليه ، وانما فى تعريفها فقط . فهو لا يكتفى بايراد تعريفها الذى يراه ، ولا تعريفها الذى سمعه من الاعراب ، بل يسأل الهندى ويستفتي الفارسي ويستفهم اليوناني . لا بل للزنوج رأى وللاحباش كذلك ، وليت الامر وقف عند هذا بل ان للنجار دخلا وللحداد وحتى للرعاة .

قد يُؤخذ كل هذا ويُتسامح به على انه تنوع أو انه تفسير أو انه احاطة بالاصول والفروع ، لكن مما لا شك فيه أن لكل امر غاية يجب ان يقف عندها ولا اعتراه النقصان . ونحن نقول إن الجاحظ فى هذا قد جاوز الحد وتخطى المنطقة الحرام كما يقولون . قد يكون التطويل جميلا فى رسالة التربيع والتدوير لان روحها فكاهية ، لكني ما اظنه كذلك فى تفسير " قصيدة " بشر بن المعتمر فى ٦٠ صفحة من كتاب اسمه "الحيوان" أو من تخصيص ما لا يقل عن عشرين صفحة او فصل كامل ليقول لنا " الكتاب جميل فاقتنوه " .

<u>خامسا = كان يستطرد لينوع ،=</u> إستطراد الجاحظ او ما سماه بعضهم بالانتقال مشهور ، حتى ليخيل للمرء بعد كل هذه الشهرة ان الاستطراد واسلوب الجاحظ فى التاليف شئ واحد أوهما على الاقل شيئان متلازمان .

لكن الحقيقة غير ذلك . إذ أن الاستطراد صفة لازمت تأليف الجاحظ في بعض الاماكن وبَعُدَ عنها في كثير غيرها . أما الاماكن التي كثر فيها استطراده فهي البيان والتبيين اولا ثم الحيوان ثانيا والبخلاء بعدهذه . في حين ان الاستطراد يكاد ينعدم بالمرة في كل ما بقي من رسائله . والسبب في هذا التباين،كما نظن،هو أن الجاحظ في الاولى كان عالما جماعا يعتمد كثيرا على ما قال الناس ، وفي الثانية كان اديبا خلاقا يحاول ان يقرر امرا ويثبته من عندياته . وان اضطر استعان بغيره . هذا من جهة اما من اخرى فان طول الكتب هذه كان يستلزم الاستطراد للترويح عن النفس الملل كما سنرى . في حين ان الرسائل كانت قصيرة وذات موضوع محدد فلا داعي للملل ولا حاجة به لمداراته .

أما مواد هذا الاستطراد فكانت في الغالب اللغة وما اليها من تفسير مفردات.أو محاولة الوصول الى جذور .أو ايراد مترادفات وما إليها . او النوادر على اختلاف انواعها من تاريخ او فكاهة او ادب مكشوف او ترجمة رجل او كلام حمقى ونوكى وصالحين وزهاد . وفي كثير من الاحيان كان يستطرد بمسالة كلامية . وفي غيرها ببحث فلسفي او طبيعي . او امثالها مما كان يحفظ عن اساتذته ومن احتك بهم . وهم كثر ومتنوعون .

كثيرون الذين قالوا ان الجاحظ كان يقصد الأستطراد . وكثيرون غيرهم قالوا لا بل كان يأتي به عفوا وبدون سابق تعمد . والحقيقة ان كلا الطرفين محق فيما ارتأى . فالجاحظ كان يقصد تارة إ لى الاستطراد ، فيقدم له بقوله (والان نتحول الى قليل من الهزل .) ويشير اليه بقوله (وليس هذا من جنس ما نحن فيه). ويحسنه في عين قارئه بقوله (ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل). وتارة كان يضطر اليه اضطرارا دون ما وعي . فيعتذر بقوله (والان نعود الي ما كنا بصدده) . وقد يقر بعجزه عن ضبط قلمه بقوله (كان في النية الترتيب الا اننا عجزنا)

والخلاصة من كل هذا هي ان الجاحظ كان يقصد الى الاستطراد

ويتعمده للتنويع والابقاء على نشاط القارئ . الا انه في كثير من الاحيان لم يكن يقصده انما كان يساق اليه بحكم العادة التي كان قد تعودها وبحكم الخطة التي كان قد اختطها لنفسه في تآليفه .

على كلٍ هذا عن مواطن استطراده . وعن مادته . وعما اذا كان قد قصده ام لا . لكن هذا الاستطراد بحد ذاته = ترى هل هو محمود في التاليف ام مذموم . ثم الى اى حد يمكننا ان نلصق حمده او ذمه بالجاحظ شخصيا ؟ـ. الحق يقال ان الجواب غامض وشائك . لانه يعتمد في الاكثر على الاذواق . والاذواق مختلفة . ويعتمد على نسبة ذلك الاستطراد . وتعيين نسبة له ،أمر من الصعوبة بمكان . لكننا على العموم نقول ان الغاية التي اوجد الجاحظ من اجلها الاستطراد جميلة . اى الابقاء على نشاط القارئ . وعلى هذا نهي (اى الواسطة) جميلة ، ما دامت توصل الى هذه الغاية الجميلة . واذا زادت عنها او قصرت في أدائها نذاك نيها مغمز . وعلى هذا ، نعلى الجاحظ تقع كل التبعة في حسن استعمالها وحسن توجيهها . والجاحظ في هذا ــ كما رأينا ــ قد احسن تارة خصوصا في استطراداته القصيرة . وقصر اخرى خصوصا في استطراداته الطويلة التي تُنسي القارئ ما كان بصدده وتُبعده عما كان يطالع من امثال ايراد تفسير لقصيدتين استغرق ما بين صفحة ٨٣ ــ ١٧٥ من الجزء السادس من الحيوان . مما لا يمت الى الموضوع السابق ولا اللاحق بصلة .

والان الى اى حد يمكننا ان نُحَمِّل الجاحظ تبعات هذا الاسلوب ! وللجواب على هذا لا بد لنا من ذكر ما يلي = اولا ان نكرة الناس عن الادب في تلك الايام كانت " انه الاخذ من كل شيء بطرف[١] " . وثانيا ان نكرة الجاحظ عنه كانت " هو ايراد الشاهد تلو الشاهد[٢] " . وثالثا ان موضوعاته التي طرقها وخصوصا في البيان والحيوان جانة تحتاج لمثل هذه المداعبات الاستطرادية . رابعا ان نوع الثقافة التي تثقفها الجاحظ كانت من النوع "الكشكولي" الذى ان كان لينتج طريقة في التاليف نانما هي هذه . وعلى هذا نرى ان عدة عوامل تجمعت

---

(١) ابن خلدون باب الادب (٢) البيان والتبيين (٧٥/١)

وعملت معا في اتجاه واحد حتى خلقت ما يعرف " باستطراد الجاحظ "

لكن مهما تكن العوامل . ومهما اثرت الظروف . فالجاحظ مسؤول مسؤولية ايجابية مباشرة عن هذه الفوضى التى سادت كتب الادب فيما بعد . اولا لشهرته كزعيم لادباء عصره وثانيا لتقدمه في سلم الزمن مما اضطر الاخيرين لتقليده والنسج على منواله .

سادسا كان يمزج ليرطب الجد = بالرغم من ان هذا ضرب من ضروب استطراده الذى مر الكلام عليه . إلا ان بروزه في مادة الرجل ودفاعه عنه ومعرفته به وتعرض الكثيرين له على وجه التخصيص، اضطرنا لافراده بفقرات . قال ابن قتيبه مهاجما الجاحظ وآخذاً هذا الضرب بعين النظر = انه كان يقصد الى المضاحيك في كتبه . ومثله قال البغدادى في الفرق بين الفرق ، الا ان الحقيقة فاتت صاحبينا فالجاحظ لم يكن يهزل لانه مهزال . ولا كان يضحك لانه ضحكة . ولا كان يقصد الى اى من هاته بذاتها . إنما كان يقصد اليها لغاية اسمى . وهى أن كثيرين لم يُرزقوا الجَلَدَ لدرس المسائل العويصة ، فلا بد لهم من شىء من الترفيه لكي يجتازوا المفازة . وقال في البخلاء – نحن نقصد الى كل هذا : (ومتى اريد بالمزح النفع، وبالضحك الشىء الذى جُعِل له الضحك – صار المزح جدا والضحك وقارا [1]) . وهذا لعمري عين الصواب . ونحن نعتقد أن في هذا الكفايةَ للرد علي هذين الطاعِنَيْنِ وامثالهما ممن تعرضوا بالغمز لمزح أبى عثمان .

وأبو عثمان يرى أن في هذه الطريقة أو الواسطة التى لزمها ، ضرورة لا مناص منها اذا كان الكاتب حقا يقصد لافادة قارئه . لان الانسان بعد كل الاعتبارات انسان . معرض للسأم والملل والبرم . ولهذا (لا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل [2]) .

وليس هذا فقط . انما هناك تَشيُّع للمزح وتطرُّف له حتى انه في كثير من المواضع فضله على الجد كحالة نفسية فقال (وأول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح انه دليل على حسن الحال وفراغ البال . وان الجد لا يكون الا من فضل حاجة .والمزح لا يكون

---

١) بخ ١٢ (٢) ب ١٦٣/٢

الا من فضل غنى . وان الجد غضب والمزح جمام . والجد مبغضة ، والمزح محبة . وصاحب الجد فى بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح فى رجاء الى ان يخرج منه . والجد مؤلم ، وربما عرضك لأشد منه والمزح ملذ وربما عرضك لالذ منه [1]) .

لهذه الدرجة بلغ تشيع الرجل لهذه الواسطة نظرياً . أما عمليا فقد استعملها واستخدمها واحسن فى ذلك كل الاحسان . حتى إن قارئا فى كتاب الحيوان الذى الفه فى سبعة اجزاء والذى من الصعب الجلوس اليه تباعا دون عنت ـ يقرؤه "القارئ" من اوله الى اخره دون ان يفكر فيما يسمى مللا او ساما ، ولولا هذه الميزة لما كان مثل هذا النجاح من قبل الكاتب.

وملاحظة اخرى نحب ان نذكرها للرجل بهذا الخصوص . وهى انه لم يجعل مزحه فى ابواب خاصة انما فرقها فى تضاعيف القول لتكون بمثابة الملح فى الطعام او السكر فى الشراب المر . قصد الى هذا ولم يكن منه عفوا اذ قال فى البيان = (ولم نحبب ان نجعله فى باب واحد [2]) .

سابعا ـ كان يَعِدُ ليشوق = وهذه ميزة سابعة من ميزات اسلوبه فى التأليف لم يفطن اليها احد قبله . ونحن وان كنا نلومه من حيث الصدق والكذب اى من حيث الاخلاق ـ لانه لم يكن يصدق فى وعوده كلها ـ الا اننا نمتدحه من حيث نيته التى قصد من ذلك . وهى ابقاء القارئ متطلعا الى شئ يلذه .

ومن امثلة وعوده قوله = (زعم البصريون ان خديجا الخصي خادم مثنى بن زهير كان يجرى مثنى فى البَصَرِ فى الحمام وفى سِمَةِ الفراهة واتقان المعرفة وجودة الرياضة . وسنذكر حالَه فى باب القول فى الحمام ان شاء الله تعالى[3]) . لكن يظهر ان اللهَ تعالى لم يشأ . ولذا لم يذكر عنه شيئا ولم يف بوعده . وفى مكان اخر قال بعد كلامه على بعض من عُمِّرَ = (وسنذكر على هذا الباب فى موضعه من ذكر المعمرين . ونميز الصدق فيه من الكذب . وما يجوز وما لا يجوز ان شاء الله تعالى [4]) . ولشانى مرة لم يشأ الله تعالى .

---

(١) مج ٩١ (٢) ب ٧٥/١ (٣) ح ٥٣/١ (٤) ح ٧٢/١

الا انه من العدل ان نقول انه صدق فى كثير غيرها . نذكر من بينها بره بوعده حيث قال (وسنقول فى السّمْع والعِسْبار وفى غيرهما من الخلق المركب ان شاء الله [1]) . وكذلك وعده حيث قال (وسنذكر من نوادر الشعر جملة . فان نشطت لحفظها فاحفظها فانها من اشعار المذاكرة[2]) . وفعلاً أخذ بسرد طائفة منها .

ثامنا – كان يسائل قارئه ليبقيه منتبها = وفى هذه الوسيلة سرٌ قَلّما فطن اليه غيره . لان القارئ الذى يقرأ أسئلة موجهة اليه يظل دائما فى حال يقظة . اما انتظارا لقراءة اجوبتها ان كان المؤلف سيذكرها واما أملا فى الاجابة عليها بنفسه ان لم يحاول المؤلف ذلك .

وامثلة هذا كثيرة ومتناثرة فى كل كتبه . ولو لم يكن لدينا الا اسئلته فى " التربيع والتدوير " وتساؤله البلاغى فى " الرد على النصارى " لكفاه تمثيلا ،

خذ مثلا قوله من التربيع (خبرنى مذ كم كانت الناس امة واحدة ؟ ولغاتهم متساوية ؟ وبعد كم بطن اسود الزنجى وابيض الصقلبى ؟ ولم صار اللون اسرع تنقط من الجمود ؟ ولم كان الولد يجئ على شبه ما فى ابيه من الامور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة فى اصل تركيبه ؟ ومع ذلك لم يولد صبى قط فى العرب مجنونا ؟ وما هذه الخاصية التى منعت من هذا المعنى ؟ وفى كم تمت لكل فرقة بعد التبلبل لغتها واستفاض لسانها ؟[3]) . ثم خذ ايضا قوله من الرد على النصارى (وسنسألهم ان شاء الله ونجيب عنهم ونستقصى لهم فى جواباتهم كما سالنا لهم انفسنا واستقصينا لهم فى مسائلهم = فيقال لهم = هل يخلو المسيح ان يكون انسانا بلا اله او إلاها بلا انسان او ان يكون الها وانسانا .. فان زعموا انه الاها بلا انسان قلنا لهم ... وان زعموا انه انسان بلا اله قلنا لهم ... وان قالوا بل كلاهما قلنا لهم ...[4]) .

وان كنا لنستنتج من هذين المثلين شيئا فانما ان الرجل كان يستخدم هذه الظاهرة (السؤال) كثيرا وانه تارة كان يسال للتعجيز واخرى للاستفهام .

---

(١) ح ١/ ٧٢ (٢) ح ٣/ ١٣ (٣) مج ٩١ (٤) نصارى ٣٧

وانه كان تارة يجيب وتارة يترك الاجابة لقارئه . وهكذا يشغله في صفحات وصفحات .

<u>تاسعا ـ كان يخاطب قارئه ليبقى على شبه صلة شخصية به</u> = وفى هذا ما فيه من استسلام القارئ لصاحبه الكاتب . ومن اطمئنانه الى اكثر ما يقول. وهذا الخطاب كان تارة بشكل اسئلة كما مر وتارة بشكل نصائح يسديها اليه فى كثير من الامور نشير منها هنا الى ما ذكرناه من نصائحه له فى التاليف . وتارة بشكل محاولة جذبه الى جانبه ضد شخص ثالث . وهذا كثيرا ما يبرز فى رسائله الدينية مثل "حجج النبوة" مثلا . والجامع بين هذه كلها ـ استعماله كاف الخطاب ـ وبقصد التمثيل فقط ، لا بقصد الاستقصاء ، نورد الاقتباس التالى من الحيوان، الذى حاول فيه اثبات حداثة ميلاد الشعر .(قال امرؤ القيس =

ان بنى عوف ابتنوا حسنا؟	ضيعه الداخلون اذ غدروا
ادوا الى جارهم خفارتــــه	ولم يضع بالمغيب ما نصروا؟
لا حميرى وفى ولا عدس	ولا استلت عير يحكها الثفر؟
لكن عوير وفى بذمته	لا قصر عابه ولا عور ،

فانظر كم كان عمر زرارة وكم كان بين موت زرارة ومولد النبى صلعم (١) الا انه يحسن بنا ان نذكر ان ابرز مواطن هذا الاتصال هى اولا مطالع الكتب . وثانيها مواقف الجدال واخيرا المواقف العاطفية خصوصا فى رسائله التى فيها يهزل او يهجو او يمدح او ما الى ذلك . فهو لا يصف الشخص الثالث وانما دائما يتكلم مخاطبا الشخص الثانى .

<u>عاشرا كان لا يتكلم فى كتبه لئلا ينفر قارئه</u> = وهذه ظاهرة من ادق الظواهر النفسية عرفها الجاحظ واستغلها لا فى رسائله الثانوية وانما فى امهات كتبه . فى الحيوان وفى البيان وفى البخلاء ثم فى التاج والمحاسن ان صحت نسبتهما اليه . والسبب فى هذا كما ارى ـ بالاضافة الى انه بصدد بحث علمى يجب ان يعتمد فيه على اراء غيره ـ ان القارئ انا كان حيث تطلع وجد اراء للكاتب شخصية وخاصة ، ينفر من الكتاب ويرمى صاحبه بالتبجح . وهذا مشاهد ومعروف .

---

(١) ح ١ / ٣٧

ويكفى ان اقول انى اكره كل ما كتب زكى مبارك ومن بعده العقاد ـ بالرغم من انهما كاتبان كبيران ومن ان ادبيهما من الادب الرفيع ـ لانى اكره الشخصية والادعاء اللذين يَسِمُ بهما هذان الاديبان ادبيهما . نقول حرص الجاحظ على هذا فى أمهات كتبه وفى كثير من رسائله خصوصا التى يمكن ان يُرمىٰ فيها بالتحيز وهو يقصد الى الحق . مثل رسالته فى مناقب الترك .

لكن إذا كان لن يقول ما بنفسه بلسانه ، وهو يريد ان يقول . فكيف يقول .. خير واسطة هى ان يروح يجمع كل ما وصلت اليه يده . ويعبوء "تعبئة عامة" ويحشوه فى فصول مجموعها يقود للغاية التى يريدها . وعلى هذا النهج سار فى كل البيان اللهم الا من شذرات خاصة . وكل الحيوان اللهم الا من خطرات عابرة . وكل البخلاء اللهم الا من لفتات لم يستطع كتمانها +

خذه مثلا يريد أن يقول إن البيان أحسن من عدمه فى "البيان والتبيين" . فماذا يفعل . لا اكثر من ان يحشد كل اكثر ما عرف من اقوال نثرية ومقطعات شعرية وحكايات مختلفة ويروح يصبها الواحدة تلو الاخرى حتى يتم له فصل . مجموعه يقول بان البيان احسن من عدمه .

ثم خذه فى "تفضيل النطق على الصمت" ، فى رسالته الكاملة التى كتبها بذلك تجده استعمل ذات الشىء . اقوال واقوال . اما رأيه الخاص فمن العسير ان تقف عليه . وشالث مَثَلٍ نحب ان نقدمه على هذا هو رسالته فى مناقب الترك التى كانت بكاملها مثالا ناطقا على ما نقول . والتى تحتفظ بجملة منها هي التى هَدَتْنا الى هذه الميزة فى اسلوبه . اذ دونها بقلمه . قال (إلا أنّا على كل حال سنذكر جملا من احاديث رويناها ووعيناها . وامورا رايناها وشاهدناها . وقصصاً تلقفناها من افواه الرجال وسمعناها . وسنذكر ما حُفِظ لجميع الاصناف من الالات . حتى يكون الخيار فى يد الناظر فى هذا الكتاب.المتصفح لمعانيه.المقلب لوجوهه والمفكر فى ابوابه.المقابل بين اوله واخره . ولا نكون نحن انتحلنا شيئا دون شىء وتقلدنا تفضيل بعض على بعض . بل لعلنا ان لا نُخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد . فاذا دبرنا كتابنا هذا التدبير وكان موضوعه على هذه الصفة كان ابعد له من مذاهب الجدال والمراء واستعمال الهوى ¹)

(١) مج ١٧

هـذا ما قـصد اليـه الجـاحـظ وهـذه هي غـايـته من ذلك القصـد نعـنى العـدل اولا وعـدم التحيز ثـانيـا والابتعـاد عن قـول " انا " قبل كل شـىء . لقـد لاحـظ هـذا عليـه البـاقلانى فى اعجـاز القـرآن وهاجمه بعـض الشـىء واتهمه البغـدادى بقلـة البضـاعة . الا ان الحـق يقـال ان لكل شـىء حـد ا تجاوزه معناه الانتكاس . فالاستشهـاد وخـصـوصـا فى المسائل العلميـة جميـل ، لكن انعـدام الشخـصـية ونعنى الاراء الشخصية بالمرة وخـصـوصـا فى الادب امر لا يحمد عليه صاحبه البتة. واقل ما نستطـيع ان نصـفه بـه انه جبن ادبى لا نقـر صـاحبه عليـه .

لكننا اذا ذكرنـا أن الجـاحـظ كان ابرز اديب عربى ظهرت شخـصيتـه فى كتبه ودافع عن ارائـه فى رسـائـله ، ـ عرفنـا ان الرجـل لم يكن فقـيرا من هـذه الناحيـة ـ لكن المشـكلة تبقـى بـدون حل . وهى ـ لماذا انعـدمت هـذه فى كتبـه الثـلاثـة الكبرى وعلى الاخص فى البيـان . الجواب عنـدى هـو = ان هـذه الثـلاثـة كتبهـا فى أُخريـات ايـامه بعـد ان اطلع وحـفظ وجرب . محـاولا ان يـدون فيهـا اكثر ما يستطـيع تـدوينه مما يعرف . حفـظا لـه وابقـاء عليـه للخـلف . لكن ان يكتـب هـكذا كشـاكيلَ ومجمـوعـات بـدون موضوع ، أمرٌ يُظْهِـرُ ضَـعْفـاً من ناحيـة ولا قيمةَ لـه من أُخرى . وبما أن موضوع الادب والبيـان واسـع ، لـذا ـ راح يتكلم فيهما ويـدون ما عنـده . ومثـل هـذا فعـل فى الحيوانات وما علق على هوامشـهـا من مخـتلفـات .

من هـذا نرى ان الجاحـظ كان شـديد الحرص على قـارئه . يـحاوره ويداوره ويسـعى جهـده لئـلا يغضبـه . ويفعـل له كل ما فى وسعـه لئـلا يسـئمه . وفى ذات الوقت كان يـأخـذ بيـده ليقـوده الى حيث يـريـد دون اى سـوء ظـن . ولهـذا كانت كتبـه ذات رواج . ولهـذا كان ينتظـرهـا النـاس انتـظـار صحـف اليـوم . ولهـذا كان لهـا اثـرهـا الفعـال .

الا ان هنـاك نقـاطـا اخرى عُرف بهـا اسلـوب الجـاحـظ مما يجـدر بنـا ان نلحقهـا بسـابقـاتهـا لتتم لنـا نِظـرةٌ عامة فى أخص ميزات اسـلوبه التـأليفى . لكن بما انها ذات صبغـة مخـتلفـة عن سـابقـاتهـا ، لـذا سـنعطيهـا محـلاً منفـردا عنهـا . اهم هـاته ما يلى :

اولا – المسائل الميكانيكية – = كان الجاحظ يحرص كل الحرص على ان يبدأ كل رسالة او كتاب يخطه او يمليه بالحمد لله ان لم يكن بالبسملة . وبعد هذا كان دائما حريصا على ان يدعو لقارئه بما حضر من الدعاء . ثم يروح يذكر الدافع الذى دفعه لكتابة ما بين يديه . ثم الغرض الذى يرجوه من الكتابة . بعد ان حركه ذاك الدافع او الباعث . حتى اذا ما تم له كل هذا اخذ فى سرد اكثر ما يمكنه ان يسرد عما سيقول فى الكتاب المقصود . وفى الاثناء يذكر كتبا سابقة او ينوه باخرى لاحقة .

نقول هذه المسائل حرص الجاحظ عليها كل الحرص وسعى جهده لان تكون بارزة فى كل كتاب من كتبه . والذى يطالع كتبه يتحقق من كل هذا . الا اننا هنا سنورد مثلا واحدا يبين اولا / ويؤكد ثانياً ما قلنا . وسنختاره من مقدمة البخلاء وسنرتبه حسب الترتيب الذى قدمنا .

١ = بسم الله الرحمن الرحيم

٢ = تولاك الله بحفظه واعانك على شكره ووفقك لطاعته وجعلك من الفائزين برحمته ....

٣ = ذكرتَ حفظك الله انك قرأت كتابى فى " تصنيف حيل لصوص النهار وفى تفصيل حيل سراق الليل " ...... وذكرتَ مُلَحَ الحزامى واحتجاجَ الكندى.. وقلتَ بَيِّن لى ما الشئ الذى خبل عقولهم " البخلاء " ... وسألتَ ان اكتب لك عِلَّةَ خباب فى نفى الغيرة وان ذا المروءة الى هذا العلم افقر... فاما ما سالت فساوجدك ذلك فى قصصهم ان شاء الله تعالى ...

٤ = تفصيل حالهم وتبيان دخائل نفوسهم اجابة للطلب فقط اذ يقول = ولولا انك سالتنى هذا الكتاب لما تكلفته . فان كانت لائمة او عجز فعليك وان كان عذر فعلي دونك .

٥ = ونبتدئ برسالة سهل بن هرون ثم بِطُرَفِ اهل خراسان لاكثار الناس فى اهل خراسان ...

٦ = كتاب تصنيف حيل لصوص النهار ...

.../...

ويجدر بنا ان نذكر ان منهجه فلما اورده كاملا في صدر كتابه . بل تعود ان يذكر منه نُتَفاً متفرقةً هنا وهناك في ثنايا الموضوع كلما دعت اليه الحاجة. وما أظننا بحاجة للتمثيل عليها .

ثانيا – ثنائيته = كان الجاحظ ثنائيا في تاليفه . بمعنى انه لا يستطيع ان يتكلم عن مفرد لوحده . انما بمقارنته بآخر . فهو لا يتكلم عن الكلب الا اذا قارنه بالديك . ولا عن الدجاج الا اذا أتى بالحمام . ولا عن الخنزير الا اذا باراه بالفيل . هذا مظهر من مظاهر ثنائيته في عالم المُقَيَّد . اما الثاني فهو في ميدان المُطْلَق . فهو لا يتكلم عن الشجاعة الا اذا قال في الجبن . ولا عن الكرم الا اذا روى في البخل . ولا عن محاسن المرأة الا اذا وازاها بمعايبها . ولهذا اشتهر بالأضداد . اما الثالث فهو انه في حالة عدم ضرورة المقارنة او في حالة استحالة وجودها يروح يفضل هذا الشيء على غيره ويدافع عنه بمفرده كانه تبناه كما رأينا في تبنيه الدفاع عن خطابة العرب ومقارنتها بغيرها.

وهذه لعمري ظاهرة لا تحتاج للتمثيل بقدر ما تحتاج للتعليق والتعليل . خذه مثلا يتكلم عن فصاحة اللسان . وهذه مسألة يمكن دراستها دراسة موضوعية بحتة . لكن انى للجاحظ ذلك . فهو لا يستطيع ان يفيها حقها حتى يثبت ان العرب افصح الناس لسانا وانهم الامة الوحيدة من بين الامم التي امتازت بها . وانها سِمَتُهم التي بهم التصقت وفيهم خلقت . اما غيرهم فلا شيء في الميزان . تُرى لماذا كل هذا ... وهل هناك من سبب قد كمن في الخفاء ...

لقد قال بعضهم إن سبب ذلك هو القوة التي امتلأ بها الجاحظ فهو يحب ان يُعلنها للناس بكل مناسبة يمكنه ذلك . اما نحن فنرى ان العكس من هذا ايضا صحيح . وهو ان الرجل فيه شعور "بالنقص الذاتي" فهو يحاول دائما ان يستره بمثل هذه المظاهر . اما ايهما الصحيح فالحق يقال ان الجواب مبهم . الا انى اميل الى الثاني. ويساعدني في رأيي ان نقصه الخَلقي عامل فعال في هذا لا يمكن ان يتناساه الجاحظ حتى ولو كان ادهى دهاة عصره .

من هذا نرى ان اهم ميزات أسلوب الجاحظ في التاليف، أو الدعامة التي يقوم عليها، أو الوحي الذي املاه عليه وسيره فيه هو اولا حرصه على القارئ وثانيا طبعه الذي لم يستطع ان يخفيه. والان نتحول الى كلمة مختصرة في اثر هذا الاسلوب فيمن جاء بعده .

ثـالثـا ـ اثراسلوبـه فيمـن جـاء بعـده =

مما لا شك فيه ان العـصـر العباسى (وخصوصا قرنيه الاوليين اللذين عاش فيهما الجاحظ) كان أزهى عصور الادب العربى على الاطلاق . بل عصره الذهبى الوحيد الذى وصل فيه الى اقصى منتهاه . ومما لا شك فيه ايضا ان الجاحظ كان علما من اعلامه ان لم يكن علم اعلامه على وجه الاطلاق . ونتيجة لهذا لا شك ان الكثيرين تاثروا واتتموا به . فمن هم هولاء ؟ واين ؟ وكيف كان منهم ذلك ؟

هذا الاسلوب فى التاليف الذى كنا نتكلم عنه هو خَلْقُ الجاحظ وابداعه .
اولا لان حركة التاليف على العموم كانت فى بدئها ولما تتكيف حتى يقال انه اخذ من اقرانه او سابقيه . وثانيا انه كان متقدما على اكثر اولئك الاقران فى الزمن . وثالثا انك اذا درست مَن قَبْلَه لم تجد شيئا عندهم يمكن ان يقال إن الجاحظ نقله عنهم او إنه تاثر بهم فيه فى عالَم التاليف . انما على العكس تجد أن اكثر من جاؤوا بعده قد نسجوا على منواله .

اما اشهر اولئك الناس فالمقريزى فى عجائب المخلوقات . والدميرى فى حياة الحيوان الكبرى والمبرد فى الكامل . والمرزبانى فى الموشح . ولن ننسى الأبشيهى فى المستظرف ولا الخفاجى فى مجالس الظرفاء ولا البيهقى فى المحاسن والمساوى الذى يكاد يكون صورة اخرى عن المحاسن والاضداد .

عندما نقول (تأثر) نعني انه ابتدع تلك الطرق التى استنها الجاحظ والتى تكلمنا عن اهمها فيما سبق . مثل التلخيص والتكرار والهزل والاستطراد ومخاطبة القارئ والثنائية والتساؤل وعدم ابداء الراى الصريح الى اخره ... هذا إن لم يأخذ من مادته رأسا . وللتمثيل فقط ناخذ فصل الذباب من حيوان الدميرى ونقارنه بفصل الذباب من حيوان الجاحظ . إلا اننا نأسف لعدم استطاعتنا النقل بكامله لطول الفصل ولذا لجأنا لذكر أوجه الشبه فقط =

١ ـ كلاهما بدأ بلغويات الذباب
٢ ـ كلاهما استطرد فى لغقوخرافة وفقه واشياء اخر
٣ ـ كلاهما استعمل الثنائية
٤ـ كلاهما هزل وضحك
٥ ـ كلاهما قل كلامه وكثرت استشهاداته
٦ ـ الا انهما افترقا فى ان الدميرى

اخذ عن الجاحظ حرفيا فى الجزء الاول ص ٣٢٢ وهذا لا يعنى سوى شىء واحد وهو ان الدميرى قرا الجاحظ واستفاد منه ونقل عنه وبالطبع تأثر به .

المقالة الثانية : في اسلوبه الانشائي

يقولون ان الاسلوب هو الرجل ويقولون كذلك ان الانشاء بما فيه ينضح ، ويقولون اشياء كثيرة اخرى إن دلت على شيء فانما على ضرورة اتفاق الكاتب واسلوبه وان يكون الاخير صورة طبق الاصل عن الاول اذا كان كاتبا ناجحا في الحق . والجاحظ قد برهن على انه كاتب ناجح . وقد برهن على انه رجل فريد في بابه . ولهذا وجب ان يكون له اسلوب واسلوب فريد في بابه مثله . فما هو هذا الاسلوب !

لقد استمع الجاحظ الى الاعراب فافاد من اسلوبهم البدوي الخشن الجزل ، ودارس العلماء فاطلع على طرقهم في كتاباتهم ، وطالع المؤلفات وتشرب بروحه روح اساليبها . والى كل هذا عرف كثيرا عن الفرس واليونان والهند وغيرهم في كتبهم . ولا بد ان يكون قد اخذ من كلٍّ نصيبا معينا . صهر مجموع هذه الأنصبة في أتون عقله المتقد ثم أخذ يكتب باسلوبٍ مُكَوِّناتُه منها ولكن شخصيتَه جاحظيّة . فما هو هذا الاصلوب !

هو التوازن = وما أدراك ما التوازن ! ولكي تعرف ما هو التوازن او على الاقل لكي تاخذ عنه فكرة عامة سنحاول اولا ان نتعرف الى مُقَوِّماته التي لا بد من اجتماعها ليتكون عندنا التوازن . ثانيا ان نُلِمّ ولو باطراف من مُرافَقاته اى تلك الخصال التي ليست من صُلبه وانما ترافقه وتفوح عنه ولا بد من وجودها معه اذا ما وُجِد . ثالثا رُوّادُه الذين شقوا طريقه امام جاحظنا . رابعا أتباعَه الذين تأثروا به بعد ان بَلْوَرَهُ وجَسَّمَهُ الجاحظ أسلوبا كاملا . خامسا مَواطِنُه التي كثر فيها واخيرا تَقْديرُه او ما قال فيه اعداؤه وانصاره وما نرى فيه نحن بكل اختصار .

اولا مقومات التوازن = نعني بالمقومات تلك الخصائص التي يجب ان تجتمع مع بعضها ليكون من مجموعها اسلوبا جديدا خاصا هو الذي ندعوه

.../...

"التوازن" واهم هذه المقومات ما يلي =

١ - الفاظ رشيقة : وهذه الالفاظ كما وردت في اسلوب الجاحظ - وكل كلامنا عنه - كانت في الاغلبية الساحقة سهلة بسيطة قريبة من الواقع لا تَمَحُّل فيها ولا تَصَنُّع ولا تقعر ولا توعر . تؤدى المعنى المطلوب وتقف عندذلك الحد . لم يقصد منها ظلالا ولم يطلب منها ما وراء المظاهر .

ولم يكن هذا من الجاحظ عفوا بل قصده اذ قال : وخير اللفظ ما كان على قد المعنى لا زيادة فيه ولا نقصان [1].

وعلى هذا جرى في كل كتاباته تقريبا . وإليك المثل البسيط التالي من " الجد والهزل " قال (وبعدُ متى صار اختيار النخل على الزرع عقد الاخوان . ومتى صار تفضيل الحب وتقريظ التمر يورث الهجران . ومتى تميزوا هذا التمييز وتهالكوا هذا التهالك . ومتى صار تقديم النخلة ملة وتفضيل السنبلة نِحلة ومتى صار الحكم للنعجة نسبا وللكرامة صهرا ومتى تكون فيها دبانة وتتحكم فيها بصيرة وتحدث عنه حمية [2]) .

الا انه يجب ان لا يفهم من هذا ان جميع مفردات الجاحظ على هذه الشاكلة، سهلةً سلسلةً اذ انه في الحق استعمل كثيرا من الكلمات الصعبة مما يحتاج في حله لقاموس .واخرى غريبة لا تمكن معرفتها الا من معرفة كلام الناس انذاك . فللدخيل في لغته نصيب كما ان للعامية مثله . واليك الكلام التالي مثلا على مفرداته الصعبة = قال في " الجد والهزل " (فلان يدهق في حبه [3]) . وقال في البخلاء (كان فلان يتعرض للسابلة ويسالهم العلق [4]) . واليك هذا مثلا على الدخيل في لغته . قال في الحيوان الاول (واجود الخصاء ما كان في الصغر وهو يسمى بالفارسية بربخت يعني بذلك انه خصي رطبا [5]) واليك هذا مثلا على بعض اثر الكلام فيها = قال في البيان (اخرجه الله من باب الليسية

---

(١) (٢) كراوس ٦٩ (٣) كراوس ٧١ (٤) بخ ١١٥ (٥) ح١ = ٨١

فادخله في باب الايسيه [١] . واليك هذا الاخير مثلا على عاميته = قال في البخلاء (وليش يقول الناس) [٢] .

واذا كنا لنستنتج شيئا من وراء كل هذا فهو واقعية الرجل التي كان يسعى وراءها في كل ما دون من كلام . مطابقة المقال لمقتضى الحال هي التي يريدها . التعبير الواضح عن اي طريق هو الذي يطلبه وما عداه فمن الكماليات . اذا كان لا بد من الفارسية فلتكن الفارسية . واذا كان لا مناص من العامية فلتحى العامية . واذا كانت الفصحى فالفصحى فوق الجميع . هذا هو دستوره .

٢ــ جمل قصيرة .= اذا كانت مفرداته قد اتصفت على العموم بالخفة والرشاقة فان جمله على العموم تتصف بالقصر والانسجام والسرعة . السرعة في الضرب نحو الهدف . واليك مثلا منها يظهر لك بنفسها ما نريد ان نقول اذ تشعر بعجز عن التعبير . قال الجاحظ في التربيع =

{ وما اظنك صرت الى معارضة الحجة بالشبهة . ومقابلة الاختيار بالاضطرار . واليقين بالشك . واليقظة بالحلم . الا للذي خصصت به من ايثار الحق . وألهمته من فضيلة الانصاف . حتى صرت احوج ما تكون الى الانكار أذعن ما تكون بالاقرار . واشد ما تكون الى الحيلة فقرا اشد ما تكون للحجة طلبا . الا ان ذلك بظرف ساكن . وصوت خافض . وقلب جامع . وجأش رابط . ونية حسنة . وارادة تامة . مع غفلة كريم . وفطنة عليم . وان انقطع خصمك تغافلت . وان خرف ترفقت . غير منخوب . ولا متشغب . ولا مدخول . ولا مشترك . ولا ناقص النفس . ولا واهن العزم . ولا حسود . ولا منافس . ولا معاقب . تقل الحز وتصيب المفصل [٣] }

جُمَلٌ كلها قصيرة وكلها سهلة وكلها بسيطة خفيفة رشيقة . واضحة موجهة نحو غرض . فهي مسرعة اليه . حتى ليخيل الى القارئ انها رشاش " متراليوز " في ظلام الليل قد انطلق سراعا نحو الهدف المقصود . لاذعة احيانا قارسة اخرى مضحكة احيانا . مبكية في غيرها . الا انها على العموم خفيفة المحمل . بسيطة التركيب . ذات مفعول عظيم .

لكن يجب ان لا يخيل للقارئ ان كل جمل الجاحظ من هذا النوع . فهذا وان كان هو الاغلب الاعم الا ان هناك غيره . فمن تعابيره ما هو كلاسيكي يحتاج للاصمعي حتى يفض غامضها . ومنها ما هي خاصة به نسجها بعقله ودونها بقلمه

---

(١) ب ١٠٧/١ (٢) بخ ٢٢٠ (٣) مج ٩٢ .

ومنهــا ما هــي عــاميــة بل ومبـتذلـة . واليــك امثـلة على كل من هـاته .

١- قـال في الحيـوان (والحيـوان لا يخرج في لـغـة العـرب من فـصيح واعجم . كذلك يقـال لها لم يتكلم قـط . فيحملون ما يرغو ويثغو وينهق ويصهل وتسبح ويخور ويبغم ويعوى وينبح ويزقو يضغو ويهدر ويصفر ويصوص ويقوق وينعب ويزار ويترب ويكش ويعج – على نطـق الانسان اذا جمع بعضه على بعض[1].)

٢- اما تعابيره الخاصة فاكثرها جميلة يدل دلالة واضحة على روحه ومن اشهرها = على وجه الدهر [2] . مسح طلوع الشمس [3]. فما الميسم في جلد البعير باعلق من بعض الشعر [4] . طارت عصافير راسه – للخائف [5] . ولم ار جبانا قط اجرأ منه ولا جريئا قط اجبن منه [6] ومثلها كان اعلم الناس بما لم يكن واجهلهم بما كان .

٣- اما التراكيب فمثل المفردات العامية التي لم يتحرج الجاحظ من استعمالها حيث اقتضت الضرورة = قال في البخلاء (فلان عنز [7] على ، وفلان خرج فوق ابوه [8] .) وفي التربيع (انا تربية كفك [9]) . وفي البيان (انشدوه قصيدة عبدة (التي على اللام) ، ومثلها قصيدة ابن الاسلت (التي على العين [10]) .

ولولا ان شرح هذا سيأتي في باب النقد لاطلنا فيه . لان الجاحظ قصده وتعمده ارضاء للواقعية التي كانت تجرى في كل عرق من عروقه وطبعت كل عمل جاء به .

٣ . <u>نفس طويل</u> = وبالنفس الطويل نعني ذلك النوع من التعبير الذى يمسك بنفس القارئ مدة اطول من اللازم انتظارا للنتيجة . وهذا بالطبع لا يكون في القارئ الا بعد ان يكون قد توفر من قبله في الكاتب. وقد كان الجاحظ فعلا ذا نفس طويل . واما طول النفس هذا فقد لاحظناه في ظاهرتين = الاولى بعد ما بين المبتدا والخبر في الجملة الواحدة والثانية قربهما لكن بعدما بين ابتداء القول وتمامه الذى لا يطمئن للقارئ الا بالوصول اليه . ولكي يكون هذا واضحا نورد

(١) ح ١/١٦ (٢) بخ ١٧٣ (٣) ح ٣/ ١٢ للجزا المشهور (٤) ح ١/ ١٧٨
(٥) ح ٢/ ١٣٢ (٦) ب ١/ ٤٩ (٧) بخ ٦٥ (٨) بخ ٨٠ (٩) بخ ١٣٧
(١٠) ب ١ / ١٧٠

الاقتباس التالي تمثيلا على الاول = قال الجاحظ في البيان (ولما علم واصل بن عطاء انه الثغ فاحش اللثغ . وان مخرج ذلك منه شنيع ، وانه اذ كان داعية مقاله ، ورئيس نحلة وانه يريد الاحتجاج على اصحاب النحل ، وزعماء الملل وانه لا بد من مقارعة الابطال ، ومن الخطب الطوال . وان البيان يحتاج الى تمييز وسياسة ، والى ترتيب ورياضة . والى تمام الالة . واحكام الصنعة . والى سهولة المخرج . وجهارة المنطق . وتكميل الحروف . واقامة الوزن ، وان حاجة المنطق الى الطلاوة . والحلاوة . كحاجته الى الجلالة . والفخامة . وان ذلك من اكبر ما تستمال به القلوب . وتنثني اليه الاعناق . وتزيد به المعاني — وعلم واصل انه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن ، والقوة المتصرفة ، كنحو ما اعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابع النبوة ، ومع المحبة والاتساع في المعرفة ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يغشيهم الله به من القول والمهاداة . ولذلك قال بعض شعراء النبي صلعم = ~~لو لم تكن فيه آيات بينة~~

لو لم تكن فيه آيات بينات كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومع ما اعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة الى ان حل الله تلك العقدة ورفع تلك الحبسة واسقط تلك المحنة — ومن اجل الحاجة الى حسن البيان واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام ابو حذيفه اسقاط الراء من كلامه [1]) . وكل ما نرجوه هو ملاحظة البعد ما بين (ولما علم واصل بن عطاء انه الثغ ... وبين ... رام اسقاط الراء من كلامه) .

اما النوع الثاني فاليك مثالا عليه . لكننا سوف لا ننقله بطوله انما سننقل بعضا من صدره لان باقيه كثير . فمن اراده بتمامه فليرجع اليه في اصله . قال ابو عثمان في التربيع مخاطبا ابن عبد الوهاب (اطال الله بقاءك واتم نعمته عليك وكرامته لك . قد علمت حفظك الله انك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة وضخم الهامة وعلى حور العين وجودة القد وعلى طيب الاحدوثة والصنيعة المشكورة . وان هذه الامور هي خصائصك التي بها تكلف ومعانيك التي بها تلهج . وانما يحسد ابقاك الله المرء شقيقه في النسب وشفيعه في الصناعة ونظيره في الجوار

---

(١) ب ٣١/١

على طارف قدره او تالد حظه او على ~~كد~~ كرم في اصل تركيبه ومجارى عرقه .
وانت تزعم ان هذه المعاني خالصة لك مقصورة عليك . وانها لا تليق الا بك ولا تحسن الا فيك . وان لك الكل وللناس البعض وان لك الصافي ولهم المشوب.
هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه والبديع الذى لا نبلغه = فما هذا الغيظ الذى اضجك وما هذا الحسد الذى اكمدك وما هذا الاطراق الذى قد اعتراك وما هذا الهم الذى قد اضناك[1] .

هذا هو طول نفس الجاحظ الذى نحب ان نظهره . وهو لعمرى جميل في ناحيته . لقد عرفنا من الكُتّاب مَنْ طال نَفَسُه . فطه حسين مثلا طويل النفس لكنه الى جانب ذلك طويل ا لعبارة وكثير تكرار المعنى لذا مج الكثيرون اسلوبه . اما الجاحظ فلما طال ، نفسه قصرت جملته فكانت هذه وتلك خير معينالين على ابراز اسلوب الجاحظ . وليست هذه المرة الاولي التي يعرف ~~بها~~ الجاحظ فيها ما يكره القارئ ~~xxxxx~~ فيداريه او يحب فيجاريه . بل هي واحدة من عدة راينا بعضها فيما مر من الحديث .

٤ – ترادف الجمل = ما دامت جملته قد قَصُرت ، وما دام نَفَسُه طال ، لذا ليس من الغريب عليه ان يسوق جملتين او اكثر من هذه القصار معا – لكي تنوب عن واحدة طويلة تشبع ذهن القارئ وتؤيد المعنى في نَفْسِه دون أن تُمِلَّه . وليت كل ترادف مثل ترادف الجاحظ ، لا يُشْعَر به ، ولا يُفَكِّرْ قارؤه بنقده لانه طبيعي . خذ مثلا قوله في التربيع (والناس وان قالوا في الحسن كأنه طاقة ريحان وكأنه خوط بان وكأنه قضيب خيزران وكأنه غصن بان وكأنه رمح رديني وكأنه صفيحة يمانية وكأنه سيفٌ هندواني —— فقد قالوا كأنه المشترى وكأن وجهه دينار هرقلي وما هو الا البحر وما هو الا الغيث وكأنه الشمس وكأنها دارة القمر وكأنها الزهرة وكأنها درة وكأنها غمامة وكأنها مهاة[2]) .
واذا عرفت ان جميع الشق الاول معناه (جميل الطول) وان جميع الشق الثاني لم يزد عن (جميل الاستدارة) واذا اضفت الى هذا انك ما شعرت اثناء القراءة باى ملل ، تاكدت من ان الجاحظ كثير الترادف . ولكنه الترادف الجميل .

---

(١) مج ٨٥ (٢) مج ٩٣

٥ - تكرار الكلمات = وهذه ميزة اخرى من ميزات اسلوبه الانشائي . تغلب عليه في المواقف العاطفية وخصوصا الوصفية او التساؤلية منها . نعني تكرار كلمة او تكرار حرف يَجْعَلُه بمثابة مركز الهجوم . وقد لاحظنا ذلك كثيرا منه في عدة أماكن من كتبه . نكتفي بذكر تكرار حرف لا[1] وكان [2]. وكأن [3]. وأخيرا حرف الواو[4]. واليك نموذجا من هذا التكرار = (وإنّا لا نستطيع أن نقول في التفاريق ، كأن عنقه ابريق فضة ، وكأن قدمه لسان حية ، وكان عينه ماوية ، وكان بطنه قبطية ، وكان ساقه بردية، وكان لسانه ورقة ، وكان سيفه حد سيف ،وكان حاجبه خط بقلم ، وكان لونه الذهب، وكان عوارضه البرد ، وكان فاه خاتم وكان جبينه هلال [5]) . واظن في هذا الكفاية لتوضيح ما نحن بصدده . لقد نقل مثل هذا السيد كرد علي في "امرائه" وقرظه بقوله = (انظر اليه كيف يكرر فعل "كأن" مرات في بضعة اسطر . يا ما احيلاه في تكراراته وفي موجزاته [6]) . أما نحن فلا نرى رأى الاستاذ كرد . إذ الحقيقة - والحق يقال - ان هذا التكرار متعب وممجوج لا سيما دون تغيير لا في المعنى ولا في المبنى - نحن وان استحسنا منه تكرار الجمل لتغيُّر المبنى بالرغم من ثبوت المعنى، الا اننا لا نستطيع ان نستسيغ هذا الثبوت الجامد . وكل ما نقوله = انه لو كان قِطَعَ الكوكهكاه (استكرهناه) . ولولا أنه النادر في كلام الجاحظ لاتهمناه بضعف البضاعة . لكن الذي يهون المصيبة هو قلته بل ندرته .

٦ - الاطناب = والاطناب هو اخذ فكرة معينة ثم معالجتها باسهاب وتعمق من جميع الوجوه حتى ليخيل للقارئ ان الكاتب لم يترك فيها مخفيا الا كشفه ولا مبهما الا ازال غامضه ولا سِتْراً إلا كشفه . والجاحظ في هذا كان ذا قدرة عظيمة . وليس هذا منه بعجيب وهو دائرة المعارف وجماع علوم عصره ومن سبقه . خذه مثلا يريد ان يثبت لنا في رسالة مناقب الترك ان الترك شجعان .او خذه في التربيع يريد ان يقول لنا ان احمد بن عبد الوهاب احمق . او خذه في البخلاء يريد ان يصم الكندى بالبخل .أو خذه في اي موضوع طرقه = وحاول ان تدلني على غامض تركه على حاله او خبيئة لم ينكشها . كلّ شيء كان يقول . وكلّ ما يمكن ان يقال كان يقول .

---

(١) مج ٩٢ (٢) مج ٩٣ (٣) مج ١١٧ (٤) مج ٩٢ = ٩٧ -

(٥) مج ١٤X (٦) كرد ٤٢٢

لم يتخرج من الادب المكشوف ، بله العالي ، وحتى علاقات الزوجين كان يثيرها ويفيض فيها اذا اقتضى ذلك حوار ما بين الكلب والديك .
لكننا نقول والأسف يملأ قلوبنا إن تلك الدُرَر وردت مفرقة مشوشة مضطوبة . لو جُمع شتاتها وَوُحِّد متجانسها كل في بابه لكانت ابحاث الجاحظ في كل موضوع طرفة إحدى الاعاجيب . قرأت لاحدهم قوله لصاحبه = قُلْ لي بربك أي شيء كان يحسن ابو عثمان ! فقال له وما بالك لا تقل لي انت : اى شيء كان لا يحسن .

إن الامثلة القصيرة لا تفي بالغرض لان الجاحظ طويل النفس ، والامثلة الطويلة من المتعذر نقلها لتقيدنا بقيود عدة . لكننا مع ذلك نورد المثال التالي على إطنابه، لعل فيه بعض شفاء الغليل = قال الجاحظ في التربيع (جعلت فداك . قد شاهدتَ الانس منذ خلقوا ورأيتَ الجن قبل ان يحجبوا ووجدت الاشياء بنفسك خالصة وممزوجة واغفالا وموسومة وسالمة ومدخولة . فما يخفى عليك الحجة من الشبهة ولا السقم من الصحة ولا الممكن من الممتنع ولا المستخلق من المستبهم ولا النادر من البديع ولا شبه الدليل من الدليل . وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة . حتى صارت الاقسام عندك محصورة والحدود محفوظة والطبقات معلومة والدنيا بحذافيرها مصورة ووجدت السبب كما وجدت المسبب وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج و شاهدت العلل وهي تولد والاسباب وهي تصنع فعرفت الموضوع من المخلوق والحقيقة من التمويه[1]) .
وعلى هذا (فما تقول في الرأي وما تقول في الرؤيا) ثم ياخذ في اسئلة يهيلها انهيال المطر ويثولها انثيال الماء من الشلال . اقرأ هذا وقل بربك ماذا ترك الجاحظ مما يمكن ان يقال لابن عبدالوهاب ليفهم انه عالم بكل شيء انه لم يترك . أو على الاقل هو مُهَيْمِنٌ على حواس القارىء فيخيَّل اليه لاول وهلة انه استقصى كل شيء ولم يترك شيئا . وهذا وهذا سر من اسرار عظمته .

---

(١) مج ١٠٥

٧ – التوازن = لقد قال القلقشندي كما سيجيء ، إن التوازن هو عاطل السجع . ولعمرى لقد قرب من الحقيقة بقدر ما ابتعد عنها . اما اقترابه فمن حيث ان التوازن يتطلب الوزن ولا يستغني عن الموسيقى مثل السجع . واما ابتعاده فمن حيث قوله ان التوازن سجع عاطل . اذ الحقيقة ان التوازن سجع في الاصل لكنه خطا خطوة اعلا في سبيل الحرية ورمى به القيود . ولست ادري متى يقال عمن تقدم قد تأخر أو عمن تحرر قد تدهور !

على كل لا يهمنا هذا بقدر ما يهمنا اظهار سمات التوازن في توازن الجاحظ . لا سيما وانه (اى التوازن) ابرز عنصر في الاسلوب لدرجة انه اخذ اسمه منه .

هذا التوازن يظهر في النقاط التالية . اولا توازن جمل بكامل كلماتها ، ثانيا موازنة الكلمات الاخيرة منها فقط . واخيرا موازنة الجمل من حيث هي جمل لا من حيث هي كلمات ، وجعل جميعها قصيرة والا فتطويل الثانية مراعاة للنغم الموسيقى . ولشرح هذا نورد الأمثلة التالية =

أ . موازنة جميع الكلمات = قال الجاحظ في الجد والهزل (والله لو دبرها الاسكندر على دارا بن دارا . واستخرجها المهلب على سفيان بن الابرد . وفتحت على هرشمة في مكيدة خازم ابن خزيمة . ولو دبرها لقيم بن لقمان على لقمان بن عاد . ولو ادارها قيس بن زهير على حصن بن حذيفة . ولو توجهت لكهان بني اسد على دهاة قرمين . لقد كان ذلك من تدبيرهم نادرا بديعا ولكان في مكايدهم شاذا رفيعا . وانها لترتفع عن قصير في كيد الزباء وعن جزيمة في مشاورة قصير . وما اخالها الا وتدقُّ على ابن العاص . وتغمض على ابن عمر . ويكل عنها اخو ثقيف ويستسلم لها ابن سمية)[١] بهذا نكتفي من هذا المقال وكل ما نرجوه هو ملاحظة حرص الرجل على توازن كلمات جملة ومقالات في ذلك . حتى يخيل الى المرء انه كان يُعِدُّها اولا ثم يَزِنُ جَرْسَها ثانيا ثم يحاول ان يضع مجموع

هـذا انام مجـموع ذاك ، ليتم له ما اراد مما يصعـب على غيره . "يكل له اخو ثقيـف ويستسلم له ابن سميه[1]" .

ب – موازنة الكلمات الاخـيرة فقط = وهذا نرًا الزم نفسه به من قبل . فهو لا يوازن جميع الكلمات انما يوازن اواخر الجمل ليتم له الجَرْس الذى يريده من الناحية الفنية . وهذا سجـع الى حـد محدود . لكنه لا يتطلب القافية بقدر ما يتطلب الجرس . او بكلمة اخرى لا يتطلب الشكل بقدر ما يتطلب الوزن . ومن امثلته قوله في مطلع العداوة والحسد (اصحب الله مدتك السعادة والسلامة . وقرنها بالعافية والسرور ووصلها بالنعمه التي لا تزول ، والكرامه التي لا تحول[2]) وكل ما نرجوه ان تقابل (السرور بلا تزول) وان تلاحـظ التوازن الموسيقي دون التطابق اللفظـي وهو ما اراد الجاحـظ . اما لو طابق اللفظ اللفظ ، لكان لدينا سجـع لا توازن .

ج – موازنة الجمل عامة – ونعني بذلك جعل طولها متساويا لكي يتم الجرس والا فلتكن الثانية اطول من الاولى لذات العلة . وذلك لتُمَكِّنَ النفس من الاستمرار فلا ينقطع دفعة فيتعب القارئ بتقطعه . واليك هذا المثل على تمام التوازن وطول الجمله الثانية من الجد والهزل (ابقاك الله – انت شاعر وانا راوية وانت طويل وانا قصـير . وانت اصلع وانا انزع . وانت صاحب براذين وانا صاحب حمير وانت ركين وانا عجول وانت تدبر لنفسك وتقيم اود غيرك وتتسع لجميع الناس وتبلغ بتدبيرك اقصى الرعية ، وانا اعجز عن تدبير نفسي وعن تدبير امتي وعبدى[3]) . انظر الى هذا الكلام ثم قل بربك الا يخـيل لك ان ابا عثمان كان نحاتا وبناء في ذات الوقت . . .

هذا ما استطعنا ان نورده وصفا لاسلوب الجاحظ او لتوازنه بعد ان عرفناه على وجـه التخـصيص وهو كما ترى اسلوب قريب من السجع جدا . بل تطور منه وزيادة عليه . نشأ السجع وعرفه القدماء وخضعوا لقيوده ما داموا في ظلام الجهل ، حتى اذا ما جاء الجاحظ واطلع واطلع ، جاء بهذا الاسلوب الخاص الذى لا هو سجـع مقيد ولا هو ارسال . مفكك بل وسط بينهما وخير الامور الوسط.

<u>ثانيا مرافقات التوازن</u> – هذه ليسـت من التوازن نفسه كالتي مرت ، بمعنى انها مكوناته التي بدون اجتماعها لا يكون هناك توازن ، او بكلمات اخرى يعتمد عليها التوازن في وجوده ، بل هي نواتج عنه و مرافقات له ، وجودها يعتمد على وجوده . فان وجد وجدت وان لم يوجد لم توجد . الا اننا

---

(١) كراوس ٨١ (٢) كراوس ٨٨ (٣) كراوس ٨٨

على العموم نقول ان الصلة بينها وبين مكوناته شديدة لدرجة لا يمكننا معها أن نفصلها والا كنا كمن اخفى جانبا من الصورة . اشهر هذه المرافقات ما يلي =

١ - قلة المحسنات على انواعها = قلنا ان اسلوب التوازن ، اسلوبٌ قُصِدَ به التحرر من قيود السجع الصناعي والقرب جهد المستطاع من الواقع الطبيعي لا عطاء النفس حرية التعبير على سجيتها لكن دون إسفاف . ولهذا قلّت هذه المحسنات سواء منها اللفظية او المعنوية حتى لنستطيع ان نقول انها انعدمت بالمرة . فانت اينما قلبت النظر وحيثما نظرت في أدب ابي عثمان ، لن تجد منها شيئا . فلا خيال سواء من المعقد او البسيط ، ولا مجاز ولا كناية ولا تورية ولا ولا ... وكيف يكون عنده ذلك وهو الذى يطالب الكاتب بأن لا ينقح حتى لا يكتب الالب اللب . بل كيف يكون وهو الذى ما ترك فرصة يمكن اغتنامها الا واستعملها لرفع عقيرته بالويل والثبور على التكلف والتصنع والبعد عن الواقع البسيط .

٢ - مطابقة القول للمقول - وهذه مرافقة ثانية بل وميزة دائما يستنبطها القارئ لأدب ابي عثمان . وهي انه في كل ما كتب كان رجلا عمليا . يتبسط حيث اقتضى التبسيط . ويوجز حيث اقتضى الايجاز . يطيل عبارته ويستعمل المنطق في مواقف الحجاج . في حين يقصرها ويعتمد على العاطفة في المواقف العاطفية . خذ عبارته في الحيوان طويلة هادئةً سلسلة لينةَ لا ثورة فيها ولا عنفوان . ثم خذها في التربيع والتدوير او في الجد والهزل قصيرةً سريعة لا ذعة . خذ ها في المطالع مثلا سجعاً كاجمل ما يكون السجع لانه هناك يحلو . ثم خذها في البحث العلمي عن الذباب مثلا إرسالاً في اجمل صورة . خذها عندما يصف الأعراب مثلا بدويةً خشنةً جافية ثم خذها عندما يكاتب اميرا يمدحه مدنيةً رشيقةً حلوة . حتى لم يستطع زكى مبارك الا ان يقول = (لقد استطاع ابو عثمان ان يتخذ من النثر في كثير من الاحيان لغة للغزل) .

٣ - الوحي والاشارة - هذه المرافقة الثالثة لاسلوب الجاحظ . او هي ناتج احدى مقوماته نعني الايجاز . لقد كان يوجز لكن ليس ايجاز العيي . بل ايجاز القدير المتمكن من اللغة الذى سخرها لما يريد فهو يعرف متى وكيف يستعملها . يعطي طرف الحبل ويترك لخيال قارئه او لعقل سامعه ان يكمل المقصود من عنده ويصل الى الهدف المطلوب بذاته . فيفرح ويَعُدّ نفسه مساهماً في البلوغ . لذا يُحِب ادبَ الجاحظ . وهذه لعمرى ميزةٌ قَلَّ من فطن اليها سوى ابي عثمان .

والذى يهمنا هنا ان نقوله هو أن هذا لم يكن منه عفوا بل كان عن عمد وقصد وتصويب

فقد اطال في كثير من المواطن في مدح الايجاز وقد مدح في كثير غير غيرها ضرورة اخراج الكلام مخرج الوحي والاشارة .

الا اننا نحب ان نقول ان الجاحظ بهذا الخصوص كان على طرفي نقيض . فهو عندما كان يطنب ويتبسط كان لا يدع للقارئ شيئا يفكر فيه بل يعطيه كل شيء كما مر معنا . وهو عندما كان يوجز ويقصد الى الايحاء كان يفعل عكس ذلك بالضبط . اما رائده في اين يطنب واين يوجز فقد كان دائما - "مقتضى الحال" وقد احسن لعمرى تَعَرُّفَ تلك الحال حيث وجدت . وهذه هي العبقرية في الكتابة .

٤ - **بروز شخصيته** - لعل أهم عنصر أُدخله الجاحظ في الكتابة مما لم يُعرفْ قَبْلَهُ هو عنصر الشخصية . فانت اينما طوح بك نظرك في ادبه تلمس شخصية بارزة قوية تكاد تعلن عن نفسها بمل‌ء فيها .

وقد اتخذ الى هذا سبيلين - الاول سبيل مباشر كقوله "ونحن نرى ماأوانا اقول" او امثال ذلك . والثاني غير مباشر يستنتج من وراء كلماته ومن ثنايا سطوره ومن نوع معانيه . ولست اراني بحاجة للتدليل على ما اقول لان هذا مشهور عنه ومعروف لدى كل مُطّلِع على ادبه . حتى ان ادبه أُضحى صورة كاملة عنه . ولقد كتبنا ما كتبنا عن حياته . وفهمنا ما فهمنا من امو ره وعرفنا ما عرفنا من نزعاته . لا مما كُتِبَ عنه - لان ما كتب عنه قليل - انما من كتبه . ومن كتبه على وجه الخصوص .

ثالثا **مواطن التوازن** - بالرغم من ان اكثر ما كتب كان بالتوازن الا ان هناك مواطن كان يبرز فيها هذا الاسلوب اكثر من غيرها لضرورة الحاجة اليه . واليك اهمها =

١ - **في رسائله** - قد يكون هذا غريبا . لانه ان لم يوجد في رسائله فاين يوجد؟ . لكن لا غرابة اذا قلنا انه يكثر في رسائله على العموم ويقل بل ويندر في كتبه الرئيسية على الخصوص . وشتان بين رسائله وكتبه . والسبب المعقول الذى نراه لهذه الظاهرة هو ان اكثر الرسائل كتبت للتعبير عن فكرة صغيرة خاصة محدودة في اكثر الاحيان تَمُتُّ الى قلبه بصلة . فهو في كل رسائله يكتب عن مسائل حيوية يشترك فيها اجتماعيا وتهمه في قرارة نفسه شخصيا . في حين انه في كتبه الرئيسية كان يكتب عن موضوعات قلما كان له بها دخل ذاتي . خذه في الاولى مثلا يكتب الى احدهم يستنجز وعدا ، او خذه مثلا يدافع عن العرب ضد الشعوبية .

او خذه مثلا يرد اتهامات النصارى او خذه مثلا يعتذر لابن الزيات او ~~خدمته~~ يمدح ابن ابي داود وهما وليا نعمته . انتظر منه ان يكون بذات البرود الذى يكتب فيه عن الذبان او عن الخنافس او عن تعريف البلاغة . كلا لا اظنك تنتظر ولا كان هذا الواقع . ولهذا قلنا ان توازنه كثر في رسائله دون كتبه لان في الاولى نصيباً كبيراً من الذاتية العاطفية .

٢ — في المقدمات او ما قد يسمى المطالع — سواء في رسائله او في كتبه الكبيرة . وذلك لانها غالبما تكون نفثات روحية او تعبيرات ذاتية يسوقها بين يدي الكتاب او الرسالة . هذا من جهة واما من اخرى فلأن الكاتب غالبا يهتم بمطالعه فيضفي عليها شيء من الصناعة . ولهذا نرى ان توازنه في هذه الماكن كثيرا ما انقلب الى سجع مثل قوله في مطلع البيان مثلا (اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل . ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن . ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر . وقديما تعوذوا بالله من شرهما وتضرعوا الى الله في السلامة منهما) .

٣ — في المواقف العاطفية أينما كانت — وهذا لا يحتاج لطويل شرح فرسالة الجد ، والهزل ورسالة التربيع والتدوير ، ودفاعه عن معتقداته الدينية ، واثباتاته لحجج النبوة وغيرها كثير شواهدناطقة على كل هذا .

٤ — في المواقف الوصفية — التي قد تخلو من العاطفية . وما اظن هذا كان الا لهدوء بال الرجل انذاك ، ولجوئه الى حسن التصوير . واحسن مثال تأخذه وصفه للشيخ القاص في مسجد البصرة الذي ضايقه الذبان وما كانت النتيجة . ونأسف لعدم ايراد الوصف لطوله فليراجعه من اراد التوسع في الحيوان .

هذه اهم مقومات الاسلوب واشهر مرانقاته . لكن ترى هل هذا الاسلوب ~~xxxx~~ بحد ذاته ، من مبتكرات الجاحظ ام انه سُبق اليه . وان كان الثاني فما فضله فيه . ثم بعد ان مات الرجل . اى اثر ترك اسلوبُه . هذا ما سنحاول القاء نور عليه في الصفحات التالية .

رابعا رواد التوازن — انه لمن الجميل ان نقرر في هذه العجالة ان الجاحظ لم يكن مبتدع التوازن وانما كان متبعا فيه اثار كثيرين سبقوه . من امثال — احمد بن اسمعيل في اداب الكاتب[1] وعبد الله بن طاهر في ادب الكتاب للصولي[2] وسهل بن هرون في صبح الاعشى[3]

(١) ص ١٥٥ (٢) ص ٦٩ (٣) ٦٨/١

والحسن بن سهل في الامالي[1] . وابن المقفع في زهر الحصري[2] . وابراهيم الصولي[3] في صبح الاعشى[4] . ثم ابن المقفع في ادبه الكبير واخيرا عبد الحميد في رسالة الكتاب .

نقول هؤلاء الجماعة في هذه المقطوعات التي يمكن الرجوع اليها للاشارة فقط . سبقوا الجاحظ الى التوازن . وللتدليل على ما نقوله واثباته بالحجة نورد المثل التالي (قال سهل بن هرون لو ان رجلين خطبا او تحدثا او احتجا او وصفا وكان احدهما جميلا بهيا وَلَبّاسا نبيلا وذا حسب شريفا وكان الاخر قليلا قميئا وباز الهيئة دميما وخامل الذكر مجهولا . ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة وفي درب واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع وعامتهم بعض للقليل الدميم على النبيل الجسيم وللباز الهيئة على ذى الهيئة) .

الا انه يحسن بنا ان ننوه الى ان هؤلاء استعملوا التوازن في كثير من كتاباتهم ، لكنهم لم يتخذوه اسلوبا لا يحيدون عنه ، او اسلوبهم الغالب على كتاباتهم ، انما كانوا يطرقون في مناسبات .

خامسا ـ فضل الجاحظ في التوازن = هو اتخاذه اياه اسلوبه الخاص الذى لا يحيد عنه ، وخصوصا في رسائله . اذ كثيرا ما تجد رسائل برمتها قد كُتبت بالتوازن ، والأمثلة على هذا قد سبقت . اما كتبه الكبيرة فقد خلت منه او بالاحرى قل فيها ، لانه كان جماعا اكثر منه منشئا . وفرق بين اسلوب الجمع العلمي وبين اسلوب الانشاء الادبي .

هذا هو فضل الجاحظ ـ اى انه عرفه ، واحبه ، وعَلِق به واتخذه اسلوبه العام ، وهَيْكَلَهُ وجَسَّمه وبَلْوَره وجعله اسلوبا قائما بذاته . له مقوماته وله مرافقاته وله ميزاته واصبح بالامكان مقارنته بغيره من الاساليب .

---

(١) ٢٥٣/٨ (٢) ٩١/١ (٣) ٧٩ (٤) ١٠٨/٦

سادسا - أتْباعُ التوازن = لقد راينا انه كان هناك رواد للتوازن ولا نقول كُتابا سبقوا الجاحظ اليه والقوا في طريقه عنه شيئا من النور. ثم جاء الجاحظ فاستمسك به وصقله حتى جعل منه اسلوبا قائما بذاته. ومات الجاحظ مخلفا اسلوبه. او طريقته في الكتابه التي عرفت بالتوازن.

أُغرم كثيرون بهذا الاسلوب وحاولوا تقليده نذكر منهم = محمد بن يحيي الصولي ٣٣٥ في ادب الكاتب[1] وعلى الجرجاني ٣٩٢ في الوساطه[2] وابو هلال العسكرى ٣٩٥ في الصناعتين[3] ثم الثعالبي ٤٢٥ في اليتيمه[4] ثم ابن العميد في القرن الخامس في اكثر رسائله خصوصا اليتيمه[5]. هذا ولن ننسى ابا حيان التوحيدى في القرن السادس خصوصا في مقابساته[6].

وللتمثيل فقط نورد القسم التالي من المقابسة الرابعة =(سمعت ابن مقداد يقول لا بد من وضع الناموس الالهي الذى يتوجه به افاضة الخير، وترتيب السياسة، وما يورث سكون البال، وحسم مواد الشر، ويوطد دعائم السن، ويبعث على تشريف النفوس، وتزيين الاخلاق، ويقرب الطريق الى السعادة المطلوبة، ويواصل اسباب الحكمة، ويشوق الارواح الى طلب الحق وايثار العقد ...[7]) وكلها على هذا النسق جمل قصيرة ونفس طويل، وسهوله في اللفظ واطناب في المعنى ...

سابعا نقد التوازن - كغيره من الاساليب، تَعَرَّضَ التوازن لكثير من عبارات المدح والثناء ممن راق في اعينهم وكذلك لكثير من عبارات الذم والبذاء ممن لم يروا فيه ما ارادوا.

قال ابن الاثير في مَثَلِه (ان العدل في الموازنة بين الفواصل هو اخص ميزان هذا الاسلوب وعلى هذا فهو اخو السجع لكن ليس السجع بذاته[8].) وقال المسعودى في مروجه[9] (لقد نظم الجاحظ كتبه احسن نظم ووصفها احسن وصف وكساها من كلامه اجزل لفظ) مشيراً الى جمال اسلوبه[9].

---

(١) ص ٢٥ (٢) ٢٦/٢٨ و ١٣٩ / ١٤٠ و٣٣٩/ ٣٤٠ (٣) ٤١/ ٢٨١/ ٢٨٩/ ٣٠٢

(٤) ١/٢٢٢و ٢/ ٢١٦ و ٣/ ١٤٦ و ٤/ ١٦٧ (٥) ٣/ ٢ (٦) ١٠ و ١٧ و ١٠٥و ١٤٢

(٧) ص ١٤٢ (٨) ١٦٩ (٩) ٨/ ٣٤ .

لكن أنى للرماني في صبح الاعشى ان يقف موقف الايجاب من التوازن . فهو عندما حاول تسميته لم يزد على ان قال (هو السجع العاطل[1]) وكفى بهذا دليلا على حقيقة نظرته اليه . ومثل الرماني كان الباقلاني . فهو عندما لم يستطع ان يجد فيه المغامز التي يمكنه بها صرحه ترك الرماني يتهمه في التسمية وراح هو يقول في الاعجاز . (واما كلامه في اثناء ذلك نظور قليلة والفاظ يسيره . فاذا احوج الى تطويل الكلام – خاليا من شيء يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره . كان كلاما كلام غيره . فان اردت ان تحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القران وفي الرد على النصارى وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى . هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع او كلام مليح . على ان متأخري الكتاب قد ناوءوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه . ومنهم من ابر عليه حين باراه[2]) . الا انه من الجميل ان نضيف ان الاستاذ المقدسي في "تطور الاساليب" حين نقل هذا عن الباقلاني ما كاد يضع النقطة الاخيرة حتى اردف معلقا = (وفي هذا الكلام مع ميل صاحبه الى تحقير شأن الاسلوب الجاحظي – تعظيما لنظم القران – نرى ما اشتهر به هذا الاسلوب . مما جعل له مقاما خاصا بين الكَتَبة . وهذا الباقلاني نفسه في مقام الآخر من كتابه يذكر من برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتاخرين حتى خلص لنفسه طريقة وانشأ لنفسه منهاجا (فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل) . فهو يعترف ان الجاحظ امام طريقة ليست هي طريقة المتقدمين ولا طريقة السجاعين[3]) .

هذه لمحة في موقف انصاره ، ولمعة في موقف اعدائه ، ونبذه من رأى اديب متأخر في اسلوب الجاحظ . اما نحن فنرى ان التوازن بحد ذاته اسلوب موسيقي جميل لا يحتاج للجهد الذى يبذله كاتب السجع ولا ياتي بالسهولة التي يكتب بها كاتب الترسل . انما هو وسط بين المنزلتين . وعلى هذا فهو خفيف على الكاتب جميل لدى القارئ . اما توازن الجاحظ خاصة فقد كان الى الارسال الطبيعي اقرب منه الى التسجيع الصناعي . وهذا ما يقربه خطوة الى القلوب .

---

(١) صبح الاعشى ٢/ ٢٧٣ (٢) اعجاز الباقلاني ١١٥ (٣) تطور المقدسي ١٨٤

وفضل الجاحظ فيه واضح من حيث انه الكاتب الذى سهر عليه حتى جمع اطرافه وصهرها وقولبها واخرجها للناس اسلوبا قائما بذاته

ثانيا ـ الجاحظ والاساليب الاخرى

قد يخيل للقارئ ان الجاحظ استأنس بالتوازن فجعله ديدنه وتشيع له واغمض عينيه عن كل ما عداه . لكن الحقيقة غير هذا . فالجاحظ كان اوسع من ان يضيق صدره بالاساليب الأخرى . وقلمه كان اسلس من ان يتقيد بواحد . ولهذا كان له فيها شطحات وعن طرقها سرحات وله منها مواقف نحسب ان لا نمر عليها بسكوت .

اولا الجاحظ والسجع ـ عرف الجاهليون السجع . واشتهر به كهانهم . حتى ان اكثر ما وصلنا من نثرهم كان بهذا الاسلوب . لكن بمجيء القرآن ودعوته للحرية من جميع نواحيها ، مال الناس للتعبير عن اراهم بطلاقة واخذوا يكسرون القيود الصناعية واحدا بعد الاخر . حتى انهارت دولة السجع . الواقع هذا الانهيار جاء بالتدريج وعلى مر الايام . وفيما يلي نذكر نُبذاً من تلك الثورة على السجع محاولين ان نلقي نورا على تدرجها حتى انتهت بالتوازن الذى هو كما قلنا درجة واحدة اعلى من السجع في سلم حرية التعبير اللفظي

قال الرسول لمن اجابه سجعاً (أسجعا كسجع الكهان[1] ؟) . وهذا إن عنى شيئا فليس الا موقفا سلبيا من السجع . ثم جُمع الحديث فكان السجعُ فيه النادر . ثم جُمعت خطبُ الصحابة واقوالُهم فكان السجع فيها بمقام المِلح من الطعام . ثم دُوِّن الكثير من بعد ذلك فكان نصيب السجع تافها . ومما يشير الى ان هذا الاتجاه كان مقصودا ـ ما نقل الجاحظ عن معاوية في رسالة " مدح التجارة " حيث قال (حتى ان معاوية مع تخلفه عن مراتب اهل السابقة ، املى كتابا الى رجل فقال فيه = لهو اهون علي من ذرة او من كلب من كلاب الحرة . ثم قال = أمْحُ "من كلاب الحرة" واكتب "من الكلاب" . كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما اشبه السجع[2]) .

أما سبب هذه النُفْرة من السجع فترجع في اساسها الى سببين كما استطعنا

---

(١) ب ١/ ٧٠ (٢) مج ١٥٥

ان نميز – اولاهما فني . وذلك لكُرهِ الكتابِ التكلفَ . ومما يدل عليه قول الجاحظ (ونحن لن نسجع في كتابنا هذا [١]) . وثانيهما – ديني . وذلك لان السجع كان لغة الكهانة . ومما ان المسلمين حاولوا ان يحاربوا كل ما يمت للماضي "الأسوَد" بصلة ، لذا هاجموا حتى السجع . ويشير الى هذا قول الجاحظ ايضا (ومما كرّه العرب بالسجع اتخاذ الكهان اياه لغة [٢]) . بقيت الحال على هذا المنوال اى بُعْداً عن السجع حتى جاء القرنان الثاني والثالث والنصف الاول من الرابع التي دالت في اثناءها دولة السجع وان لم يستغن القوم عنه بالمرة . قال الخفاجي في سر الفصاحة ما ملخصه – ان السجع في القرنين الثاني والثالث قل استعماله وان يكن ندر من استغنى عنه بالمرة [٣] .

هذا هو الموقف العام من السجع . لكن ترى ماذا كان موقف الجاحظ . – قال أبو عثمان [إن السجع جميل وقد احبّه العرب لسهولة لفظه . الا انه لسوء الحظ كان الاسلوب الذى انتهجه الكهان . والكهان كما لا يخفى اصبحوا مكروهين . وتبعا لذلك كره الناس قولهم [٤] . الا انني والحق يقال ارى ان السجع لا بأس به اذا لم يخرج عن الحد المعقول بحيث يصير الى الصنعة والتكلف . اذا كل تصنع وكل تكلف عندى ممقوت مهما كان نوعه [٥] .]

لهذا نجد الجاحظ في كل ما خلّفه من تراث لم يقف موقفا سلبيا صرفا من السجع ولا موقفا ايجابيا كذلك . انما كان بين بين . ففي الكتاب الذى تراه فيه يهاجم السجع وينفر منه – تراه اولا ينقل مسجوعات كثيرة ويخصص للسجع ابوابا كاملة [٦] . ثم تراه هو نفسه يقول اقوالا مسجوعة واليك بعضاً من سجعه اولا لاثبات صحة ما نقول – وثانيا لايراد قطعة نتعرف بها على اسلوبه المسجوع كما تعرفنا على اسلوبه الموزون . قال يصف القران (حجة على الملحد وتبيان للموحد . قائم بالحلال المنزل والحرام المفصل . وفاصل بين الحق والباطل وحاكم اليه يرجع العالم والجاهل وامام تقام به الفروض والنوافل . وسراج لا يخبو ضوؤه ضياؤه ومصباح لا يخزن ذكاؤه . وشهاب لا يطفأ نوره وبحر لا يدرك غوره ومعدن لا تنقطع كنوزه . ومعقل يمنع من

---

(١) ح ٣/٧ (٢) ب ١/ ١٩٥ (٣) ٩٤ – ٩٧ (٤) ب ١/ ١٩٥
(٥) ب ٢/ ٢١ (٦) ب ١/ ١٩٢ – ١٩٨

الهلكة والبوار ومرشد يدل على طريق الجنة والنار . وزاجر يصد عن المحارم ومجير يوم التحاكم[1]) .

ومن هذه القطعة نرى ان الجاحظ كان بامكانه ان يكتب سجعا وسجعا من النوع الرفيع . لكنه لم يكتب كثيرا وانما كان ذلك منه بشكل فلتات لا ضابط لها وردت متناثرة هنا وهناك هذه اطول واحدة منها .اما البواقي ففقرات قصيرة في جملتين او ثلاث على الاقل . مثل قوله في الحيوان (والحمام ـ ابرد ما يكون الانسان وانتره ، واقطع ما يكون واقصره[2]) ثم يقول تاركا السجع (هذا وفي الانسان ضروب من القوى احدها فضل الشهوة الخ)

<u>ثانيا الجاحظ والترسل</u> ـ لم يهاجم الجاحظ الترسل كما هاجم السجع . ولا مدحه كما مدحه . انما سكت عن كل لا او نعم بخصوصه . ولن يظفر اى منقب عن مثل ذلك في كل ما بقي لنا من ادبه .

لكنه يستنتج من مجمل اسلوبه الانشائي الذى بين ايدينا ان الرجل كان يميل اليه بل كان يعده اقرب اسلوب لروحه الحرة المطلقة القيود بعد التوازن . لهذا نراه في كثير من المواقف يستعمله ويستعمله بكثرة حتى لقد يأتي على ثلاثة ارباع رسالة به .

وا ظهر ما يكون هذا الاستعمال للسجع ، في المواقف التي تحتاج لهدوء بال وحجاج ومناقشه . او وصف علمي . اى في المواطن التي يصعب فيها استعمال السجع والتوازن . واليك بعد هذا مثلا على ترسله . قال في الرد على النصارى (فان سألونا عن انفسهم فقالوا ـ ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن احد بتة . اجبناهم بعد اسقاط نكيرهم وتشنيعهم وتزوير شهودهم . جوابنا انهم انما قبلوا دينهم عن اربعة انفس = اثنان منهم من الحواريين بزعمهم يوحنا ومتى . واثنان من المستجيبة وهما مارقوش ولوقش . وهؤلاء الاربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ولا تعمد الكذب ولا التواطؤ على الامور والاصطلاح على اقتسام الرئاسة وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له . فان قالوا فانهم كانوا افضل من ان يتعمدوا كذبا واحفظ من ان ينسوا شيئا واعلم من ان يغلطوا في دين الله تعالى او يضيعوا

---

(١) هامش الكامل الثاني ص ١٢ (٢) ح ٣ / ٤٩ .

يضيعوا عهدا . قلنا ان اختلاف رواياتهم في الاناجيل وتضاد معاني كتبهم في نفس المسيح مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم وغفلتكم عنهم . وما ينكر من مثل لوقش ان يقول باطلا وليس من الحواريين . وقد كان يهوديا قبل ذلك بايام يسيرة . ومن هو عندكم من الحواريين خير من لوقش عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة والطباع الشريفة وبراءة الساحة[1]) .

هذا نمط من ترسله . الا ان الناظر فيه يجد ان الجاحظ في الحقيقة لم يكن مترسلا بكل معنى الكلمة بل كان يخلط الترسل بالتوازن خصوصا في هذه المواقف . وعذره في هذا واضح . فله من موقف الحجاج خير دافع على الترسل . وله من موقف العاطفة خير دافع على الموازنة . وليس له في موقف يجمع بينهما الا ان يجمع بينهما .

والان اليك موقفا قصيرا من المواقف التي كان فيها مترسلا بكل معنى الكلمة . قال في الحيوان يتكلم عن الدجاج = (حدثني اعرابي كان ينزل البصرة . قال قدم اعرابي من البادية فانزلته . وكان عندي دجاج كثير ولي امراة وابنان وابنتان منها . فقلت لامراتي بادري واشوى لنا دجاجة وقدميها الينا نتغداها . فلما حضر الغداء جلسنا جميعا انا وامراتي وابناي وابنتاى والاعرابي . قال فدفعنا اليه الدجاجة فقلنا له اقسمها بيننا . نريد ان نضحك منه . فقال لا احسن القسمة ، فان رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم . قلنا فانا نرضى . فاخذ راس الدجاجة فقطعها وناولنيه وقال الراس للراس . وقطع الجناحين وقال الجناحان للابنين . ثم قطع الساقين فقال الساقان للابنتين . ثم قطع الزمكى وقال العجز للعجوز . وقال الزور للزائر . قال فاخذ الدجاجة باسرها وسخر بنا[2] .)
هذا مثل من ترسله اوردناه على قصره ليكون شاهدا على ما ذهبنا اليه .

<u>ثالثا الجاحظ والرمزية</u> = قد يبدو العنوان غريبا . والا فهل كان هناك رمزية وهل عرفها الجاحظ ثم ماذا قال عنها اذا كان هناك شيء منها .

الحق يقال ان الرمزية قديمة في الادب العربي . وقد عرفها حتى

---

(١) نصارى ص ٢٤
(٢) ح ٢/ ١٣٠

الجاهليون و استعملوها في شعرهم . لكن لا على انها " رمزية " ولا على انها مذهب في الاسلوب، وانما على انها نوع من الكلام الموجز المخطوم . وكم كان الجاهليون مغرمين بالقول المخطوم والكلام الموجز .

نقول هكذا عرفها الجاهليون . ثم جاء الاسلاميون وتلاهم العباسيون فتوسعت دائرة الادب اذ احتك القوم بالاجانب ، اتسعت افكارهم تبعا لذلك واخذوا ينظرون لكل ما بين ايديهم نظرة اوسع في افاقها واعمق في ابحاثها مما تعودوا . " فالكلام المخطوم " و " القول الموجز " و " خير الكلام ما قل ودل " – كل هذه تعابير مبهمة لا بد وان تعني شيئا اعمق من هذا الظاهر . وكان اول من عرف هذا الشيء العميق هو الجاحظ . اذ نوه به نظريا في البيان والتبيين واستعمله عمليا في كثير من المواطن نذكر من بينها رسالته في " الهزل والجد ".

فالرمز هو المصدر العادى من رمز يرمز . الا ان عصر الصناعة كما يظهر – ابى ان يعترف به ما لم " يتصنع " . ولهذا اضيفت اليه ياء وتاء ودخل في حوزة العصر الحديث فصار " رمزية ". هذا هو الرمز . اما الجاحظ فهو ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ زعيم ادباء العصر العباسي ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة وصاحب التصانيف الكثيرة المشهورة . واما العلاقة بينهما فعلاقة كاتب باسلوب عرفه وتكلم عنه وكتب فيه وله فيه آراء . تعد بحق من اجل الاراء .

والان ما هي رمزية الجاحظ خاصة . وبماذا تختلف عن اوتأتلف مع ما يدعوا اليه بعض المحدثين ؟ – رمزية الجاحظ رمزية مزدوجة هدفها إحكام العلاقة بين اللفظ والمعنى . يقول الجاحظ ما معناه ان السكينة تبقى سكينا وتبقى لها فضيلة السكين ما دامت تقطع . اما اذا وقفت عن ذلك فقد زالت عنها " السكينية " ويجب ان نعاملها على اساس آخر . ومثل السكين اللفظ . فقيمة اللفظ بانه واسطة او اداة للتعبير عن المعنى الذى يجول في صدر الكاتب . فان عبر فهو لفظ والا فقد زالت عنه " اللفظية " ويجب ان نعامله على اساس آخر .

وعند شرح هذه الفكرة العامة او الموقف الخاص من اللفظ يقول – على

اللفظ ان يكون على قد المعنى لا اكثر ولا اقل لانه اذا زاد كان من قبيل التخليط المكروه والتكرار الممقوت . وان نقص كان من قبيل العي الذى قد يؤدى الى الالتباس في ايصال المعنى . الا انه يستحسن من الكاتب القدير ان يقلل من الفاظه جهد استطاعته ويكثر من معانيه بمثل تلك الاستطاعة . بمعنى عليه ان يحمل اللفظ معاني اكثر مما يحمله اياها بسطاء الكتاب بشرط مراعاة الوضوح . وفي هذا (اى في تقليل اللفظ وتكثير المعنى مع مراعاة الوضوح) يتمايز كاتب عن كاتب وتعرف قدرته على امتلاك ناصية اللغة . وليس التمثيل على صحة هذا بمعوز . فانت اذا اعطيت فكرة بسيطة لطالب ابتدائي ولآخر جامعي وطلبت منهما ان يصوغاها في اقل عدد ممكن من الكلمات جاءت كلمات الابتدائي ثلاثة اضعاف كلمات الجامعي . وهذا ان دل على شيء فانما على ان الابتدائي لم يعرف بديهة اى الكلمات ادل، فراح يخبط ويخلط ظانا انه من "المتفلسفين " في الموضوع .

ومن هذا نرى ان رمزية الجاحظ تقوم على ثلاثة اسس = الاول اعتبار اللفظ واسطة لاخراج المعنى وقيمته في ذلك . الثاني التركيز على قاعدة "ما قلّ ودلّ" اى استعمال اقل عدد ممكن من الكلمات لاعطاء اكبر عدد ممكن من المعاني . الثالث الاهتمام بالوضوح وجعله مقياسا لكفاءة الكاتب ومقدرته على الكتابة . او بكلمات اخرى = رمزية الجاحظ تتلخص في اعطاء القارئ طرف الحبل وتركه يصل الغاية المنشودة بنفسه بشرط ان يكفل الكاتبُ له ذلك بِحُسْنِ التوجيه عند اعطاء طرف الحبل . اذ عندئذ يشعر القارئ انه ساهم في الوصول فيفرح ، ويُحِبُّ الكاتبَ لانه ساعده على ذلك . وهكذا يستفيد القارئ وتبقى العلاقة حسنة بينه وبين الكاتب . وهذه لعمرى غاية الكتابة .

والان ما الفرق بين الرمز القديم والرمزية الحديثة ؟ بغض النظر عن التذكير والتانيث ، وبغض النظر ايضا عما يعنيه هذا التحوير - نقول ان القديم يعتبر اللفظ واسطة لغاية ، في حين يهتم به المحدثون اهتماما يرفعه الى مقام الغاية ، حتى ان بعضهم وصف الرمزية الحديثة بانها " اسلوب الالوان الصناعية " . هذا اول فرق . اما الثاني فهو انه في حين يهتم القديم بالايجاز وينوه بقيمته كثيرا ، لا يعيره المحدثون مثل هذا بل يقولون " قل وقل حتى تشفي غليلك". وهذا لعمرى ان دل على شيء فانما على ما تشير اليه قصة الطالبين الجامعي والابتدائي التي مر ذكرها . اما الفرق الثالث فهو الوضوح . ففي حين يهتم القديم بالوضوح ويجعله

الفضيلة التي تُكسب اللفظة صفة اللفظية ، ينكره المحدثون ويقولون لا = فالمسالة ليست مسألة حسابية (٥ × ٦ = ٣٠) انما هي مسالة شعور . والشعور غالبا غير واضح . ونحن لا نريد ان " نتصنع " = ولو درى القوم ان ما يدعون اليه "غمزية" لا "رمزية" ، لكفّوا عما هم بصدده ، ولعادوا الى ابي عثمان يستفتونه ~~بحقيق~~ في حقيقة الامر .

وأخيراً اليك مثلين = الاول من الجاحظ القديم يرمز الى شجار نشب بينه وبين ابن الزيات واتخذ سبيل الرمز اليه المُصْحَف وائتلاف ورقه . والثاني من ~~سعيد عقل~~ بشر فارس المُحْدَث يرمز الى شيء لسوء الحظ لما اعرفه . فلعلك تكون ياقارئي اسعد مني حظا فتكتشفه .

قال الجاحظ = (اني لاعجب ممن ترك دفاتر عمله متفرقة مبثوثة . وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة . كيف يعرضها للتخرم . وكيف لا يمنعها من التفرق . وعلى الدفتر – اذا انقطعت حزامته وانحلّ شداده وتخرمت ربطه ولم يكن دونه وقاية ولا جنّة – تفرق ورقه ، واذا تفرق ورقه عسر جمعه واشتد نظمه وامتنع تاليفه وربما ضاع اكثره . والدفتان اجمع وضم الجلود لها اصون والحزم لها اصلح ...) اقرا هذا القليل او ارجع الى مطوله في رسالة الهزل والجد التي نشرها بول كراوس ، ثم قل لي اى رمز اجمل من هذا . مغضوب عليه يكلم غاضبا ويستعطفه فيقول ... اذا تفرق ورقه عسر ~~جمعه~~ نظمه وامتنع تاليفه و ... ربما ضاع اكثره .

وقال ~~سعيد عقل~~ بشر فارس = في قصيدة الى زائرة :

لو كنت ناصعة الجبين	هيهات تنقصني الزيارة
مادوعة اللفظ المبين	الموسوسة على العبارة
ظل على وهج الجبين	ريحه مفخرة الاثاره
حظ شاقه الحزين	أرخى على العزم انكساره
ماذا الوجد المحصنين	صوت شج خلف الستاره
غيبت في العجب الرفين	معنى براحته السياره
دار الفوت الناعمين	ولعنة تهدي بجاره
خطوات وسواس رزين	وهب تعمية الطهاره

مقتطف مايو ... ص ٤٢٧

ثالثا - فلسفة الجاحظ في الاسلوب

" الفلسفة هي البحث في اصول الاشياء التي بدونها لا تكون ". وقد بحث الجاحظ في اصول الاسلوب التي بدونها لا يكون . وعلى هذا يحق لنا ان نعنون الفقرة بهذا العنوان ما دمنا نحاول ان نوضح موقفه وارائه بهذا الخصوص .

ملخص ما قال = ان الاسلوب نتاج عاملين مهمين اولهما الكاتب او الرجل وثانيهما المكتوب او الموضوع . او بكلمات اخرى يقوم الاسلوب على دعامتين الاولى ذاتية Subjective . والثانية موضوعية Objective وبالاجتماع هاتين الدعامتين وعملهما متآزرين يكون الاسلوب اسلوبا ويكتسب صفات خاصة تميزه عن غيره . ولتوضيح هذا نورد ما يلي =

اولا - الاسلوب هو الرجل = يرى الجاحظ ان الكاتب وعاء وان كل ما يخرج منه لا بد وان يكون تصويرا جزئيا له . وعلى هذا يمكنك ان تاخذ الرجل لتعرف الصورة . كما يمكنك ان تاخذ الصورة لتعرف الرجل لانهما كما يعتقد متماثلان الى حد كبير . الا ان تماثلهما يتم وشبههما يقرب عندما يكون الكاتب موفقا وناجحا في كتابه اذ عند ذلك يصوغ شخصيته في اسلوبه .

وقد دلل الجاحظ على هذا الاتجاه او الرأي في الموضوع عن طريقين =
اولا عن طريق نظرية بايراد بعض الاقوال التي يستنتج منها هذا وثانيا عن طريق عمليه بكتابته حسب هذا الراى . فمن النظرية قوله في البيان (ما قرأت كتاب رجل قط الا عرفت عقليته[1]) . وقوله = (الأدب هو عقل غيرك تضيفه الى عقلك[2]) . ونقله (ثلاثة اشياء تدل على عقول اربابها = الكتاب على عقل صاحبه ، والرسول على عقل مرسله والهدية على مقدار مهديها[3]) . وقوله ايضا في البيان (كلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات[4]) . وقوله في مكان آخر = (الكلام حسب المتكلم) فان كان بدويا وجب ان يكون خشنا جزلا وان كان حضريا وجب ان يكون لطيفا سهلا وان عكس ذلك هو المستنبح

(١) ب ٧/١ ٨١ (٢) (٣) ب ٢/ ٨٦ (٤) ب ١/ ١١٠

ثانيا – الجاحظ واللغة

لقد درس الجاحظ على الاصمعي وعلى ابي عبيده واستمع طويلا الى الاخفش . فهل غريب عليه ان يحب اللغة ويولع بدروبها . ام ان يقول في النحو ويكون له فيه آراء . ام ان يتعمق فيما اخذ فيفتح بابا جديدا في الموضوع هو " فقه اللغة " . كلا ليس بغريب . انما الغريب ان لا يكون كذلك .

١) . من مظاهر اهتمام الجاحظ في اللغة : اولا محاولته تفسير كل ما اشتم منه الصعوبة في اللفظ. ثانيا استطراده فيها دون ما سبب في كثير من الاماكن كان به هوسا الى موضوعاتها . ثالثا جعله اياها مقياسا حتى في المواقف الفقهية نتأمل .

اما عن محاولة التفسير فالشواهد في البيان والتبيين اكثر من ان تذكر . لكننا نورد واحدا وننوه بآخر . اما الذى نورده فهو تفسيره غريب ابيات بقوله (الهجمة ـ القطعة من النوق فيها فحل . والكلكل = الصدر . والفصال = جمع فصيل والفصيل ولد الناقة اذا فصل عنها . والهوادل = العظام المشافر . والعقل = ههنا الدية . والعاقلة = اهل القاتل الادنون والابعدون . والصفاة = جمع صفاة وهي الصخرة[1]) . واما الذى نحب ان نشير اليه فهو تفسيره قصيدة لبشر بن المعتمر استغرقت ثلث الجزء السادس من الحيوان واظنّ ان في هذا الكفاية من هذه الناحية .

اما عن استطراداته اللغوية، وخصوصا في الحيوان ، فحدث عن البحر ولا حرج . فتارة كان يستطرد ليسبب لا بأس به . وتارة لسبب ضعيف . واخرى بدون اى سبب . فلا يفيق القارئ الا وهو وسط بحث لغوى من اعمق البحوث . وللتمثيل فقط نورد ما يلي . قال = (نظرت امراة الى علي والزبير وطلحة رضي الله تعالى عنهم ، وقد اختلفت اعناق دوابهم حين التقوا. فقالت من هذا الذى كانه ارقم يتلمظ .. قيل لها الزبير. قالت فمن هذا الذى كسر ثم جبر .. قيل لها علي . قالت فمن هذا الذى كان وجهه دينار هرقلي .. قيل لها طلحة . وقال ابو زيد نهشت انهش نهشا . والنهش هو تناولك الشيء بفيك فتعضه فتؤثر فيه ولا تجرحه . وكذلك نهش الحية . واما نهش السبع فتناوله من الدابة بفيه ثم تقطيع ما اخذ منه فوه . ويقال نهشت اللحم انهشه نهشا وهو انتزاع اللحم بالثنايا للاكل . ويقال نشطت العقدة نشطا اذا عقدته بانشوطة ... الخ[2]) فتصور اية علاقة بين قول المراة وبحث ابي زيد .

---

(١) ح ١/١١٩ (٢) ح ٤/٨٤

اما استعماله اللغة لحل المسائل الفقهية فاليك مثلا عليه . في رسالة " الرد على النصارى " حيث حاول ان يفسر مسألة خلّة ابراهيم للّه قال (والخليل والمختل سواء في كلام العرب . والدليل على ان يكون الخليل من الخلّة قول زهير بن ابي سلمى وهو يمدح هرما =

وان اتاه خليل يوم مسألة يقول لا عاجز مالي ولا حرم

وقال الاخر =

واني الى ان تسعفاني بحاجة الى آل ليلى مرة لخليل

وهو لا يمدحه بان خليله وصديقه يكون فقيرا سائلا ياتي يوم المسالة ويبسط يده للصدقة والعطية . وانما الخليل في هذا الموضع من الخلّة والاختلال ، لا من الخلّة والخلال. وكان ابراهيم عليه السلام حين صار في الله مختلا ، اضافه الله الى نفسه وابانه بذلك عن سائر الانبياء . فسماه خليل اللّه[1]) . فتأمل .

٢) سعة اطلاعه : كل ما مضى يرينا اهتمام الرجل باللغة . وكانت النتيجة اولا ان اتسعت آفاقه فيها . ثانيا ان تنوعت معلوماته عنها . واخيرا ان كانت آراء استعمالاتها . واليك نبذة عن كل من هاته .

اما الاتساع فيدل عليه اولا كثرة غريبه ، ثم كثرة اجنبيه ، ثم كثرة عاميه ، ثم قدرته على التفاسير العديدة واخيرا خوضه في مواضيع صعبة من هذاالقبيل ولولا اننا المعنا الى كل هاته ومثلنا عليهاء لتوسعنا فيها بعض الشيء .

اما التنوع فيدل عليه اولا تأثر مفرداته بمفردات الفلاسفة والمتكلمين . مما نكاد نصادفه في كل مواقفه التي تعرض فيها لمثل هذه المواضيع . وهذا لم يكن منه عفوا بل تعمده مجانسة للبيئة . واليك قوله في هذا الصدد (ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها . فقبيح استعمال الكلام في المواقف العادية . كما انه قبيح استعمال كلام الاعراب في المواقف الكلامية . اذ لكل مقام مقال[2] .) والمفردات التي استعملها من هذا النوع كثيرة نذكر منها = الجوهر والعرض والحقيقة والتخييل[3] والليسية والايسية[4] والاخلاط[5] والجزء الذى لا يتجزء والكمية[6] وغيرها .

اما الثاني الذى يدل على تنوع مفرداته فهومعرفته الدقيقة بروح اللغة . حتى

---

(١) نصارى ٣١ (٢) ح ٣/ ١١٤ (٣) مج ١٢٧ (٤) ب ١/ ١٠٧

(٥) مج ٩٨ (٦) مج ١٢٧ .

استخرج منها كلمات علمية كثيرة ، وحتى تمكن من ان يتكلم عن الحيوان وطبائعه وكل ما يتعلق به ـ باسلوب سلس ولغة سهلة تظن ان القوم كتبوا فيهما قبله كثيرا. واشهر هذه المفردات في باب التسمية مما لا ضرورة لتعداده . انما نحب ان نشير الى انه في كثير من الاحيان كان يحاول خلق كلمات جديدة اذا لم يجد ما يسد الحاجة . فقد قال السندوبي انه اول من استعمل كلمة " لبل[1] " لما في داخل المحار . وانه " اى السندوبي " قد فتش عنها في معاجم اللغة فلم يقع لها على اثر . مما يدل على ان الجاحظ خلقها من عندياته[2].

هذا من حيث سعة اطلاعه ومن حيث تنوع معلوماته في اللغة . اما من حيث آراؤه فله فيها صفحة جميلة نحب ان ننسخ منها ولو اسطرا ـ فالجاحظ ، كما عرف من سعة اطلاعه ورحابة صدره ـ لا يرى بأسا من استعمال الدخيل اما للتملح والتظرف او لضرورة الحاجة اليه[3] . ولهذا وردت كلمات فارسية كثيرة في مفرداته . لكنه اذا وجد ما يقوم مقامها من العربية فانه كان يحجم عنها ويبتعد منها. هذه واحدة ، اما الثانية فهي ان اللغة واسطة لاظهار المعنى وفضيلتها في انها كذلك . فاذا خرجت عن هذه الفضيلة فعلينا ان نعاملها على اساس آخر . ومن كل هذا يستنتج ان اللفظ قيمته في اداء المعنى لا في اى شيء آخر . ولهذا اتسعت آفاق قاموسه . واما الثالثة فهي ان النحو والاعراب وما اليهما لم يوجدا الا لمساعدة اللفظ على الوصول الى هذه الغاية . فقيمتهما في انهما كذلك ، لا في حد ذاتهما. ولهذا يتساهل مع الكاتب اذا لم يعرب نوادر العامة ويتسامح مع الكواعد اذا لم يلاحظن الاعراب . كما يتساهل مع الاخرين الذين لم يبلغوا من القوة في الاعراب بحيث يستطيعون ان يعربوا كل ما يقولون، لدرجة انه يغتفر لهم تسكين اواخر الكلمات ما دام الغرض الافهام[4] . وعلى هذا فقد سبق الجاحظ الكثيرين من المحدثين الذين يدعون لحركة التسكين . الا انه يقول ان كل هذه ترخيصات للضرورة والا فالنحو قوة للضعيف[5] وهجنة للشريف[6] .

تبقى نقطة اخيرة بخصوص لغته ، نحب ان نوفغاضها . وهي = ترى هل كان يعرف الفارسية . قال احمد امين والغالب انه كان يعرفها[7] وقال كرد علي نرجح انه كان قد الم بها[8] . والواقع الذى بين ايدينا يؤيد كليهما . لكنه يقال من الناحية الاخرى

---

(١) ح ٤/ ١٥ (٢) سندوبي ٨٠ (٣) ب ١/ ١١ (٤) ب ٢/ ١٦٢

(٥) ب ٢/ ١٦١ (٦) ب ٢/ ١٥٩ (٧) ضحى الاسلام ١/ ٣٨٦ (٨) امراء البيان ٣١٧

الفصل السادس – في علم الجاحظ –

-×-×-×-

بالرغم من ان الجاحظ لم يعرف الا كاديب ، فان له في كتاب الحيوان الذى خلقه في سبعة اجزاء ، وفي غيره من الرسائل المختلفة ، نظرات ، واشارات على غاية من الاهمية . خصوصا اذا ذكرنا اهميتها اليوم وادعاء القوم انهم مكتشفوها . وهذه القواعد قد توزعت على عدة علوم = اهمها علم الحياة ، علم النفس ، علم الاجتماع ، علم الاخلاق واخيرا علم التاريخ . فالى نظرة في تلك الخطرات العلمية التي مرت او بالاحرى القواعد العلمية التي اوردها في كل من هاته نتوجه .

× × × ×
× × ×
× ×

اولا – علم الحياة – BIOLOGY

وهذا بالطبع اهمها كلها لان كتابا كاملا في سبعة اجزاء الّف فيه خاصة . اما اهم القواعد التي كان يلمح اليها ويورد الامثلة عليها فهي =

١) . – النشوء والارتقاء – EVOLUTION اى تطور المخلوقات صعدا في سلم النشوء والارتقاء . قال في الحيوان = بعد ان تكلم كثيرا عن الكلب (... وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الانسان وشبه ظاهر القرد بظاهر الانسان . ترى ذلك في طرفه وتغميض عينيه وفي ضحكه وفي حكايته وفي كفيه واصابعه وفي رفعها ووضعها وكيف يتناول بها وكيف يجهز اللقمة الى فيه وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبه وكيف ... وكيف [1]) . ومن هذا نرى ان الرجل يقابل الانسان بالقرد لا من حيث التركيب الداخلي فقط بل ومن حيث الخارجي ايضا ، ومن حيث الطباع والعادات كذلك .

---

(١) ح ١/ ١٠١

وهو لم يكتف بايراد الفكرة بل راح يشرح ومتعلقاتها سلبا وايجابا ويورد اقوال فيه بخصوصها فتكلم عن مسالة السلخ والتطور الايجابي ومسالة المسخ او التطور السلبي . اما عن " السلخ " او تكشف الحيوانات وترقيتها وتطورها من حالة الى اخرى فقد قال = (زعم تمامة عن يحي بن برمك انّ البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة ، وان البعوضة التي من سلخ دعموص، ربما تصلحت برغوثا . والنمل تحدث لها اجنحت ويتغير خلقها وذلك هو سلخها [1]) . اما عن " المسخ " فقد قال موردا وجهتي نظر بخصوصها (اما القول في المسخ فان الناس اختلفوا في ذلك . فاما الدهرية فهم في ذلك صنفان = فمنهم من جحد المسخ واقر بالخسف والريح والطوفان ... ومنهم من قال لا ننكر ان يفسد الهواء من ناخية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج ...[2])

من هذا نرى ان الرجل نوه واشار الى هذه القاعدة العلمية الجليلة اولا . ثم اورد بعض الشرح عنها واقوال الاخرين فيها . لكنه لم يذكر رايه الخاص . وهذا ديدنه في اكثر كتبه كما سبق وقلنا .

٢) . - مجانسة البيئة Adaptation to Environnement = هذه هي القاعدة الثانية ونعني بها ان يسعى المخلوق (بالطبع تاثير ما) لموافقة ومجانسة ومناسبة البيئة التي يعيش فيها . فان كانت صالحة كان صالحا ، وان كانت طالحة كان طالحا كذلك . ان كانت سوداء كان اسود كطيور اكثر المناطق الحارة وان كانت بيضاء كان ابيضا كالدب القطبي وان كانت خضراء كان كذلك مثل اكثر حشرات الخضروات . - لقد عرف الجاحظ هذه الظاهرة وتكلم عنها واسهب فيها واستعملها حتى في المسائل الدينية . فاليك الشرح .

قال في المجموعة متكلما عن اثر الحرة في اهلها .(وكل من نزل الحرة من غير بني سليم سود . وانهم ليتخذون المماليك للرعي والسقاء والمهنة

---

(١) ح ٤/ ٧٥ (٢) ح ٤/ ٢٤

والخدمة من الاشبانيين . ومن الروم نساؤهم فما يتوالدون ثلاثة ابطن حتى تنقلهم الحرة الى الوان بنى سليم . ولقد بلغ من امر تلك الحرة ان ظباءها ونعامها وهوامها وذئابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود) واردف معلقا (والسواد والبياض انما هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة . ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها وليس ذلك من العقوبة ولا تشويه ولا تفضيل[1]) ثم قال فى الحيوان (ومن يسكن البحرين [2]) . وفى اخر قال معللا هذه الظواهر (... وان اسود الحمام فان ذلك احتراق ومجاوزة لحد النضج ومثل به من الناس الزنج فان ارحامهم تجاوزت حد الانضاج الى الاحراق وكشطت الشمس شعورهم فتقبضت والشعر اذا ادنيته من النار تجعد) [3] .

الان اثر البيئة فى رايه لا يكون جسمانيا فحسب بل وخلقيا ايضا . قال فى الحيوان (وقد راينا العرب وكانوا اعرابا حين نزلوا خراسان - كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى - وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم) [4] .

من هذا نرى ان البيئة تؤثر على موجوداتها فتطبعها بطابعها من الناحيتين الجسمانية والعقلية . وقد مثل لنا الجاحظ على كل منها اجمل تمثيل كما راينا وعللها اجمل تعليل كما قرانا . الا انه زاد فراح يستغلها فى اغراضه الادبية والدينية . اما فى الادبية فهى معرفة هذا الاثر على عقلية القوم ، ولهذا اختلفت تعاريف البلاغة عنده حسب اقاليمهم والبيئات التى تربوا فيها . فالبلاغة عند العربى الايجاز لانه صحراوى كل همه السرعة والاقتصاد وعند اليونان المنطق لانه على هذا نشا . اما فى الدينية فهو يرى ان اسمعيل تكلم العربية وان لم يكن عربيا مناسبة لبيئة العربية التى وجد فيها) [5] .

٣ - التعاون = Symbiosis وهذه ظاهرة اخرى عرفها الجاحظ . اى ظاهرة تعاون بعض المخلوقات على المعاش . وليس هذا بغريب عليه وهو الذى كان حينما تعرض للموضوع يحاول اثبات وحدة الكون باجمعه وتعاون افراده كلهم على اثبات وجود قوة واحدة مدبرة [6].

(١) بخ ٧٨ (٢) ح ٤/ ٤٧ (٣) ح ٣/ ٧٥ (٤) ٣/ ٢٤ (٥) ب ١/ ١٧٠

(٦) ح ٣/ ٣٨

قال في الحيوان عندما كان يحاول اثبات هذه النظرية"اي تعاون كل المخلوقات على وجود قدرة مدبرة "(... واي شيء اعجب من طاشرين يراهما الناس من ادنى حدود البحر من شق البصرة الى غاية البحر من شق السند . احدهما كبير الجثة يرتفع في الهواء مصعدا والاخر صغير الجثة يتقلب عليه ويعبث به . فلا يزال مرة يرنوف حوله ويرتقي على راسه ومرة يطير عند ذناباه ويدخل تحت جناحه ويخرج من بين رجليه " فلا يزال يغمه ويكربه حتى يتقيه بذرق + فاذا ذرق تحاماه فلا يخطىء اقصى حلقه حتى كانه رمي به في بئر وحتى كان ذرقه محتاجا مدحاة بيد اسوار . فلا الطائر الصغير يخطىء في التلقي وفي معرفته انه لا رزق له الا الذي في ذلك المكان . ولا الكبير يخطىء التشديد ويعلم انه لا ينجيه منه الا ان يتقيه بذرقه . فاذا اوى ذلك الذرق واستوى في ذلك الرزق رجع شبعان ريان بقوت يومه ومضى الطائر الكبير لطيته . وامرهما مشهور ومثلهما ظاهر لا يمكن دفعه ولا تهمة المخبرين عنه [1] " ومن مكان اخر اورد مثلا ثانيا على ذات الظاهرة فقال (والتمساح يفتح فاه اذا غمه ما قد تعلق باسنانه حتى ياتي طائر فياكل ذلك فيكون طعاما له وراحة للتمساح [2]) .

هذه امثلة اوردها الجاحظ .وهي لعمري نعم الامثلة لتوضيح هذه القاعدة الحيوية القيمة . طبعا نحن لا نقول ان الجاحظ عرفها بحد ذاتها اي كما يعرفها علماء اليوم – انما نقول انه لا حظ واورد عليها امثلة . ومن هذا فضل كبير .

٤ – التهجين HYBRIDIZATION = والتهجين هو تلقيح ابوين مختلفين لينتجا فلا يكاد يكون ثالثا . مثل تلقيح الفرس مع الحمار لينتجا البغل او الكلب مع الضبع لينتجا العسبار على حد قول الجاحظ بذاته .

لهذه القاعدة ذيول طويلة وكثيرة . لم يعرف منها الجاحظ الا ان هذا الهجين يكون مختلفا عن ابويه . فهو تارة ضعيف وتارة قوى ومن الصعب ان يكون مثلهما . بالطبع لم يعلل الظاهرة تعليلا علميا كما يعللها علماء الحياة اليوم – لانه لم يكن باستطاعته ذلك . انما اكتفى بالتنبيه عليها والتمثيل لها .

---

(١) ح ٢/ ٣٩ (٢) ح ٤/ ٧٦

فى الجزء الاول من الحيوان قال مشيرا الى الظاهرة (قالوا قد يعرض الذيخ (الضبع) فى تلك البلاد للناقة الوحشية فيفسدها . فتلقح بولد يجىء خلقه ما بين خلق الناقة والضبع . فان كان انثى فيعرض لها الثور الوحشى فيضربها فيصير الولد زرافة [1]) . ومن مكان اخر تكلم عن العسبار من حيث انه ولد الكلبة والضبع ومن ثالث تكلم عن البغل من حيث انه نتاج تسافد الرمكة والحمار . وكل هذه امثلة من حيوانه تشير الى انه لاحظ الظاهرة العلمية هذه .

لكنه لاحظ ايضا اشياء اخرى عنها . فقد عرف ان الهجين (اى نتاج الابوين المختلفين) يكون غالبا اقوى من ابويه او قد يكون اضعف حسب حالتهما ومن هذا الصدد قال (ان البغل المتولد بين الحمار والرمكة لا يبقى له نسل . والزاغبى المتولد فيما بين الحمام والورشان يكثر نسله ويطول عمر ولده . والبخت والفولج ان ضرب بعضها بعضا خرج الولد منقوص الخلق لا خير فيه [2] .) وهذه النتيجة التى توصل اليها الجاحظ فى القرن الثالث للهجرة اى ضرورة اختلاف الهجين عن ابويه ان سلبا او ايجابا هى التى توصل اليها مندل فى القرن الثامن عشر للميلاد وملا الفم الدنيا مدحا لعبقريته .

ه ـ التوالد العذرى Parthenogenesis = وهناك ظاهرة اخرى لاحظها الجاحظ هى ظاهرة التوالد العذرى . او البكرى . اى الولادة بدون سابق تلقيح ذكر لانثى . مما اقره العلم الجديد ومثل عليه بتكاثر الاميبا مثلا والمن كذلك . نقول لاحظها وتكلم عنها بخصوص بيض الدجاج غير الملقح فى الجزء الثالث من الحيوان ثم عاد يؤكدها ويهاجم الذين انكروها بقوله فى ذات الجزء (وقد انكر ناس من العوام واشباه العوام ان يكون شىء من الخلق كان من غير ذكر وانثى . وهذا جهل بشان العالم واقسام الحيوان . وهم يظنون ان على الدين من الاقرار بهذا القول مضرة . وليس القول كما قالوا . وكل قول كذبه العيان فهو فحش خطأ [3]) . لذن لقد راى الجاحظ بعينه هذا ولذا فهو لا يقبل به بديلا .

٦ ـ تنازع البقاء . Struggle for Existance = هذا ناموس طبيعى اجتماعى عام . لاحظه الجاحظ وكتب عنه واناض فى التمثيل عليه خصوصا فى عالم الحيوان

(١) ح ١/ ٦٦ (٢) ح ٣/ ٥٠ (٣) ٣/ ١١٢

فذكر تسلط بعض الحيوانات على بعض مثل الكلب على القط والقط على الفار .
وذكر اسلحة كثيرة من الحيوانات التى تدافع بها عن نفسها مثل خرطوم الفيل
وانياب القط وحيلة الثعلب وفساء الضب . مما لا ضرورة لاعادته اولا لانه
معروف وثانيا لانى نقل اقل شىء منه اطالة لا مبرر لها . لكننا نعتقد
ان القطعة التالية لها قيمتها فى هذا الصدد . قال فى الحيوان =
(وزعم صاحب المنطق ان العقاب تاكل الحيات . وان بينهما عداوة لان الحية ايضا
تطلب بيضها وفراخها . قال والعذاف تقابل ا بومة لان العذاف يخطف بيض البومة
نهارا وتشد البومة على بيض العذاف ليلا فتاكله لان البومة ذليلة بالنهار رديئة
النظر واذا كان الليل لم يقو عليها شىء من الطير .... والعذاف يقاتل ابن عرس
لياكل بيضه وفراخه . قال وبين الحداة والعذاف قتال لان الحداة تخطف بيض
العذاف لانها اشد مخالب واسرع طيرانا . وبين الاطرغالة والشقراق قتال
لانه يقتل الاطرغالة وبطالبه . وبين العنكبوت والعظاية عداوة ... وو [1]) الى
كثير من العداوات التى اتى على ذكرها مما يدل على استحكام القتال ودوام النزاع فى سبيل
الحياة .

٧ – علم الحياة الترتيبى Systematic Biology = هذه الطريقة
فى معالجة علم الحيوان لم تعرف الا حديثا . اى تقسيم الحيوانات الى عائلات مشتركة
فى خصائص خاصة . ثم درس كل عائلة على ذلك الضوء . الا ان الجاحظ عرفها فى القديم
وحاول ان يدرس حيواناته على ضوئها لكن ضرورة الاستطراد التى راى بها منفعته من
ذلك وحالت بينه وبينها .

قلنا عرف هذه الطريقة . والدليل على ذلك محاولته تطبيقها بجمعه
الحيوانات المتشابهة من مجموعة واحدة مثل قوله عن الحمام مثلا (فالقمرى حمام
حمام والورشان حمام . والسفنين حمام ، وكذلك اليمام واليعقوب وضروب
اخرى كلها حمام [2].) ومثل قوله عن الزنابير (وليس بين بنات وردان والزنابير
فرق ولا بين الزنابير والدبر والخنافس فرق . ولا بين العصافير والزرازير فرق [3]) .

وليس هذا فحسب بل راح يثبتها بالاستشهاد بعد ان تاكد بالعيان .
فقال (والدليل على ان اجناس النحل والدبر كلها ذبان . ما حدث عباد بن
صهيب

(١) ح ٢ / ١٧ (٢) ح ٣ / ٤٥ (٣) ح ٣ / ١١٥

صهيب واسماعيل المكى عن الاعمش عن عطية بن سعيد العونى قال قال رسول الله صلعم = كل ذباب فى النار الا النحلة (١) . وليس هذا وحسب بل راح يستخرج الشاهد من القران ايضا بقوله (زعم اناس ان جميع الحيوان على اربعة اقسام = شىء يطير وشىء يمشى وشىء يعوم وشىء ينساح . وقد قال الله عز وجل = والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجليه ومنهم من يمشى على اربع يخلق ما يشاء (٢))

ومن هذا نرى اولا ان الجاحظ ادرك هذا الاختلاف بين حيوانات والتقارب بين اخرى فراح يجمعها فى عائلات متقاربة . الا انه يقال اولا ان قاعدة تقيمه كانت ناقصة بالرغم من انها صحيحة . وثانيا انها لم تجىء واضحة بالرغم من انها قصيرة لكن له من روح العصر الذى عاش فيه (اى عدم معرفة هذه الامور) خير عذر ومن نزعته الادبية فى بحثه احسن ملجا .

هذه نظرة عامة وسريعة فى المبادىء او القواعد او النواميس العلمية التى لاحظها الجاحظ فى علم الحياة . كان همنا ابرازها كما وردت دون اى تعليق الا ما اقتضت الضرورة به . فنقول انه عرف سنة النشوء والارتقاء . وعرف مجانسة البيئة وعرف ظاهرة التعاون وادرك مسالة التهجين . ولم يغفل التوالد العذرى . هذا الى كلام مفيد مختصر فى تنازع البقاء ثم انقسام الحيوانات الى عائلات . - وكفاة فضيلة - ونحب ان نضيف انه كان ملاحظا اكثر منه باحثا .

ثانيا - علم النفس - PSYCHOLOGY

فى هذا الميدان طرق الجاحظ عدة نواحى من نواحى النفس البشرية والحيوانية . فاسهب فى كل منها وفصل به وكتابه " البخلاء " بالاضافة الى " الحيوان " ورسائله الاخرى فمن "كتمان السر " و " الحاسد والمحسود " بالاضافة الى " التربيع والتدوير " وفرق ما بين العداوة والحسد " ، لم تعد فى اكثرها كتب درس للنفسية البشرية وتحليلا وافيا لها على ضوء الاختبار . ولو لم يكن قد طرق فى هذا الموضوع سوى ناحية البخل وناحية الحسد وناحية التنبل بالاضافة الى كثير من طبائع الحيوان لكفاه فضلا .

---

(١) ح ٣/ ١٢١ (٢) ح ٤/ ٩٠

الا ان هناك قواعدا نفسية كان دائما يحاول الدوران حولها لتوضيحها نحب بدورنا ان نقف عليها بعض الشئ بعد ان جمعنا متفرقاتها من هنا وهناك — اهم هذه ما يلي =

١ . وحب شئ الى الانسان ما منعا = وقد مثل عليها تمثيلا جميلا فى رسالة "كتمان السر" حيث قال اذا اردت ان تفشى سرا فتعال لايهم وقل له = احب ان اقول لك سرا . لكن ارجوك كل الرجاء ان لا توصله الى احد . وكرر عليه كلمتى " سر " و " ارجوك ان لا توصله لاحد " . وانا الكفيل بان كل البلد ستدرى به . ذلك لان النفس البشرية نزاعة للحرية وتكره كل قيد .فانت بقولك = لا تقله لاحد . قيدته بقيد سيبقى دائما وابدا نزاعا لينفلت منه [1].

٢ . وشبه الشئ منجذب اليه = قال فى الحيوان (... لان الشكل انهم عن شكله واسكن اليه واصب به . وذلك موجود فى اجناس البهائم وضروب السباع . والصبى عن الصبى انهم وله الفا واليه انزع . وكذلك العلم و العالم والجاهل والجاهل . وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام = " ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا " لان الانسان عن الانسان انهم وطباعه لطباعه انس [2]) . والسبب عنده فى كل هذا ان اخلاط الاشياء متشابهة فى الاصل ورغائبها متقاربة ولهذا لزم ان تتفاهم[3]. هذا ان اخلاط الاشياء متشابهة فى الاصل ورغائبها متقاربة ولهذا لزم ان تتفاهم .

٣ — والمرء يجهل عيب نفسه — وامثلة هذا تكاد تملأ النجلاء والتربيع " فالبخيل لا يرى قبح نجله بل لا يكاد يقربه . انما يرى ذلك فى غيره ويهاجمه . وان عبد الوهاب لا يعرف نفسه ابدا ولهذا تاه وبطر فاضطر الجاحظ " لان يوقفه عند حده كما قال . وخير توضيح لهذه القاعدة هو مراجعة كتاب التربيع . اذ هناك تعرف رسوخ كعب الرجل فى الموضوع ومعرفته الدقيقة بدخائل النفس البشرية .

٤ — الانسان ميال للتاله .— فهو لا يقر بعيب ابدا . واذا راى عيبا فانه يستره ويحاول ان يطمسه عن الناس باظهار عكسه . فالضعيف فى اساسه تراه دائما يتظاهر بالقوة والغبى يتظاهر بالذكاء . واحسن الامثلة عنده رسالة فى النبل والتنبل . واجمل ما جاء فيها قوله

(١) ج ٤٧ وما بعدها — (٢) ج ٢٣/١ (٣) ج ١٤/١ وما بعدها .

والنبيل لا يتنبل لانه ليس بحاجة الى ذلك . انما الذى يتنبل هو من ليس عنده نبل .

٥ - النفس الانسانية ضعيفة فلا تنسى هذا = لذلك لا تكثر عليها من الجد لئلا تحترق ، ولا تكثر عليها من الهزل لئلا تموت . ولهذا كان تنويه في ادبه كله . واحسن مثال عملي قدمه بهذا الخصوص قوله في رسالة التجارة لا تعط الدرس بكامله للتلميذ . بل اعطه منه قليلا قليلا وتدرج من الصعب الى الاصعب وشوقه اثناء ذلك فان التشويق في النفس اثرا كبيرا . ص ١٥٩

٦ - متفرقات = هذه المتفرقات تجدها في كلامه عن طبائع الحيوان التي اوردها منجمه في ثنايا كتابه . وللتمثيل على هذا راجع [1]) مما لن نذكره خوفا من التطويل .

ثالثا - علم الاجتماع - SOCIOLOGY

اما في باب الاجتماع فلاجل اراء هي مزيج من اراء عصره التقليدية واراء عقله الحر . واليك اشهرها بكل اختصار =

١ - الجاحظ والمراة = لقد اورد الجاحظ في كتبه كثيرا من الاقتباسات كلها الى انحطاط النظرة الى المرأة في ايامه وقبل ايامه . بل هي بحق تمثل نظرة العرب التقليدية الى هذا المخلوق . واليك جانبا منها = نقل في البيان . قول خالد (وما عسى ان اقول لقوم كانوا بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد . دل عليهم هدهد . وغرقتهم فأرة . وملكتهم امرأة[2]) . يشير الى قوم سبأ وملكتهم بلقيس ونقل فيه كذلك من خطبة لعبدالله بن مسعود قوله (النساء حبالة الشيطان[3]) وفي ذات الكتاب نقل قولهم الشائع (لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثيرالعقود مع النساء [4]) . وكذلك قول عمر بن الخطاب (اكثروا لهن من قول لا . فان قول نعم يضر بهن على المسالة[5]) .

---

(١) ح ٢/ ٥٨ و ٢/ ٨٨ (٢) ب ١/ ٢٢٠ (٣) ب ٢/ ٥٥ (٥) ب ٢/ ١٤٨
(٤) ب ٢/ ٧٠

واما في الثالث فقد كاد يعطي الصورة الكاملة لهذا الموقف التقليدى بنقله هذا الحديث (كتب الحجاج الى الحكم بن ايوب = اخطب على عبدالملك بن الحجاج امراة جميلة من بعيد مليحة من قريب شريفة في قومها ذليلة في نفسها امة لبعلها.

فكتب اليه . قد اصبتها لولا عظم ثدييها . فكتب اليه الحجاج = لا يحسن نحر المراة حتى يعظم ثدياها. قال المرار بن منقذ العدوى =

صلتة الحذ طويل جيرها ضخمة الندى ولما ينكر

فقال علي بن ابي طالب بن ابي طالب كرم الله وجهه = لا، حتى تدفي الضجيج وتروى الرضيع[1] . - هذه هي نظرة القوم اليها. هو آخر ما استطعوا ان يرفعوها اليه = ان تدفي الضجيج وتروى الرضيع .

والجاحظ قد ضرب على هذا الوتر كثيرا في كتبه . فذكرها تارة بخفة العقل مع النوكى / . وتارة بالطيش مع الاولاد . وتارة باشياء اخرى كثيرة من هذا النوع .

الا / انه في الحق كان يثور على التقاليد ويعطي تعلمه حرية التبصير عن عقله الحر. فقد وقف مواقف مشهورة بهذا الصدد واليك بعضها. فالجاحظ لم ير بالحجاب = اولا لانه لم يكن في الجاهلية[2] وثانيا لانه نزل على نساء النبي خاصة في الاسلام[3] وثالثا لان الكثيرات من مشهورات العباسيات لم يعترفن به[4]. ورابعا لانه غير طبيعي انما خلقته غيرة الرجل وحب اثرته بالمراة[5] . هذا بخصوص الحجاب اما بخصوص الاختلاط فقد دافع عنه كل دفاع وقال انه طبيعي الذى لا بد منه لولا الفساد الاجتماعي[6]. وله موقف ثالث بخصوص المراة وهو اعترافه بمساواتها بالرجل في كل الميادين وقد برهنه على ذلك عمليا بنقله عن كثيرات منهن في الادب وفي الزهد وفي الحيوان حتى ، وليس هذا فحسب بل فضلها عليه في مواقف خاصة كما نرى في "النساء والعشق"

٢ - الامامة = وللجاحظ اراء في الامامة . فهو كما يشتم من كلامه لا يؤمن بما يسمى اليوم حكم الشعب . " لان هذا الشعب اكثر من العامة . والعامة في ~~صحيحه~~ نظره لا تفهم صالحها ." اذا اجتمعت فانها للشعب وان تفرقت فالخير كل الخير

(١) ب٣/ ٢١٧ (٢) ج ٥٦ (٣) ج ٥٦ (٤) ج ٦١ (٤) ج ٦١ (٥) ج ٦٢ (٦) ج ٦٢

في تفرقها تطلب الرزق ". ولهذا هاجمهم كثيرا حيث تعرض لهم واعلن عن عدم ثقته بهم في كثير من المواطن .

ورايه هو ان يقوم جماعة ممن توفر فيهم شروط خاصة يستلموا زمام الحكم ويديروا الدفة باحكام . وبهذا لا بغيره يسير المجموع في طريق النجاح . اولا لكفاءة هؤلاء في عملهم ، وثانيا لانصراف العامة الى اشغالهم .

وهو يرى الى جانب هذا ان القلة في عدد هؤلاء الرؤساء هي المطلوبة . حتى انه اوصى بامام واحد فقط[1]. وصحبته في ذلك تلافي الخلاف . وهو في الوقت الذى يعترف فيه بان راى اثنين احسن من راى واحد يقول = ولا بد للخير من شر حتى يتم كيانه[2].

هذه الاراء مستقاة من رسالة في الامانة . ومن الاماكن الاخرى التي ورد فيها ذكر للموضوع في مختلف كتبه . ومن مجموعها يستنتج ان الرجل كان نزاع للحكم الفرد لا بغيره .

٣ ـ نظام الطبقات = يرى الجاحظ ان اختلاف الناس في مواهبهم ومقدراتهم وكفاءتهم امر طبيعي . بل هو ضرورى لصلاح المجتمع . والخير كل الخير في بقاء تلك الفوارق . والشر كل الشر في محاولة ازالتها او تجاهلها . فالعالم لا يمكن ان يكون كالجاهل . ولا الخاصة كالعامة . ومن جميل قوله في هذا الصدد = تصور ان جميع الناس خلقوا أوهم بعقلية واحدة وجثمانية واحدة بلا فرق ولا تمييز . تصور هذا ثم تصور معه الاضطراب والفوضى في المجتمع . فسبحان من الهم فلانا ان يسمى ابن محمدا والهم غيره ان يسميه شيطانا[3] ـ.

هذه اهم نظراته في الموضوع . الا ان له غيرها كثيرا مما لا نستطيع ايراده في هذه العجالة اولا لضيق المقام وثانيا لقلة بروزه في كتبه .

---

(١) هامش الكامل الثاني ٣٣ (٢) هامش الكامل الثاني ٥٠

(٣) هامش الكامل الثاني ١٢٧

رابعا - علم الاخلاق

لقد نصب الجاحظ نفسه محاميا عن الاخلاق الحميدة . فكتب ايجابيا يدعو اليها وكتب فيها سلبيا ينقد وينفر من الرزيلة = كما ترى في لائحة كتبه عن " الاخلاق " مما يمكن الرجوع اليه . وللتلميح فقط نقول انه = كتب في البخل ناقدا ،وكتب في حيل اللصوص مفصلا . وكتب في الجوارى متهكما . كما انه نقل كثيرا من الزهديات في البيان ، وناستخلص شيئا جميلا من اخلاقيات الحيوان . هذا بالاضافة الى تذود كثيرة في السلوك وآداب المعاشرة وتجدها مفرقة في الحيوان .

وخلاصة آرائه في كل هذه رأيان يكادان يكونان متناقضين = الاول هو ترك الدنيا والتوجه للاخرة بمثلها العليا . والثاني هو ترك الاخرة والانكباب على الدنيا بملذاتها وملاهيها . وليس بغريب على الجاحظ هذا التطرف فقد عرفنا فيه من قبل .

اما الاول فيستنتج من منقولاته في الزهد واقوال الزهاد وما اليهم مما اكثر منه في البيان والتبيين . واما الثاني فمن رسائله المتعددة مثل رسالة" الشارب والمشروب " التي دافع فيها عن شرب النبيذ ومثل " رسالة القيان " التى ذمهن فيها لعدم اخلاصهن في حبهن ومثل رسالة " المغنين " التي حبذ فيها الغناء ومثل رسالة العشق والنساء " التي دافع فيها عن المراة اولا وارانا اختبارات عميقه وشققتها ثانيا .

خامسا - علم التاريخ

في هذا الميدان كان الجاحظ مؤرخا اجتماعيا اكثره من سياسيا . وادبيا اكثر من علميا . فهو عندما يتناول شخصا لم يكن يتناوله من حيث مركوه السياسي بل كان ياخذه من حيث انه رجل اجتماعي فيتكلم عن علاقاته بغيره ومن ارائه في النظام ومن اقوال الناس فيه وهكذا . لكن الضرورة تضطرنا لان نقسم الموضوع لقسمين = اولا التاريخ السياسي الذى يساير العصور السياسيه ويتكلم عن رجال الدولة وان لم يصبغه بتلك الصبغة . وثانيا التاريخ

الادبي الذي ركز فيه على جماعة من رجال الادب .

١ - التاريخ السياسي = كان الجاحظ نقيرا فيه . وما يلي مما جمعناه ،قد وقع منه بقصد غير القصد المعروف من مثل هذا الموضوع . واليك نظرة في التراث التي تكلم عنها =

اولا - تكلم عن التاريخ القديم للجزيرة فذكر اقواما غابرة[1] وتحدث عن نشو النصرانية فيها منذ القديم[2]

ثانيا - تكلم عن عهد الراشدين[3] فسفود الشخصيات الاربعة قال بعض الشيء عن كل منهم .

ثالثا - " " (" الامويين[4] بذات الاسلوب

رابعا - " " " العباسيين[5] بذات الاسلوب ايضا .

٢ - التاريخ الادبي = واكثره تراجم لشعراء وكتاب وخطباء وتنويهات خاصة برجال بارزين لا يمكن جمعها في صفحات لانها واسعة التفرق .

وعلى هذا فتكون برفيته التاريخيه مقصودة على هذا الكم القليل والنوع الضئيل الا اننا يجب ان لا ننكر انه اذا لجمعت متفرقاته وخصوصا تلك الاخبار الصغيرة ،وخطبه المنقوله ، وكتبه التي نسخها فان مجموعها شيء قيم . هذا بالاضافة الى مفهومه الاجتماعي للتاريخ وسبقه الكثيرين الى هذه النظرية .

نظرة وتقدير

اذا القينا نظرة عامة على كل ما مر وجدنا ان الرجل كان سباقا الى كثير من القواعد العلمية التي يفتخر بها العصر الحاضر . فسبقه الى التنويه بوجود شيء اسمه التطور لا يعد مفخرة لانه سبق اليه فحسب وانما لانه تجاسر ان يقول به ايضا لا سيما وهو يتبع لدين تقول اصوله ان الله خلق كل شيء ولا تطور . واما اراوءه في المراة خصوصا في حجابها فشيء اقل ما يقال فيه انه جميل جدا . لكن الاجمل منه هو نظرته للعامة وموقفه ا

---

(١) ب ١٢٩/٨ (٢) ن ١٥ (٣) ب ٩٧/٣ (٤) ب ١٠٥/٣

(٥) ب ٢٠٧/٣ .

التنكرى منهم . واذا عرفنا ان ذات موقفه وقفه هتلر من العامة وقال به في كفاحه عرفنا الى اى مقدار كان الرجل دقيق النظر في امور المجتمع . ولنتخط اراءه في نظام الطبقات لانه يكاد يعلن عن نفسه بنفسه لننتقل الى رايه في الاخلاق ذاك النظر الذى ان كان ليمثل شيئا فانما واقعية باجلى معانيها . " ساير البيئة وجار المجتمع ولابس الدهر الذى تعيش فيه " . ان كانت اخلاقا فاضلة فادع لافضل منها . وان كانت رذيلة فمرحبا بالرذائل . واما رايه في تدوين التاريخ فقد كاد يتميز به . التاريخ عنده ليس مجرد سرد حوادث . انما هو نتاج اعمال رجال . فلا يمكن تدوينه الا على هذه الحال . تاريخا اجتماعيا . والجغرافية عنده مثل التاريخ بالضبط . الجغرافية ليست جبالا وسهولا وانهارا . هي جغرافية انسانية . هي وصف للعلاقة المكينة بينها وبين اهلها .

الا انه يؤخذ عليه اولا انه كان ملاحظا اكثر منه باحثا
ثانيا انه كان وصافا واكتفى بذلك ولم يستنتج قوانين عامة
ثالثا ان اكثر مادته كانت قليلة ابتدائية .

الا ان له من البيئة التي عاش فيها كما قلنا خير مجن . وعلى العموم فلله دره . فكم كان سباقا لعصره بعصور . حتى ان كل مدح فيه اضحى بعد كل هذه الدراسات نوعا من التكرار .

المقالة الثالثة في دين الجاحظ

انه لمن المؤسف حقا ان تضيع اكثر كتب الجاحظ في الدين ومسائله . والعقل ومشاكله . فتظلم امامنا الطريق ويختفي كل نجم نستطيع ان نستعين به في هذه المفازة . فاحالة القدرة على الظلم التي تتعلق بمسالة القضاء والقدر ، والاستطاعة وخلق الافعال التي تعالج مشكلة حرية الانسان ، ورسالة خلق القران التي تعرضت لقضية طالما كثر فيها الاخذ والرد ، ورسائل الردود على المشبهه والغولية وغيرهما مما تجده في قائمة سرد كتبه كلها ضاعت ولم يبق لنا منها شيء .

اما كيف ضاعت . فاغلب الظن ان ذلك كان عن احدى طريقين = الاولى تغلب اعداء الجاحظ عليه وعلى فرقته منذ ايام المتوكل ومن ثم اغارتهم على كل ما خلفت بهذا الصدد ومحاولتهم الخلاص منها على اى وجه كان . والثانية حرق المكاتب الذى تكرر وقوعه في اواخر العصر العباسي عندما سادت الفوضى وتحكم في الناس جهالهم .

نقول بهذا عدمنا كل كتب الجاحظ في الدين الا القليل النادر . وليت الامر وقف عند هذا الحد ، اذن لاستطعنا ان نعتمد على من جاء بعده في استقاء مادتنا عنه بهذا الخصوص منهم . لان هؤلاء الذين جاؤوا بعده سادتهم روح سنية متزمتة ، انكرت كل اثر للعقل ومن ثم انكرت كل اثر للجاحظ نصيره . وان كان هناك اى اثر بقي ولم يستطيعوا محوه راحوا يعملون فيه معاول التشويه من نقد مر الى سخرية لاذعة الى تهكم يذل امامه كل متشامخ ومن امثلة هذا قول ابن الراوندى يسخر من قول الجاحظ بخلق القران (ويدعي الرجل ان القران مخلوق يستحيل تارة في شكل امراة واخرى في شكل رجل[1]) .

نقول لكل هذا عزمنا على عدم التعرض لهذه الناحية من ادب الجاحظ . لكننا وجدنا ان الموضوع لا يتم بدون ايراد ولو لمحة قصيرة عنه . فمن اين ناتي به . واخيرا هدتنا الحيلة الى الاعتماد على الشذرات القليلة التي فرقها في باقي كتبه ورسائله مما قد سلم ، وعلى الشهرستاني الذى يعد احسن مرجع قديم عرفناه في الموضوع . لكن هذه الشذرات المتفرقة وما

---

(١) الشهرستاني ١ / ٨

اورده الشهرستاني وغيره كان من القلة والغموض بحيث لم نفهم منه شيئا . ولهذا اضطررنا الى ان نستعين بفهم بعض المحدثين لها مثل احمد امين وغيرهم .

اما الذى سنحاول ان نبينه في هذه المقالة ، او بالاحرى ان نلقي عليه ضوءا فهو اولا موقفه من القران وثانيا موقفه من الحديث وثالثا موقفه من الفقه ومشاكله بخصوص علاقة الدين بالعقل .

اولا الجاحظ والقران

كمسلم عادى امن الجاحظ بان القران من عند الله . لكنه كمعتزلي انكر ان يقر له بالقدميه كما يقول السنيون . ولذا راح يقول بانه مخلوق كباقي مخلوقات الله واليك قوله بالحرف (... ثم زعم اكثرهم ان كلام الله حسن ... وان الانجيل غير القران . والبقرة غير ال عمران . وان الله تولى تولينه . وجعل برهانه على صدر رسوله . وانه لو شاء ان يزيد فيه زاد . ولو شاء ان ينقص منه نقص ... ولو شاء ان ينسخه كله بغيره نسخه . وانه انزله تنزيلا . وانه فصله تفصيلا . وانه بالله كان دون غيره . ولا يقدر عليه الا هو غير ان الله مع ذلك لم يخلقه ... فاعطوا جميع صفات الخلق . ومنعوا اسم الخلق ... والعجب ان الذى منعه – بزعمه – ان يزعم انه مخلوق، انه لم يسمع ذلك من سلفه و وهو يعلم انه لم يسمع ايضا من سلفه انه ليس بمخلوق[1]) .

هذا من حيث موقفه من مسالة خلق القران التي لعبت دورا كبيرا . اما من حيث مسالة اعجازه فالغريب من امر الجاحظ انه يقول بالصرفة اى ان العرب يمكنهم ان ياتوا بمثله ولكن الله صرفهم عن ذلك . قال (فانا نقول بالصرفة في عامه هذه الاصول والابواب ... وقد ذكرنا ... وذكرنا ... وذكرنا من صرف من صرف او هام العرب عن محاولة معارضة القران[2]) .

اما من حيث تفسيره فقد وقف موقفا يشكر عليه اذ جعل العقل هو مدار

---

(١) هامش الكامل الثاني ٢١٧ (٢) ح ٦/ ٨٥

كل تفسير . تفسر احيانا تفسيرا منطقيا معقولا وفند احيانا تفاسير غيره الخرافية وسخر منهم على حسب عادته التي عودنا . واليك بعضا من هذه اللمحات من كتاب الحيوان .

لقد انكر الجاحظ الخرافة من اصلها وهو لم يعتقد بحديث الجن واشعار الجن وما اليه . ولذا نفى كل خبر عيان عنهم راميا اياه بلانه " حديث خرافة " . وقد طبق هذا المنطق في التفسير فقال في تفسير (انها شجرة تخرج في اصل الجحيم . طلعها كانه رؤوس الشياطين = وليس ان الناس راوا شيطانا قط على صورة . ولكن لما كان الله قد جعل لها في طبع طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته واجرى على السنة جميعهم ضرب به المثل في ذلك . رجع بالايحاش والتنفير وبالاخافة والتقريع الى ما قد جعله الله في طباع الاولين والاخرين عند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم[1]).

هذا مثل على استعمال العقل الحر في التفسير . اما الثاني فعلى استعمال العقل الواسع الافاق فيه . قال في تفسير (ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا = يجوز ان يكون انما يريدون صرف العذاب . ويجوز ان يكون انما يريدون تخفيف الفرائض . وقد يجوز على قول من قال " لا استطيع النظر الى فلان " على معنى الاستقبال[2]) .

اما المثل الثالث فعلى سخريته بالمفسرين الاخرين في قولهم ان اصل القط من عطسة الاسد . وان الخنزير من سلح الفيل . وذلك انه عندما جمع نوح مخلوقات كثيرة في سفينته وعلا بهم الموج واخذ الفار يعبث بالمتاع وكاد يخرق السفينة اوحى الله للاسد بان يعطس فخرج من منخريه زوج سنانير . فغار الفيل وسلح فكان زوج خنازير . وبعد ان اورد هذه الحكاية اردف معلقا وهذا مما تتلهى به النساء والاولاد ومحبي الخرافات من المفسرين[3] .

واذا اردت الزيادة من هذا فراجع ح ٤/ ٢٢ ح ٤/ ٢٩ ح ٣/ ١٢٩ ح ٦/ ٨٣ . ح ٦/ ١٦٩ .. ومن هذا نرى ان الجاحظ كان يقول بخلق القران اولا وكان من القائلين بالصرفة في اعجازه ثانيا وكان من مؤيدي استعمال العقل في تفسيره ثالثا .

ثانيا الجاحظ والحديث

... على العموم يقال ان موقف الجاحظ من الحديث لم يتخذ صفة الجد . ولهذا نراه

(١) ح ٤/ ١٣ (٢) ح ٤/ ٢٢ (٣) ح ٣/ ١٧

تارة يطيل اسناده ويحقق فيه ، وتارة يقصره او يهمله ، واخرى يورد احاديث ضعيفه وفي غيرها كاد ينطق بمجمل هذا الموقف واليك الامثلة .

كان الجاحظ في كثير من الاحيان يطيل السند علما منه بان ذلك نوع من التحقيق في المسنود مما يخطو به خطوة نحو الحقيقة التي كانت غايته في كل ما كتب واليك مثلا على ذلك = (فضيل بن عياض . عن المطرح بن يزيد . عن عبد الله بن زحر . عن علي بن يزيد . عن القاسم مولى يزيد بن معاوية . عن ابي امامة الباهلي . قال قال رسول الله " ادبوا الخيل . وتسوكوا . واقعدوا في الشمس[1] . . . " .

وفي غيرها كان يختصره اى يورده باقصر اسناد ممكن . من امثال ذلك قوله (عوف عن الحسن قال . قال النبي صلعم " بالمسلم على اخيه ست خصال . يسلم عليه اذا لقيه . وينصح له اذا اغاب . ويعوده اذا مرض . ويشيع جنازته اذا مات . ويجيبه اذا دعا . ويشمته اذا عطس[2]) .

وفي كثير منها كان يرمي الاسناد بالمرة كقوله (قال النبي صلعم " اذا كتب احدكم فليترب كتابه فان التراب مبارك " ٣) .

وفي اماكن اخرى كان لا يطيل ولا يقصر ولا يذكر سندا وانما كان لا يهتم بالسند ايا كان نوعه . انما كان يهمه ان يروى والسلام . مثل قوله (اسماعيل بن عياش . عن الحسن بن دينار عن الخصيفي جحدر " عن رجل " عن معاد بن جبل عن النبي صلعم قال = ليس من اخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم[4]) . فاسمع كيف يروى " عن رجل " ثم يطمئن الى صحة الحديث .

وليس هذا فحسب بل ان من عدم العلمية لم يراع في الاسناد فقط وانما لم يراع في المسنود كذلك . قال (رسول الله صلعم اللهم اذهب ملك غسان وضع مهور كنده [5]) . وكذلك (قال رسول الله صلعم عمران بيت المقدس خراب يثرب . وخراب يثرب خروج الملحمة . وخروج الملحمة فتح قسطنطينية . وفتح قسطنطينية خروج الدجال[6]) .

---

(١) ب ١١٥/٣ (٢) ب ١٠٨/٣ (٣) ب ١٢٢/٣

(٤) ب ٤٣/٢ (٥) ب ٣٥/٢ (٦) ب ٤٢/٢

وكل هذا ان كان ليدل على شيء فعلى عدم اعطاء نصيب كبير من الاهتمام بالحديث. ولعل فيمايلي محاولة لتبرير هذا الموقف . اما لتبرير موقفه في حذف السند فقد قال (كان يزيد بن هبيرة يقول احذنوا الحديث كما يحذفه مسلم بن قتيبة[1]) . فلعله اعجب بطريقة مسلم فاتبعها . اما لتبرير موقفه في عدم الدقة في المستوى فقد قال (قلت لحباب انك تكذب في الحديث . فقال وما عليك اذا كان الذى ازيده فيه احسن منه[٢]) .

الا ان اعداءه لم يقنعوا بهذه المبررات . ولهذا راحوا يتهمونه بكل تهمة . فقال ثعلب بالرغم من انه من تلاميذه (امسكوا عن الاخذ بحديث الجاحظ . فانه ليس بثقة[٣]) . واردف صاحب الميزان بذاته (وانا اقول = لقد كان الجاحظ من اهل البدع[٤]) . اما البغدادى فحدث عن اتهاماته ولا حرج .

الا ان الحق مهما توالت عليه الغمزات وتكاثفت عليه الغيوم – لا بد وان يظهر . فالجاحظ لم يكن " ليس بثقة " وانما كانت له نظرة خاصة في الحديث هي نظرة اكثر المعتزليين الذين يعملون العقل في كل ما لديهم . وهذا مما تضيق ه صدور المتزمتين . فيتعجلون الامور بالتهجم . ولصدق دعوانا – اى ان لرجل كان مخلصا في نظرته العلمية العقلية الى كل شيء – وان كان يخطيء احيانا نورد ما يلي = اولا كان يشك في الحديث ولا يقبله حتى يحقق فيه . ثانيا كان ينبه الى الوضع فيه . واخيرا كان قد وضع قاعدة عامة لقبوله او رفضه .

كان يشك . في البيان قال (على اننا لا ندرى اقال ذلك رسول الله صلعم ام لم يقله . لان مثل هذه الاخبار يحتاج فيها الى الخبر المكشوف . والحديث المعروف[٥]) . وفي الحيوان بعد ان اورد طائفة من الاحاديث عن الوزغ التي لا يمكن لعقل سليم ان يقبلها قال (وهذه الاحاديث كلها يحتج بها اصحاب الجهالات[٦]) .

كان ينبه على الوضع . مما يظهر من قوله في الحيوان بعد ان اورد حديثا في العقرب ملخصه ان من قتل حية او عقربا فكانما قتل كافرا – فعلى هذا المعنى يكون تاليف الحديث[٧] .

---

(١) ب٢/ ٧٢ (٢) ب ٢-٢٣٥ (٣) ميزان الذهبي ٢/ ٢٨٨ (٤) نفس المصدر

(٥) ب ٣/ ٢٨٨ (٦) ح ٤/ ٩٦ (٧) ح ٤/ ٩٨ .

واخيرا - كتاب المعتزلة - راح يهاجم المحدثين لعدم دقتهم وبانهم جماعون يهمهم الجمع والجمع فقط . اما اعمال العقل فليس له الى ما يعملون سبيل . (ولو كانوا يرون الامور على عللها وبرهانا تها خففت المؤونة . ولكن اكثر الروايات مجردة . وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ، ودون الاخبار عن البرهان[1]) .

وليس هذا فحسب بل راح يقرر القاعدة العامة في مثل هذه المشاكل . وهي الاجماع . فاذا اختلف الناس في الحديث كان يصححه قوم ويضعفه اخرون . او كان يروى حديث اخر يناقضه بل افضل عدم الاخذ به لذلك . اوعلى المهتمين بالامر ان يعملوا فيه العقل لغض النظر على الاسناد . ولهذا ترك الاحاديث الواردة في النبيذ لان بعضها يفيد الحل وبعضها يفيد الحرمة ورجع الى عقله يحكمه .

ولكي تطلع على تفاصيل هذا راجعه في اماكن مختلفة من رسالة النبيذ المنشورة في هامش الكامل الثاني سنة ١٣٢٣ ص ٢٥١ فما بعدها .

وبعد هذا - اى بعد ان يشك ، وينبه على الوضع ، ويهاجم عدم الدقة ، ويضع قاعدة واضحة في قبول او رفض اى حديث ، ولخيرا تحكيمه العقل تحكيما مطلقا - لا نستطيع ان نجارى الراى السابق بانه لم يكن ثقة . وانما نقول انه حاول القرب من الحقيق ولكن ذلك كان احيانا يفوته . وليس ذلك بغريب عليه ما دام انسانا معرضا للخطا والنسيان .

هذا هو موقفه من القران ومن الحديث . ويحسن بنا ان نضيف ان مادته في كتبه تدل دلالة واضحة على ان اطلاعه وتفرشه بكليهما كانا من درجة مثلى . حتى لو ان جامعا يجمع متفرقاتهما لتجمع لديه مقدار يعتد به في الكم والنوع .

ثالثا الجاحظ والفقه

والفقه في الاسلام هو استخراج الاحكام من القران والحديث والسنة وما تجمع الى جانبها من المعلومات والجاحظ كمعتزلي اولا وكرئيس للجاحظية ثانيا كانت له اراء في الموضوع اكثر من ان تحصر في مقالة تعد بصفحات. الا اننا سنقتصر على الاهم والاشهر .

---

(١) ح ١/١٦٦

١ – في الاجتماع – لقد راينا من قبل ان الجاحظ لا يرى بالحجاب قط . وقد استشهد على ذلك بالقران وغيره . ولم يغل بالتفريق بين الجنسين كما راينا في القيان . ودعا الى الشيوعية النسائية بتحفظ في ذات الرسالة . اما الغناء فقال انه لا باس به بل وحبذه في ثم افاض في الرقيق وقال انه نوع من التجارة تقع عليه المساومة والمشارات بالثمن . وهذه ناحية سوداء من نواحي فقهه . وتعرض لمسالة اللحم واكله فقال ان لحم الخنزير محرم لا لانه خنزير انما لوساخة في طبعه[١]. وتكلم عن بيض المفامرة[٢] . وحوام الصيد[٣] . فحللهما ونادى بالويل والثبور على من حرمهما . اما النبيذ وتحليله في نظره فحكاية قد طال البحث فيها حتى انه كتب رسالة كاملة في ذلك .

٢ – في الفلسفة الدينية – قال ان المعارف كلها طباع ضرورية وليس منها واحد بالاختيار[٤]. وقال ان لا فعل للانسان الا الارادة[٥]. وقال ان طبائع الاجسام ثابتة ولا يمكن ان تتغير[٦] . وقال غيرها كثير الا ان هذه اهم ارائه الخاصة . الا ان هناك اراء اخرى حرة شارك فيها باقي المعتزلة لا يهمنا ايراداها ولا اطالة البحث فيها بهذا الصدد . لانها تخرجنا عن موضوعنا من ناحية وتطيل بحثنا من اخرى .

يقول ان معرفة الانسان لاى شيء لا تكون باختياره وانما هي مفروضة عليه . ولذلك لا يحاسب عليها . انما يحاسب على ما فعل باختياره . وكل هذا محاولة لحل مسالة القضاء والقدر وعدل الله في ادخال الاشقياء النار. ولتفسير هذا قال = لان يفتح الانسان عينه امر اختيارى . اما ان يرى فامر اضطرارى . وعلى هذا فهو يحاسب على فتح العين لانه كان حر التصرف به لكنه لا يحاسب على ما راى لانه كان مضطرا اليه . ومثل ثاني اورده احمد امين لتوضيح الفكرة هو (لان يحاول الانسان ان يفكر امر اختيارى . اما ان يعلم فامر اضطرارى[٧]) ومثل ثالث اورده الغزالي في المستصفى (ان الجاحظ لا يرى بان الكفار كلهم سيذهبون للنار . ذلك لان اعتقاداتهم اضطرارية . والاضطرار لا حساب عليه . هم احرار في التفكير او عدمه . فان وصلوا الى ان الاسلام حق وكفروا بذلك فانهم يحاسبون . اما اذا لم يصلوا فانهم لن يحاسبوا[٨] الى هذا الحد من النظر الحر وصل بالجاحظ عقله النير .

---

(١) ح ٢/ ٣٤ (٢) ح ٢/ ١٠٧ (٣) ح ٣/ ٥٩ (٤) منية الامل ٣٤

(٥) مقالات الاسلاميين ٤٠٧ (٦) بغدادى ١٢٦ شهرستاني ١/ ٨١ (٧) امين ٣/ ١٣٣

(٨) غزالي ٢/ ٣٥٩

هذا عن مسالة الارادة وعلاقتها بالمعرنة . اما مسالة الجوهر الثابت فلم يقل فيها تنورا عما سبق . فهو يرى ان الجوهر ثابت لا يعتريه الفناء . وهذا هو نفسه القانون الكيماوى المشهور " المادة لا تتغير وانما تتغير صفاتها . تنقص وتزداد في الكم . وتتحور وتتبدل في النوع . اما ان تفنى فلا " وقد غضب عليه المشايخ من اجل هذا . نذكر منهم الشهرستاني الذى قال وعلى هذا فالجاحظ يرى بان الله قادر على الخلق لكنه غير قادر على الافناء .

٣ – نظرات اخرى – نعني انه كان يرى في هذا الكون وحدة لا تتجزا يعمل افرادها كل من محيطه وضمن دائرته للوصول الى هدف عام مشترك فيه الخير للجميع . ورسالته الدلائل والاعتبار الى جانب الشذرات الكثيرة التي وردت في الحيوان خصوصا الفكرة التي طالما رددها في الدفاع عن درس صغار الحيوانات (نعني ان لكل مقامه) ادلة دامغة على هذا الزعم .

ونعني ايضا انه كان يرى في الدين عنصرا متمما للدنيا وانه لا خلاف بينهما كما يخيل لبعضهم . وان الذى يجمع بينهما هو العقل الواعي . قال في الحيوان (وكل وقد انكر ناس من العوام واشباه العوام ان يكون شيء من الخلق كان من غير ذكر وانثى . وهذا جهل بشان العالم واقسام الحيوان . وهم يظنون ان على الدين من الاقرار بهذا مضرة . وليس القول كما قالوا [1]) . وفي المعاد قال ما معناه ان الدين هو الدنيا وان كلا منهما متمم للاخر . (واعلم ان الاداب انما هي الات تصلح ان تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا . انما وضعت الادا على اصول الطبائع . وانما اصول امور التدبير في الدين والدنيا واحدة فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا . وكل امر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين . وانما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين [2]) .

ونعني ايضا انه كان يرى في العقل شيئا يمكن الاعتماد عليه والايمان به لحل كل المشاكل . فالعقل في الادب . والعقل في العلم . والعقل في الدين . والعقل في كل معضلة كان ديدنه . ولهذا قال ابن العميد . كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانيا .

---

(١) ح٣١٢ ح ٣/ ١١٢ (٢) كراوس ص ٩

رابعا موقف الجاحظ في الدين

لقد قال صاحب النزهة ان الجاحظ كان اماما من ائمة المعتزلة[١]. كما قال الخياط لقد كان امة في الدين[٢]. لكن ازاء هذين القولين نجد قول ثعلب انه لم يكن ثقة وقول صاحب الميزان . لقد كان الجاحظ من اهل البدع كما مر معنا . ولكل من الفريقين بالطبع براهينه وادلته المستقاة والتي نعلمها تمام العلم . وامام هذا نرانا في حيرة . ترى هل كان زنديقا مارقا ام انه مظلوم .

ان الجواب على هذا من الصعوبة بمكان . فدفاعه عن الدين الاسلامي عامة ضد اليهود وضد النصارى[٣]، ودفاعه عن فكرته خاصة ضد كل الفرق الاخرى خاصة مثل الدهرية والجبرية والمنانية والمجوسية والمعطلة والرافضة والزنادقة وغيرهم . هذا بالاضافة الى تمجيده الدين من الناحية الايجابية ـ كلها تشير الى اخلاص وتفاني لا يشوبهما شك . ـ الا ان قوله بالحرية العقلية مثلا وبخلق القران وبغيرها كثير في نظر الاخرين كفر لا يشوبه شك ايضا . ترى ما حقيقة الامر . وما السبب في كل هذا التلاعب .

الجواب بقدر ما استطعنا ان نحنثه هو ان الرجل كان مسلما حرا يعتمد على العقل في بيئة مسلمة مقيدة تعتمد على النقل . والعقل دائما متجدد في حين ان النقل دائما محافظ . ومن ينظر الى الوراء لا يمكنه ان يتفق مع من ينظر الى الامام . ولهذا كان ~~التفكير~~/ التكفير والاتهام .

هذه واحدة . اما الثانية فهي لين في الجاحظ جبنا ادبيا تكلمنا عنه . لا يقول رايه بصراحة وانما يدور ويلف ويعمي حتى انه في كثير من الاحيان كان يقول عكس ضميره فيمدح العامة وهو الذى اتخذ ديدنه مهاجمتهم ويمدح السلطان بالرغم من انه نفر الناس من خدمته ويمدح حتى النوكى بالرغم من انه كان دائما يسخر منهم .

هذا هو الجاحظ المعتزلي الجاحظي . اوردنا اكثر ما نستطيع ايراده في صفحات اسفين اولا لقلتها وثانيا لضياع مصادرها الجاحظية الاصلية .

---

(١) نزهة الانبارى ص ٢٥٨ (٢) انتصار الخياط من ياقوت ٦/ ٥٧ (٣) نصارى ١٣ الخ

نظرة و تقدير

من هذا نرى ان الجاحظ كان فريدا في حياته من حيث جمعه المتناقضات سواء في خلقه او خلقه او تدرجه في سلم الحياة . ومنه نرى انه كان مكتابا اى كثير الكتابة واديبا خلف ما لا يقل عن ١٥٠ كتابا مما لا يمكننا معه الا ان نصـفه بانه غير عادى حتى ولو كان موضوع كتابته ضـربا على وتر واحد . ومنه نرى انه كان ذا اسلوب خاص به سواء في التاليف او في الانشاء او في البحث العلمي مما لم يعرف قبله وان كان عرف فان له الفضل في بلورته . ومنه نرى ايضا ان له في موضوعات الادب كالنقد واللغة والشعر وما اليها اراء تحلقت بالسبق من ناحية وبالقيمة العلمية اخرى حتى انه لا يزاحم فيها بعض علماء اوروبا المحدثين . واما الدين فللعقل كلما جار الزمان على الجاحظ صـرخه لانه كان اكبر انصاره ايام سيادة دولة النقل .

نقول كل هذا نراه من دراسة سنة واحدة لكن ترى ما الذى بقي مما لم نره . لحد الان . او بكلمات اخرى = ترى لو طال بنا الوقت ما الذى كان يمكننا ان نخرجه بللسوق من دوحة ابي عثمان او من بحر بن بحر . نحن لا يخالجنا شك في ان الدوحة ملاى بالثمار ولا في ان البحر زاخر بالجواهر . لكن ما هي . وكيف يمكننا اسـتخراجها . هذا هو السؤال الذى بقي يجول في الصـدر . وهو الذى نرجو ان يوفقنا الله لجوابه في المستقبل القريب ـ هذا ان لم يقم " احد الذين لا يعملون ..." فيعمل ، ويسـبقنا اليه .

الملحق الاول   في مصادر الدراسة

(١)	عيون ابن قتيبة	٢٧٦	القاهرة	١٣٤٦
(٢)	تاويل بن قتيبة	٢٧٦	القاهرة	١٣٢٦
(٣)	مختصر بن الفقيه	٢٨٠	لايدين	١٨٨٥
(٤)	كامل المبرد	٢٨٥	لايبزج القاهرة	١٨٦٤ ١٣٢٤
(٥)	محاسن ومساوى البيهقي	٣٢٠	لايدين	١٩٠٣
(٦)	عقد ابن ربه	٣٢٨	القاهرة	١٢٩٣
(٧)	وزراء الجهشيارى	٣٣١	القاهرة	١٩٣٨
(٨)	مروج المسعودى	٣٤٦	باريس	١٨٧٢
(٩)	تنبيه المسعودى	٣٤٦	لايدين	١٨٩٣
(١٠)	اغاني ابي الفرج	٣٥٦	القاهرة	١٢٩٣
(١١)	فهرس ابن النديم	٣٨٥	لايبزج	١٨٧١
(١٢)	مقابسات التوحيدى	٤٠٣	القاهرة	١٣٤٧
(١٣)	اعجاز الباقلاني	٤٠٣	القاهرة	١٣١٥
(١٤)	فرق البغدادى	٤٢٩	القاهرة	١٣٢٨
(١٥)	يتيمة الثعالبي	٤٣٠	بيروت	١٣٠٤
(١٦)	ملل بن حزم	٤٥٦	القاهرة	١٣١٧
(١٧)	ملل الشهرستاني	٥٤٨	القاهرة	١٣١٧
(١٨)	تاريخ بن عساكر	٥٧١	دمشق	١٣٢٩
(١٩)	نزهة الانبارى	٥٧٧	القاهرة	١٢٩٤
(٢٠)	ادباء ياقوت	٦٢٦	القاهرة القاهرة	١٩٣٠ ١٩٣٧
(٢١)	بلدان ياقوت	٦٢٦	لايبزج	١٨٦٦
(٢٢)	مثل ابن الاثير	٦٣٧	القاهرة	١٢٨٢
(٢٣)	حكماء القفطي	٦٤٦	القاهرة	١٣٢٦
(٢٤)	طبقات ابن ابي اصيبعة	٦٨٨	القاهرة	١٣٠٠

(٢٥) تاريخ ابي الفداء	٧٣٢	القاهرة	١٣٢٥
(٢٦) ميزان الذهبي	٧٤٨	القاهرة	١٣٢٥
(٢٧) تاريخ بن الوردى	٧٤٩	القاهرة	١٢٨٥
(٢٨) وفيات ابن خلكان	٧٦١	القاهرة	١٢٧٥
(٢٩) حيوان الدميرى	٨٨٨	القاهرة	١٣٠٥
(٣٠) صبح القلقشندى	٨٢١	القاهرة	١٣٣٧
(٣١) مستطرف الابشيهي	٨٥٠	القاهرة	١٣٠٦
(٣٢) بغية السيوطي	٩١١	القاهرة	١٣٢٦
(٣٣) طراز الخفاجي	١٠٦٩	القاهرة	....

ب ـ كل هذا بالاضافة الى كتب الجاحظ نفسه التي سبق وتكلمنا عنها مسهبا ومنفصلا في الفصل الذى خصصناه لها في الرسالة ما بين ص ٥٠ ـ ١١٨ .

ج ـ وبالاضافة ايضا الى ما يلي من كتب المحدثين .

(٣٤) معارف البستاني	بيروت	١٨٨٢
(٣٥) تاريخ اللغة العربية لزيدان	القاهرة	١٩١٣
(٣٦) الموسوعة الاسلامية	لايدين	١٩١٣
(٣٧) مجلة المشرق	بيروت	١٩٢٨
(٣٨) مجلة المجمع العلمي	دمشق	١٩٣٢
(٣٩) رسائل السندوبي	القاهرة	١٩٣٢
(٤٠) ادب السندوبي	القاهرة	١٩٣١
(٤١) نثر زكي مبارك	القاهرة	١٩٣٤
(٤٢) تطور المقدسي	بيروت	١٩٣٥
(٤٣) فهرس شفيع للعقد	كالكوتا	١٩٣٥
(٤٤) ضحى امين	القاهرة	١٩٣٦
(٤٥) الجاحظ مردم	دمشق	١٩٣٦
(٤٦) مختار النشاشيبي	القدس	١٩٣٧
(٤٧) جاحظ جبرى ش.	دمشق	١٩٣٨
(٤٨) ملحق بروكلمن	لايدين	١٩٣٨

الملحق الثالث – في الذين اخذوا عنه

لقد قال القاضي الفاضل ان ما منا احد معاشر الكتاب الا وتطفل على تراث الجاحظ . ان نقلا او استفاده او تعليقا . ولعلي في القائمه التاليه احاول او بالاحرى ادعم قول القاضي بمراجع موضوعيه استطعت ان اقع عليها في اثناء الدراسه .

(١) المسعودي في مروجه

٣/ ٤	٧/ ٢٢٢
٣/ ١٧	٧/ ٢٢٣
٣/ ٢٢	٧/ ٢٢٥
٦/ ١٣١	٧/ ٢٢٧
٦/ ٣٦٦	٨/ ٣٢٦

(٢) ابن عبد ربه في عقده

١/ ٢٦	٢/ ٢١٢
١/ ٩٣	٢/ ٢٤٣
١/ ١٨٤	٢/ ٢٤٤
١/ ٢٧٠	٣/ ٢٦
١/ ٢٨٧	٣/ ١٨٧
١/ ٣١١	٣/ ٣٣٥
٢/ ٢٢	٣/ ٣٤٣
٢/ ٩٢	٣/ ٣٤٦
٢/ ١١٦	٣/ ٣٨٦

(٣) ابن قتيبة في عيونه

١/ ٢١٩	٣/ ١٩٩
٢/ ٣٣	٣/ ٢١٦
٢/ ٥٦	٣/ ٢٤٩
٢/ ٢٠٤	٤/ ١٠٨
٣/ ١٣٧	...

(٤) ابو الفرج في اغانيه

٢/ ٨	٨/ ٣٥٤
٢/ ٤١٣	١٠/ ١١٦
٣/ ١٤٥	١٠/ ١٨٠
٣/ ١٧٧	١٠/ ٢٣٦
٣/ ٢١٢	١٦/ ٤٣
٣/ ٢٢٤	١٨/ ٤٥
٤/ ٣٦	...

(٥) الجهشياري في وزرائه

٦/١١٠	١/١٦٤
٥/١١٦	١/١٩١
١٢/١٢٧	...

(٦) المبرد في كامله

٥/١٧١	٧/٣٥٢
٣/١٦٦	٥/٣٦٤
١/٢٣٧	٢/٤١٩
١٧/٢٨٣	١٥/٤٧٢
١٥/٣٢٠	١٠/٧١١
٥/٣٣٨	٣/٧٣٧

(٧) اخرون = معجم ياقوت ١/ ٢١ ٧/ ١٠٨ ٧/ ١٦٥ ابن الفقيه في المختصر ١١٦/١/ ٦ ١١/ ٢٥٣ . ابن عساكر ١/ ٧٧ . ابن النديم ١٤٤ . محاسن البيهقي = كله .

الملحق الرابع – اولا في شعره

لقد حاولنا جهدنا ان نجمع اكبر عدد ممكن من شعر الجاحظ لنطلع على نفسه الشعرى ومفهومه الخاص للشعر . الا اننا لسوء الحظ لم نجد كثيرا من ذلك فاضطررنا ان نكتفي بما يلي بعد ان جمعناه من مصادر متفرقة . والناظر فيه يرى ان اكثره شعرا ميكانيكيا ضعيف الخيال وسقيم العاطفة ، اغلبه مدح وباقيه شعر مناسبات .

١) – كتب الجاحظ الي احمد ابن ابي دؤاد

لا تراني وان تطاولت عمدا بين صفيهم وانت تسير
كلهم فاضل عليّ بمال ولسانه يزينه التحبير
فاذا ضمّنا الحديث وبيت وكاني على الجميع امير
رب خصم ارق من كل روح ولفرط الذكا يكاد يطير
فاذا رام غايتي فهو كاب وعلى البعد كوكب مبهور

ياقوت ٦/ ٦٠

٢) – ويقال ان الابيات التالية مدح بها ابن ابي دؤاد وابن رباح وابن الجهم

بدا حين اثرى باخوانه ففل عنهم شباة العدم
وذكره الدهر صرف الزمان فبادر قبل انتقال النعم
فتى خصه الدهر بالمكرمات فمازج منه الحيا بالكرم
ولا نيكت الارض عند السؤال ليقطع زواره عن نعم

ياقوت ٦/ ٦٠

٣) – قال يموت هجا خالي ابو عثمان الجماز بابيات منها :

نسب الجماز مقصور اليه منتهاه
تنتهي الاحساب بالناس ولا تعدو قفاه

ياقوت ٦/ ٦٠

٤) – قال المبرد انشدنا الجاحظ في مرضه

اترجو ان تكون وانت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

ياقوت ٦/ ٨٠

٥) — <u>وقال في احدهم متفلسفا وهو من احسن ما قال</u>

خضعت لبعض القوم ارجو نواله ... وقد كنت لا اعطى الدنية بالقسر
فلما رأيت الشخص يبذل بشره ... ويجعل حسن البشر واقية الوفر
رجعت على ضلعي، وراجعت منزلي ... نصرت حليفا للدراسة والفكر
وشاورت اخواني، فقال حليمهم ... عليك الفتى المرى ذا الخلق الغمر
اعيذك بالرحمن من قول شامت ... ابو الفرج المأمول يزهد في عمرو
ولو كان فيه راغبا لرأيته ... كما كان دهرا في الرخاء وفي العسر
اخاف عليك العين من كل حاسد ... وذو الود منخوب الفؤاد من الذعر
فان تسرع ودّى بالقبول فاهله ... ولا يعرف الاقدار غير ذوى القدر
ياقوت ٦/ ٧٩

٦) — <u>ومن شعره في ابن ابي دؤاد</u>

وعويص من الامور بهيم ... غامض الشخص مظلم مستور
قد تسنمت ما توعر منه ... بلسان يزينه التحبير
مثل وشي البرود هلهله الن ... سج وعند الحجاج در نثير
حسن الصمت والمقاطع اما ... نصت القوم والحديث يدور
ثم من بعد لحظة يورث اليـ ... سر بعرض مهذب موفور
ياقوت ٦/ ٥٩

٧) — <u>ومن شعره في ابن الزيات — قوله</u>

بدا حين اثرى باخوانه ... ففلل عنهم شباة العدم
وابصر كيف انتقال الزمان ... فبادر بالعرف قبل الندم
كرد علي ص ٢٩٢

وانه لا ليحسن بنا ان نلاحظ ان هذه القطعة اوردها من قبل ياقوت واوردناها سلفا نمرة ٢ وقد اختلف النص في الروايتين . والى جانب هذا الاختلاف يجب ان نذكر ان كرد علي فيهما هو المتاخر .

٨) — <u>وانشد المبرد للجاحظ قوله</u>

ان حال لون الراس عن لونه ... ففي خضاب الراس مستمتع
هب من له شيب له حيلة ... فما الذى يحيا له الاصلع
ياقوت ٦/ ٥٠

٩) — قال ابو العيناء انشدني الجاحظ لنفسه في ابرهيم بن رباح .

وعهدي به والله يصلح امره رحيب مجال الراى منبلج الصدر
فلا جعل الله الولاية سبة عليه فاني بالولاية ذو خبــــر
نقد جهدوه بالسؤال وقد ابى به المجد الا ان يلج ويستشرى
ياقوت ٦/ ٦٦

١٠) — قال الجاحظ في ابي الفرج يساله اطلاق رزقه من قصيدة طويلة

اقام بدار الخفض راض بخفضه وذو الحزم يسرى حين لا احد يسرى
يظن الرضى شيئا يسيرا مهونا ودون الرضى كاس امر من الصـــبر
سواء على الايام صاحب حنكة واخر كاب لا يريش ولا يبـــرى
ياقوت ٦/ ٧٩

١١) — قال ابو العيناء انشدني الجاحظ لنفســه .

يطيب العيش ان تلقى حليما غذاء العلم والراى المصيب
ليكشف عنك صلة كل ريب وفضل العلم يعرفه الاريب
سقام الحرص ليس له شــفاء وداء البخل ليس له طبيب
ياقوت ٦/ ٦٥

١٢) — وقال ابن خلكان في وفياته انشد الجاحظ معتبرا .

لقد قدمت قبلي رجال نطالما مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تاتي صروفه فتبرم منقوضا وتنقض مبرما
ابن خلكان ٨/٥٥٥

١٣) — وروى له ابن خلكان ايضا قوله في الاصحاب .

وكان لنا اصدقاء مضوا تفانوا جميعا وما خلدوا
تساقوا جميعا كؤوس المنون فمات الصديق ومات العدو
ابن خلكان ٨/ ٥٥٥

١٤) — روى ياقوت قوله في مرضه .

مريض من مكانين من الافلاس والدين
ياقوت ٦/ ٦٢

١٥) - وروى له المبرد في كامله قوله .

فاذا بلغتم ارضكم فتحدثوا ومن الحديث متالف وخلود

فاثنوا علينا لا ابا لابيكم بافعالنا ان الثناء هو الخلد

الكامل للمبرد ١/ ٢١٣

١٦*) - وروى له ايضا قوله .

اما رايت بني بحر وقد حفلوا كانهم خبز بقال وكتاب ...

هذا طهل وهذا حنبل جحد يمشون خلف عمير صاحب الباب

الكامل للمبرد ١/ ٢٩١

١٧) - نقل له السندوبي في مقدمة البيان والتبيين قوله .

بخدى من قطر الدموع ندوب والقلب مني مذ نايت وجيب

ولي نفس حتى الدجى يصدع الحشا وجع حنين للفؤاد مذيب

ولي شاهد من ضر نفسي وسقمها ويخبر عني انني لكئيب

كاني لم افجع بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب

مقدمة البيان ٢/ ١٩

١٨) - روى السندوبي ان ابا العيناء قال الجاحظ .

زرت فتاة من بني هلال فاستعجلت الي بالسؤال

مالي ارك قاني السبال كانما كرعت في جريال

ما يبتغي مثلك من امثالي تنحى قدامي ومن حيالي

مقدمة البيان ١/ ١٥

١٩) - ونقل السندوبي ايضا قوله في الجماز .

نسب الجماز مقصور اليه منتهاه

تنتهي الاحساب بالناس ولا يعدو قفاه .

يتحاجى من ابو الجماز فيه كاتباه

ليس يدرى من ابو الجماز الا من يراه

مقدمة البيان والتبيين ١/ ١٥

اذا قارنا هذه بما ورد في نمرة ثلاث نلاحظنا ان السندوبي قد اضاف البيتين الاخيرين على رواية ياقوت . اما من اين اتى بهما فالله اعلم .